

# أم كلثوم
## وحكام مصر

سعيد الشحات

طبعة مزيدة ومنقحة

# أم كلثوم وحكام مصر

سعيد الشحات

## إهداء

إلى الراحلين أبي وأمي

عاشا للفضيلة..

وما زال ضوؤهما يشع في قلبي.

# الفهرس

# مقدمة

كنت صغير السن في جلسات للكبار.. لكني شاهدا على وداع أبى وخالي وبعض من أقاربنا لنهار يـومهم بعـد أن قضوه في حقولهم منذ شروق الشمس على قريتنا المخلصـة لجغرافية وطقوس الوطن.. يقضون أمسية الليل فوق سـطح دارنا ذات الملمح الطيني انتظاراً لحفل أم كلثـوم وأغنيتهـا الجديدة.. أو خطاب لعبد الناصر ينقلهم إلى غد جديد.. خالي المنكفئ على موقد النار لتسوية الشاى على نار هادئة، يذكر حكايات عن شكل الناس المحظوظة بحضور حفلات أم كلثوم ومشاهدتها عن قرب، ويردد أسماء.. السـنباطى.. بيـرم.. الشيخ زكريا.. القصبحى، وغيرهم، ثم يطلق تنهيدة فكلمة "يا سلام" على "شمس الأصيل دهبت خوص النخيـل".. ينتقـل بسلاسة فائقة وخيال خصب إلى حكايات السياسـة وأحـوال الجبهة،وأخبار الحرب مع إسرائيل.. يشاركه أبى بأقوال عبد الناصر وحكايات عنه أشبه بالأساطير، وما قاله الراديو مـن مقال هيكل الشهير "بصراحة" كان الراديـو جسـرهم إلـى العالم.. أما جلساتهم فكانت عندى العالم كله..

• هل كان هذا هو البدء عندى نحو حب عبد الناصر وأم كلثوم؟..

ربما.. فمخزون الذكريات يرشدني إلى ما كنـت أنقلـه بشغف في اليوم التالى لجلسات الكبار من حكايـات زملائـى التلاميذ في المدرسة.. ويرشدني الى ما اسـتمعته عـن عـم والدتي الذي لم يترك حفلة لأم كلثوم إلا وحضرها وكـان لا يفيق من مرض موته إلا على صوتها!!

كما أرشدني مخزون الذكريات الى حكايات أخرى لخالي الثاني الذى عرف طريقه إلى حفلاتها بزيه الفلاحي الأنيـق، وليل القاهرة المبهج معها، وحكايات أخرى عن بكاءه المـر ومشاهدته لبكاء الحاج حسانين فراج أحد وجهاء وأعيان قريتنا وهما يحضران حفلتها التي شـدت فيهـا بأغنيـة: "حسـيبك للزمن.. لا عتاب ولاندم".. أما الحكاء العظيم عمدة قريتنـا الحاج عزت عبدالحفيظ فحكاياته عن حفلاتها كانت كنزا ثمينا ندمت على عدم تسجيلها ولكنها وما سبق ذكره بقيت نبضـا ينعشني دائما.

والمؤكد أن كل هؤلاء كانوا في ذهن نجيب محفوظ وهو يقول في رواية "ميرامار": "ليلة غنائهـا هـى ليلـة جميـع الطبقات، والأفراد، وصوتها علامة عصر بأكمله".

عرفت فيما بعد أن جلسات الكبار على سـطح دارنـا.. كانت تعبيرا عن حالة جماعية يعيشها الوطن العربـى مـن محيطه إلى خليجه.. فحين كان جمال عبد الناصر يلقي خطابا سياسيا، تتوحد كل موجات الإذاعـة فـي الـوطن العربـى، منضبطة على ما سيقوله لتستمع الجماهير إلـى مـن امتلـك ناصية قلوبهم، وامتلك قدرة سحرية على صـياغة أفكـارهم وسلوكياتهم.. أما أم كلثوم، وكما قالت مجلة "لايف" الأمريكية عام ١٩٦٢: "في الساعة العاشرة ليلة الخميس الأول من كـل شهر، يحدث شئ غريب في الشرق الأوسط.. يهدأ الضـجيج في شوارع القاهرة فجأة.. وفي الدار البيضـاء التـى تبعـد ٢٥٠٠ ميل إلى الغرب، يكف الشيوخ عن لعب الطاولة فـي المقاهى.. وفي بغداد التى تبعد ٨٠٠ ميل إلى الشرق، يحدث نفس الشئ. الكل ينتظرون برنامجا معينا تذيعه إذاعة القاهرة، مدة هذا البرنامج خمس ساعات، ويذاع ثمـاني مـرات فـي السنة، ونجمته مطربة اسمها أم كلثوم".

سالت هذه الذكريات وأنا أبحث عن مادة هـذا الكتـاب، وكنت أعتزم في البداية أن أخصصه فقط عن علاقـة جمـال عبدالناصر وأم كلثوم لأسباب كثيرة لخصها شـيخ الروايـة العربية نجيب محفوظ بقوله لبرنامج تليفزيوني فرنسي عنها: "اعطى عبدالناصر لغنائها معنى جديدا"، لكن نصيحة تلقيتهـا من الكاتب الصحفي الكبير عادل حمودة بأن أتوسـع ليكـون المجال هو علاقة أم كلثوم بحكام مصر التي عاصرتهم، وهي النصيحة التي جاءت في محلها تماما.. فأم كلثوم التي ولـدت في قرية طماي الزهايرة محافظة الدقهلية في نهايـة القـرن الـ١٩، أو مطلع القرن العشرين وتوفيت في ٤ فبراير عـام ١٩٧٤ عاصرت خمسة حكام فعليين لمصر وستة إذا أضـفنا محمد نجيب كأول رئيس للجمهورية بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، فقد بدأت مسيرتها الفنية وهي طفلة وكان يحكم مصر السلطان حسين كامل ثم تولى الملك فؤاد، وانتقلت الى القـاهرة فـي سنوات حكمه الأولى، وبعد فؤاد جاء ابنه الملك فاروق، وفي عهده دان عرش الغناء لها، ثم جاء محمد نجيب لفترة قصيرة بعد قيام ثورة يوليو، فجمال عبدالناصر، ثم أنور السادات التي رحلت في عهده، وعليه فإن سيرة هذه السيدة كما يوضح هذا

الكتاب هي سيرة وطن في مراحل تاريخية امتدت لعشـرات السنوات في القرن العشرين، وشهدت هذه السنوات تحـولات هائلة في المسـارات السياسـية والاجتماعيـة والاقتصـادية والفنية، وانتقلت مصر والمنطقة العربية من حال الى حـال، ولم تكن أم كلثوم بعيدة عن كل هذا، بل انغمسـت إنغماسـا مباشرا في أحداث وتفاعلات سياسية هامة أكدت على تمازج الفن بالسياسة.

وتأتي هذه الطبعة الجديدة لتضيف وقائع على ما جاء في الطبعة السابقة، وتعطي مساحة متسعة لمراحل أم كلثوم فـي عهود السلطان حسين كامل، والملك فؤاد، والملك فاروق، كما تصحح بعض الأخطاء وتدقق بعض الأحداث التاريخية. كمـا رأيت أن أزوده في نهايته بنص مقالها الكامل الذي كتبته عن جمال عبدالناصر في ذكـرى رحيلـه الأولـى عـام ١٩٧١ والحصيلة ليست تأريخا لسيرة أم كلثوم، وإنما محاولة البحث في كيفية تفاعلها مع المراحل السياسية التي عاشتها.. وكيف تعاطت مع من حكموا الشعب المصري وهي منـه؟، وكيـف نظر اليها هؤلاء الحكام؟ وكيف انعكست هذه العلاقـة علـى مشروعها الفني؟

أسئلة كثيرة يحاول هذا الكتاب البحث عن إجابـة لهـا، وذلك بالعودة الى المراجع، والاستماع الى شهادات شخصيات اقتربت من أم كلثوم ليعطي كل ذلك صورة، اجتهدت في نقلها قدر الإمكان بما فيها من تداخل بين الفن والسياسة، وتقـارب الأشخاص وتباعدهم، والمعاني الإنسانية التي تفاعلت تحـت السطح، وفوقه لتؤكد أننا أمام بشر هم قطعة من لحم ودم هذا الوطن، واتبعت أسلوب "الفلاش باك" في الكتابة وبعد أتقـدم بالشكر الى كل الذين شجعوني لإنجاز هذا الكتاب، وزودنـي بنصائح بعد قراءة الطبعة الأولى ووفروا لي كل السبل خاصة زوجتي.

**سعيد الشحات**

**كوم الآطرون ـ طوخ ـ قليوبية**

**الأول من سبتمبر ٢٠٠٥**

# ١

# عبد الناصر:

# "أم كلثوم.. دي بنت جدعة"

غير معروف عن أم كلثوم تصـديها لكتابـة مقـالات صحفية.. فعلت هذا مرة واحدة فـي أكتـوبر عـام ١٩٧١، وخصت به مجلة ثقافية هامة هى مجلة الهلال.. كان المقـال بمناسبة مرور عام على رحيل عبد الناصر.. واحتوى علـى تعبيرات مثل.. "معلمى.. أستاذى.. تعلمت منه".. غيـر أنـه يكشف عن أول مرة التقت فيها بعبد الناصر، تقول: "لا أزال أذكر أجمل الذكر.. المرة الأولى التي رأيت فيها جمال عبـد الناصر.

كان ذلك في عام المأساة الكبرى فـي تـاريخ الأمـة العربية، مأساة فلسطين سنة ١٩٤٨.. حيث هبت مصر للذود عن الأرض السليبة، وذهب الجيش إلى هناك، وكـان علـى أبواب النصر، لولا أن دبرت له الدول الكبرى المؤامرة التى انتهت بخدعة الهدنة الأولى، ثم الثانية، فانقلب النصـر إلـى هزيمة، وحوصر أبناؤنا في الفالوجة حصاراً قاسـياً مريـراً

أبدوا خلاله ألوانا أسطورية من البطولات في الصـمود فـي وجه العدو، كانت مثار إعجاب العالم".

تابعت أم كلثوم ككل المصريين أخبار ما يحـدث فـي فلسطين وخاصة حصار الفالوجا وما فعلته الكتيبة المصـرية فيه من بطولات بقيادة الضابط السيد طه الذي اشتهر باسـم "الضبع الأسود".. تضيف أم كلثوم في مقالها بالهلال:

"كنت أتتبع أنباء إخوتي وأبنائي أبطال الفالوجـا يـوم بيوم، وساعة بساعة، وقلبي معهم يخفق لهم في كل لحظـة، ويضرع إلى الله أن يؤيدهم في صمودهم العظـيم، إلـى أن يردهم إلينا سالمين، واستجاب الله الـدعاء، وعـاد أبطـال الفالوجا إلى القاهرة، وعلى رأسهم قائدهم البطل، المرحـوم السيد طه، ودعوتهم جميعاً، جنوداً وضباطاً، إلى حفل شـاي في بيتي، ووجهت الدعوة كذلك إلى وزير الحربيـة (حيـدر باشا) في ذلك الحين الذى اتصل بـى معتـذراً عـن عـدم استطاعته تلبية الدعوة، وأضاف أنه لا يرى ضرورة لـدعوة الجنود والضباط أيضاً.

واستغربت منطقه، وقلت له:

لقد وجهت إليهم الدعوة، وانتهيت، وسأكون سعيدة بهذا اللقاء، فإذا شرفتنا بالحضور فأهلاً وسهلاً، وإذا لـم تسـتطع فهذا شأنك ".

وتضيف أم كلثوم:

جاء الابطال إلى بيتى، واستقبلتهم بـدموع المصـرية الفخورة بأبناء مصر، وجلست بيـنهم، وأنـا أشـعر أنهـم أسرتي.. صميم أسرتي.. إخوتي وأبنائي.

وأذكر يومئذ أنني أقمت لهم في حديقة البيـت محطـة إذاعة صغيرة، تذيع عليهم ما يطلبون من أغنياتي، وقدم لـى "الضبع الأسود" ضباطاً وجنوداً واحداً واحداً.. وحدثني عـن أصحاب هذه البطولات، وكان من بينهم الضابط الشاب جمال عبد الناصر، وشددت على يده، وأنا أصافحه، وأتأمـل فـي عينيه من بريق الوطنية...وحدة العزم.. وعمـق الإيمـان، وكان هذ هو أول لقاء لـى بالبطـل قبـل أن يلعـب دوره التاريخى في حياة مصر بأربع سنوات.

قصة هذا اللقاء الذى أوردته أم كلثـوم فـي مقالهـا... سبقته مقدمات أدت إليه، يرويها سعد الدين وهبه قائلا:

كانت أم كلثوم مهتمـة جـداً بحـرب ١٩٤٨، وتتـابع أخبارها من الصحف التى تعودت على شرائها في هذه الفترة ساعة الفجر، وتسبب هذا - كما روت لى - فـي مرضـها الأول.. وكان لمشاركة ابن أختها كضابط في الجيش في هذا الحرب سبب إضافيا لاهتمامها..وأثناء حصار الفالوجا، غاب اليأس ضباط الحصار نتيجة عدم اسـتجابة المسـئولين فـي مصر لأى مطلب من مطالبهم الخاصة بالقتال، فقرروا كتابة رسالة إلى أم كلثوم يطالبونها بتقديم أغنية "غلبت أصالح فـي روحي".. وكان عبد الناصر هو صاحب الاقتـراح.. ولمـا تشكك الضباط في تلبيتها لهـذا المطلـب، رد علـيهم: لا.. "هتغني أصلها بنت جدعة".. تلقى حيدر باشا الرسالة بدهشـة بالغة من هذا المطلب غير المتوقـع، ولعجـزه عـن تلبيـة مطالبهم العسكرية، لم يكن أمامه غير سوى توصيل رسـالة الضباط إلى أم كلثوم... التف الضباط والجنود المحاصـرون حول الراديو وضبطوا الموجة الإذاعية التـى تبـث حفلهـا الشهري المعتاد وترقبوا ما إذا كانت الرسالة وصلتها أم لا ؟، وهل ستستجيب لمطلبهم أم لا؟، وكانت المفاجأة فـي أغنيـه "غلبت أصالح"، بالإضافة إلى أغنية "أنا في انتظارك".. فرح

المحاصرون، وشعروا في هذا الوقت أن في مصر من يستمع إليهم ويحس بنبضهم ويلبي مطلبهم، ويخصهم بشئ ما.

بعد الخطاب.. ثم اللقـاء.. مضـى كـل منهمـا إلـى طريقه...عاد جمال عبد الناصر من الفالوجا إلى مصر بقناعة أن تحرير فلسطين يبدأ من تحريـر القـاهرة، وبحـث فـي الأرض وهو في الظل عن بذور التغيير فكان تنظيم الضباط الأحرار.. ومضت أم كلثوم إلى فنها.. ينتظرهـا الجمهـور كعادته الخميس الأول من كل شهر.. انتظارا وصفه الشاعر كامل الشناوى: "أصبح لدينا تقويما جديداً..اسمه تقويم السـنة الغنائية أو الشهر الغنائى يبدأ ليلة حفل أم كلثوم".

كان الغليان الشعبى ضد الأوضاع السائدة يقترب مـن نقطة الانفجار.. والكفر بالأحزاب الموجـودة بلـغ محلـه.. ويصف المؤرخ طارق البشري الفترة التى عانت فيها الحياة المصرية من إلغاء معاهدة ١٩٣٦ فـي ينـاير ١٩٥٢: "لـم تستطيع التيارات السياسية الشـعبية وتنظيماتهـا أن تتجمـع سريعا في شكل من أشكال الجبهات التى يمكنها تجميع الرأى العام السياسى وراء الأهداف المتفق عليهـا، ويـوم حريـق القاهرة نفسه كادت مصر أن تكون بغير سلطة، وانفلت زمام

الأمور، ورغم ذلك لم تستطع التنظيمات القائمة مجتمعـة أو متعددة أن تلتقط أياً من أطراف السلطة الملقاة طريحة، وقـد لوحظ في تلك السنوات الأخيرة، أن ما بين العناصـر غيـر الحزبية من الوطنيين تيار يفتش عـن "الرجـل" و "القائـد" "الزعيم"، بل ينادي جهراً بحثاً عن "الـديكتاتور" ـ ـ الـذى تحتاجه مصر، وزاد هذه الاتجاه نموا بعد انكسار التنظيمـات الشعبية الذي أعقب الحريق، وحتى ٢٣ يوليو ١٩٥٢".

كانت الأغنية تعيش آنذاك محنتها، شأنها في ذلك شـأن الوطن، وبدأت ذروة المحنة مع الحرب العالمية الثانية.

يقول الموسيقار محمود الشريف في مذكراته:

"ترددت قبل الحرب على بعض المسارح فـي "روض الفرج" ومسرح على الكسار، والتى تحولت بعدها كلها إلـى كباريها للترفيه عن جنود الحلفاء، وتغير كل شئ... الأفاقون والسماسرة والعربجية الذين يتعاملون مع جيـوش الحلفـاء، تحولوا إلى أثرياء حرب، وتحول الفن إلى سـوق رخـيص، وتحولت معه، جامعات السبارس إلى راقصات، ومطربـات ومنولوجست، ولم يبق سوى عبد الوهاب، الذى لزم الصمت، وتوقف عن العمل إلا فيما ندر.. صار الفن ملهاة للجنود في

الكباريهات، واشتقت كل الأغنيات من صـاب "أحبـك يـا جوني"، وانتقل أثرياء الحرب من باب اللوق والشعرية إلـى الزمالك وجاردن سيتي، لتصبح القاهرة كباريه كبيرا".

يضيف الشريف: "تأكد لى سخف الأغاني التـى كانـت تردد اسم فاروق (الملك) بالحب والإجلال والتكـريم، بينمـا الجماهير تهتف بسقوطه في شوارع القـاهرة والإسـكندرية، وتكشف لى أن الجماهير كانت في طريق والقادة والمغنين في طريق آخر بعيدا عن الناس وعما يعتمل في نفوسهم".

ويقول الموسيقار كمال الطويل:

شهدت مصر في الأربعينـات مـن القـرن العشـرين مجموعة أصوات عظيمة.. عبد الغني السيد، كارم محمـود، وغيرهما من الأصوات الجميلة..ورغم جمال هذه الأصوات، إلا أن أصحابها تأثروا بالمناخ الاجتمـاعي الـذى أفرزتـه الحرب العالمية الثانية.. ففي زمن الحرب ينقلب الهرم، بحيث يصعد البعض فوق التل مثل تجـار بضـاعة "القُـرنص" أو مخلفات الحرب... ومع الثراء المتولد من هذه التجارة، يحتاج الأثرياء الجدد إلى ما يناسبهم من الفن، كـنمط أغـاني "يـا شبشب الهنا".. هذا النوع من الأغاني كان يحتاج إلى راقصة

مع تقديمها لزوم الذوق الجديد.. هناك أسماء لم تنخرط في هذه الموجة.. لكن تظل السمة العامة لهذا الجيل في هذه المرحلة هي التأثر بجو الملاهى الليلة.

يتداخل في هذه اللوحة السياسي بالفني.. يتحدد فيها موقع جمال عبد الناصر بتصدية لتأسيس تنظيم الضباط الأحرار.. لكن السؤال، أين كانت أم كلثوم من هذه اللوحة؟

لا نستطيع القول أن أم كلثوم وسط هذه الأمواج أخذت بأغنيتها نهجاً ثورياً.. مقاوماً.. بالمعني المباشر للثورية والمقاومة..لكنها وكما يقول محمد حسنين هيكل:

"كانت واحدة من مجمل الأسماء التى تحولت القاهرة بفضلها من أواخر القرن (١٩) إلى بداية النصف الثاني من القرن العشرين إلى عاصمة عربية من غير جهد سياسى، من عمل الشعراء، من جبران لغاية شوقى إلى مطران.. أى مرحلة النهضة.. أم كلثوم وعبد الوهاب والكتاب: توفيق الحكيم، طه حسين، العقاد، وأضيف إليهم من الشام ومن لبنان ميخائيل نعمية وبشارة الخورى".

ويقول كمال النجمى:

" إنتقلت أم كلثوم من غناء "إيه أسمى الحب".. و"الأولة في الغرام والحب شبكوني" و"كل الأحبة اثنين" و "أنـا فـي انتظارك".. انتقلت من هذا الغناء العربى الشعبى على جماله وطلاوته وارتفاع مستواه إلـى مرحلـة القصـائد الشـوقية الباذخة".

لم تكن أم كلثوم ثورية بـالمعنى الـدارج للكلمـة، ولا سياسة بنفس المعنى. لكن معرفة البيئة التـي ولـدت فيهـا والمناخ الذي تربت فيه يلقي ضوءا كاشفا علـى اختيارهـا لمواقفها ومفسرا لإنتمائها، فهي ولدت لأسرة فقيرة في قريـة طماي الزهايرة بمحافظة الدقهلية، وهناك خلاف على تاريخ مولدها ويذكر الشاعر أحمد عنتر مصطفى مدير متحـف أم كلثوم أنه خلال جمع المقتنيات الخاصة بالمتحف كانت لـدى المرحوم محمد الدسوقي عميد أسرتها أربعة جوازات سـفر كل منها تذكر تاريخا غير الآخر في خانة تـاريخ المـيلاد، ويضيف: بالرغم من أنني قمت بإستخراج مستخرج شـهادة ميلاد من السنبلاوين محافظة الدقهلية يذكر أن تاريخ الميلاد ١٩٠٤ (الرابع من مايو) إلا أن الإجماع وكبار أفراد الأسرة يؤكدون مولدها قبل ذلك بست سنوات أي عام ١٨٩٨ وأرجع

أحمد عنتر مصطفى هذا الاختلاف إلى أن مصر فـي ذلـك الزمن البعيد لم تكن بها سجلات للمواليد، وعندما حضرت أم كلثوم إلى القاهرة واقتضاها الأمر أن تستخرج أوراقا رسمية وكلما طلب منها ذلك كإستخراج جواز السفر مثلا، يقوم أحد الأطباء بتسنينها أي وضع سن افتراضي لها ومن هنا جـاء الاختلاف في تاريخ الميلاد، وفي المتحـف جـوازات مـن الجوازات المستخرجة لها، أحدهما يحمل تارخ مـيلاد عـام ١٩٠٣، وآخر يحمل عام ١٩٠٨.

كان والدها الشيخ إبراهيم السيد البلتاجي (المتوفي عـام ١٩٣٢) إمام مسجد القرية ومؤذنها، ووصفه الموسيقار الشيخ زكريا أحمد عندما التقاه لأول مرة في محافظة الدقهلية عـام ١٩١٧ بأنه "رجل قوى الإيمان شديد التقـوى".. أمـا أمهـا السيدة فاطمة المليجي التي توفيت عام ١٩٤٧ فتولت رعايـة الأطفال، أم كلثوم، وأختها سيدة والتي كانت تكبرهـا بعشـر سنوات، وأخيها خالد، والذي كان يكبرهـا بسـنة واحـدة، ووصفت أم كلثوم والدتها بأنها كانت سيدة تعيش حياة بسيطة وتغرس في أطفالها الصدق والتواضع والإيمان بالله.

بدأت أم كلثوم طفولتها بالمعاناة والشـقاء وظـل هـذا مفتاحاً لفهم فنها ودورها.. كما أنها وضعت دائماً كل جوانب معاناتها نصب أعينها. والرجوع إلى فصول مـن ذكراتها المنشورة في صحيفة الجمهورية عام ١٩٧٠ بقلم ابن شقيقتها محمد الدسوقى والكاتب الصحفي صلاح درويش.. يكشـف كثيراً عنها كإنسانة وكفنانة بسيطة لم تغادر قريتهـا طمـاي الزهايرة رغم ما وصلت إليه من مجد.

تقول:

"إتحرمت من كل حاجات البنت إللي في سني، الهـدوم الملونة الزاهية.. أم نص كم.. ما كنتش ألبس في هذا الوقت ده غير "الجلابية" "اللى كانت بتجرجر فـي الأرض.. اللـي لونها حشمة"، ولو خرجت لازم ألبس الطرحة.. ماكنش بيبان مني، غير وشي بس".

وتضيف:

"كانت الأيام دى هية الفترة اللى تعلمت فيها كـل شـئ لأنني ما تعلمتش في مدرسة.. أو تخرجـت مـن جامعـة.. المدرسة التـى تعلمـت فيهـا.. هيـة الأزقـة والحـوارى والأجران.. أتعلمت كتير من الفترة دى.. إتعلمت الصبر من

الناس الفلاحين والغلابة.. اللى باشوات زمان وبهاوتها..كانوا بيذلوهم ويستعبدوهم ومع كده كـان النـاس دول برضـه... صابرين..زى ما كانوا عارفين إن الليل لازم يطلع له نهار.. وإن الظلم مش حيدوم أبداً.. كنت باشوف الناس الغلابة دول صابرين..بيشتغلوا..ويعرقوا.. و... البيه والباشا.. ياخذ خير البلد، وخير الأرض.. كنت دايما بأرفع إيديه للسما... وأقول يا رب لأنه ما كانش فيه غيره، يقدر يقـف جنـب الغلابـة الفلاحين في الأيام دى.. في الفترة دى برضه تعبت كتيـر.. وقاسيت أكتر.. ياما غنيت في عز البرد...و"النطرة" عمالـه ترخ على المكان اللى باغني فيه.. كانـت النـاس تجـري تستخبى..وأنا وأبويا.. قاعدين على الدكة لغايـة مـا يجـي صاحب الفرح أو الليلة، يوقفنا، وندخل أقرب بيت من البـرد و"النطرة ".

وتتذكر أم كلثوم ما كان يحدث أيام الحـرب العالميـة الأولى وما فعلته السلطات المصرية والاحتلال الإنجليزي من ممارسات وحشية ضد الشـعب المصـري.. وظلـت هـذه الممارسات عالقة في ذهنها لا تفارقها أبدا.. تقول:

"كان منظر الشبان اللى بتاخدهم " السـلطة " بالعافيـة، يقطع القلب ويحسره..بعض العمد والمشايخ يسلموهم..كـان الإنجليز يجروهم مربوطين في حبال من البلد لغاية محطـة السكة الحديد.. كان بيركبوهم في عربيات (الحيوانات)... ما كانش فيه عناية بأكلهم ولا شـربهم ولا صـحتهم.. معاملـة قاسية قوى ما كانش فيه يوم بيمر حتى يكون في كل شـارع (ميتم) لواحد من اللي خدتهم السلطة!!"

"ما كانش ده هو كل ظلم الإنجليز.. لكـن كـان لهـم حاجات تانية متقلش في فظاعتها عن (السلطة).. الغلة بتاعة الناس والمواشي..كانوا بياخدوها منهم بأقـل مـن سـعرها العادي.. فرضوا على كل مركز من المراكز، مقـدار مـن (الغلة) يتورد للجيش الإنجليـزى بـتمن رخـيص خـالص وعلشان يوفي كل مأمور بـالمطلوب منـه.. كـان العمـد والمشايخ بيرغموا الأهالي على تقديم أكثر من (الغلة) اللـي عندهم..كتير من الفلاحين الغلابة كانوا بيضـطروا لشـراء الباقي بسعر السوق، ويقدموه للإنجليز بالتمن رخيص.

وتصف أم كلثوم بلدتها وأهلها:

"كل الناس اللى كنا عايشين معاهم في البلـد (طمـاي الزهايرة) طيبين.. الحب مالي قلوبهم...ما فيش حـد علـى حد..الواحد من غيطه للجامع، عمرى ما شفت وأنا صـغيرة دخلتها عربية "أوتوموبيل" كل ما بنشوفه من بعيد حنطـور.. بتاع حضرة العمدة بحصان واحد.. ما كانش فيه فـي البلـد غير شارع واحد يمشي فيه "الحنطور".. و"شـوية" حـواري وأزقة تتسع يدوب لحمـار شـيخ الغفـر، والغفـر، وهـم خارجين...من الدوار..".

لم تكن أم كلثوم تعي أي شئ عن بـلاد غيـر قريتهـا الصغيرة، بل كانت تتخيل أنها كل العالم!!

"كنت وأنا صغيرة.. فاكرة أن بلدنا هية كل الـدنيا..وإن ما فيش بلد تانية أحسن من مركز السنبلاوين"....أما "مصر" فدي ما كنتش أقدر أتخيل شكلها إيه..كنت فـاكره إن البحـر هوه الترعة إلى بيعوم فيها الـبط والـوز عنـد أول البلـد، والساقية اللى بتطلع الميه، والمسقى اللى فيى الغيط.. كل دى هيه الحاجات اللى عنيه اتفتحت عليها في "طماي الزهايرة".

"عارفين إيه الحاجات إلى كانت تعجبني وأنا صغيرة في البلد..منظر فيضان النيل في الترعة.. ساعتها بيبقى الحشيش

طالع أخضر من وسط الميه... أهو ده المنظر اللى بيفرحني صحيح...لغاية دولقت باحن إليه..فأركب "عربيتى".. وأروح لغاية "القناطر الخيرية".. خصوصاً أيام الميه بتاعة الفيضـان اللى لونها بني... موش رايقة.. تصوروا المنظر ده لو قعدت قدامه ساعات ما أزهقش.. لأنه بيذكرني بطفولتي التي أعتز وأفتخر بها حتى اليوم".

أما أكلتها المفضلة في الطفولة.. وظلت كذلك حتى آخر يوم في حياتها. فكانت "السريس" وهو نبات يطلع في البرسيم و"الجبنة القريش".. وهى نفس الأكلـة التـى تعـود الفـلاح المصري على تناولها في الظهيرة وتتكون مـن "السـريس" و"الجنبة" والطماطم والمخلـلات، وتكـون بمثابـة الوجبـة السريعة له.

تقول أم كلثوم:

"لغاية النهاردة (١٩٧٠)..لما أروح البلد.. لازم يكـون جنب الأكل مهما كان نوعه..أكلة الطفولة المفضلة.. وهـى السريس والجنبة القريش..الأكلة اللى أسـيب الحمـام أو أى نوع من الطيور وأكلها.. صحتي لغاية دلوقتي بتيجي عليها، لدرجة أن أي واحد من البلد أعرف إنه جاي مصر..أطلـب

منه يجيب معـاه هـذه الهديـة اللـى بـاعتز بهـا حتـى النهاردة..وأحتفظ بالهدية لنفسى..ولا يشاركني فيهـا أحـد.. الأكلة دى.. بتفكرني النهاردة بأيام مـا كنـت فـي بدايـة الطريق.. بتذكرني بالأيـام.. اللـى مسـحت فيـا بقـدمي الصغيرتين القطر المصري قرية قرية.. بل كفر كفر، وعزبة عزبة..مشيت في السكة الزراعية المليانة تراب..حتى عرفت كل شئ عن كل بلادنـا وناسـها الطيبـين.. وطبـاعهم... وعاداتهم.. وعلى فكرة... كانت أيام.. العـرق فيهـا حلـو والتعب فيها كويس.. ما كنش يهمني المشي.. مهمـا كانـت المسافة مـا كـانش فيـه توصـيلة فـي أغلـب الموالـد والأفراح..غير "الركوبة".. يعني "الحمار".

و"كان عندنا "ركوبة" واحدة.. كان "أبويا" الله يرحمـه، يركب قدام وأنا وراه..وأخويا الشيخ خالد في الآخر..وعندما يحس "أبويا" بتعب "الركوبة" أنزل وأمشي مع أخويا.. لأننـي صغيرة أستحمل المشي...ومش معقول أركب وأبويا يمشي.. ولم يطل بنا الوقت.. فاشترينا "ركوبة" ثانية.. ليه أنا والشيخ خالد.. ثم اشترينا "ثالثة" فأصبح لكل واحد فينا "ركوبة"..

"لما كنا نسافر في السكة الزراعية.. كان أبويا في الأول وأنا في الوسط وأخويا في الآخر.. ومعانا.. أصحاب الفرح.. أو المولد.. كل سفرياتنا دايما في عز الظهر.

تضيف أم كلثوم:

...."وقبل ما كنا نشتري "الركايب" كان أصحاب الفرح يبعتوا لنا "الحمير" علشان نـروح بيهـا.. إذا كانـت البلـد قريبة..وياما بعد ما كنا نخلص الفرح أو الليلة..يسيبونا نرجع إلى "طماي" على رجلينا.. لكن برضه كان فيه ناس طيبـين يوصلونا لغاية البلد كنت أغني لهم في السكة واحنا ماشـيين علشان ما يندموش على توصيلنا.. وعلشان يرجعـوا البلـد يقولوا كده.. فيعمل الباقون زيهم".

"ولما كان الفرح يبقى في بلد بعيدة..كنا بنركب "القطر" في درجة ثالثة طبعاً..وأول ما يتحرك..آخذ أبويـا وأخويـا ونروح على درجة ثانية.. ولما الكمسارى بيجـي ويشـوف التذاكر.. أتحايل عليه يسيبنا... من زحمة.. درجة ثالثة..ولما يعرف أني البنت اللى بتغني في الموالـد والأفـراح يسـيب "القطر" وبيجي هو وزمايله يقعدوا في الديوان معانا... وأغني لهم طول السكة ما كنتش أسكت إلا لما "القطـر" يقـف فـي

المحطة".. والحقيقة ما كانتش الزحمة السبب في "قعادنا" فـي "البريمو" وإنما علشان الناس اللى مستنين في محطة البلد اللى انا رايحاها.. يشوفونا نازلين من "البريمو" فـاحترامهم لنـا يزداد.. ونكبر في عنيهم".

وتتذكر أم كلثوم:

"في سنة ١٩١٩.. لما أجرى بقى ٨ و ١٠ جنيه.. كنت أقطع أنا واللى معايا.. تذاكر في البريمو..وكنا نقابل صعوبة كبير في استعمال "القطار".. ما كانش فيه قطارات كتير زي دي الوقت.. كان يدوب "قطارين" أو "ثلاثة" كل ٢٤ ساعة.. ده خلانا نقعد على المحطة بالساعات في الصيف مـا كـنش يهمنا... أما في الشتا.. كانت الدنيا.. برد وأمطـار.. فكـان أبويا يروح لناظر المحطة.. يتحايل عليه.. ويجيب منه مفتاح الاستراحة..وساعات كنا ندخل مكتب "المعاون" أو "النـاظر" ويولع لينا.. وأقعد أنا أغني لغاية "القطار" ما ييجي..وياما من الحكايات دي كتير".

وتتذكر أم كلثوم بعضا من معاناتها الصـعبة والقاسـية وهي تغني في ليالي الأفراح القاسـية فـي قـرى ومراكـز محافظات الوجه البحري:

"يا ما كنا بنروح ليالي وأفراح.. وأشوف الويل والغلب فيها...مرة كنت هاموت قتيلة بحق وحقيقي..وأنا واقفة باغني في دوار عمدة بلدة جنب مركز "أجـا" (محافظـة الدقهليـة) بصيت لقيت واحد سكران طينة.. وواقف بيشـاور ليـه... ويقول..

"ياالختي انتي.. عايزين حاجة فرايحي..عايزين شـوية فرفشة ونعنشة.. عايزينك تقولي لنـا كـام مـوال.. وكـام ياليل..وكمان كام ياعين.. موش كده يا جماعـة"..مبصـتش له.. وفضلت أغني زى ما أنا ماشيه..وبعد الناس ما قعـدوا وقف تاني.. وقال نفس الكلام.. بصيت لأبويـا وأخويـا... وللناس اللى في الليلة.. في الحقيقة كنـت باسـتنجد بـيهم.. علشان يخلصوني من الشخص ده.. ولما هبوا فيه راح مطلع مسدس من جيبه.. وقال أنا هاموتكم كلكم يـا أولاد... ولـو البنت دى مغنتش زى ما أنا عايز... أغلب الناس جريـت.. وسابوا الليلة.... وسمع العمـدة "الزيطـة" والصـراخ فـي الدوار... وسأل إيه الحكاية.. فأشاروا على ابنه اللـى كـان موجه ا لمسدس ليه... وأبويا عمال يتحايل عليه.. ويحلف له حاغني كل اللى هو عايزه.. وجرى "العمدة" ناحيـة ابنـه..

فرمى المسدس من ايديه... وحاول أن يزوغ.. ولكـن أبـوه نزل فيه ضرب.. وبعد كده برضه.. كملت الليلـة..والنـاس رجعت تاني.. ومنع العمدة ابنه من النزول من البيـت فـي الليلة دي".

"حكاية تانية حصلت لى.. عند طنطا.. قبـل مـا تبـدأ الليلة.. سألت صاحبها.. "فرح.. ولا ليلة لله".. فقال.. لوجيتي للحقيقة لا دي ولا دي.. أنا بصراحة ربنـا.. عاملهـا أجـر رجلين أهل البلد اللى جانبينا.. أصـلنا متخـانقين معـاهم.. وعايزين نضربهم.. وكل اللى أنا عايزه منك أنـت والنـاس اللى معاك لما تشوفي الخناقة اشتغلت.. ادخلوا الأودة اللى أنا فاتح عليها باب من "الشادر"... وخلوا بالكم من نفسكم... وأنا خالي من ذنبكم بعد كده.... وغنيت شوية..وبعد حوالي نص ساعة.. بدأت النبابيت والعصيان تعمل عمايلها..وجريت أنـا واللى معايا... نستخبى.. وفي اليوم ده.. أهل البلد اللى كنـا فيها أكلوا علقة... سخنة.. لان جيرانهم كانوا عارفين الحكاية ومستعدين لها".

قبل أن تغطي شهرة أم كلثوم مناطق الوجـه البحـري. زادت المعاناة أيضاً..وكادت في مرحلة طفولتها أن تنسـحب

من الميدان، لولا إيمان والـدها الشـيخ إبـراهيم البلتـاجي بموهبتها، التي بدأت ملامحها في كُتاب القرية وظهر نبوغها ومهارتها في تجويد القرآن بالطريقة الصحيحة.... تتذكر:

"كان سيدنا الشيخ إبراهيم.. بيحرص دائما وأنا باسـمع قدامه بعض" السور: أن أقرأها بالترتيل..وفي هدوء..غير كل "الولاد" اللى معايا في الكتاب".

وفي التاسعة من عمرها سمعتها صديقة الطفولة.. بنت شيخ قرية "طماي الزهايرة"..وكانت تكبرها بحـوإلى ثلاثـة أعوام..ولم تكذب خبراً.. فأسرعت إلى بيتها في شرق البلـد، وأبلغت والدها.. الذى تطـوع بإذاعـة الخبـر بـين أهـل القرية..وتطوعت زوجته بنشره بين "الحريم".. وبعد يـومين فوجئت السيدة "فاطمة المليجي" والدة أم كلثوم بعدد من نساء القرية ومن بينهم زوجة شيخ البلد وابنته يطلبن سماع صوت المحروسة... وتكررت هذه الزياة عصر كل يوم مع ازديـاد العدد، وتعتبر هذه الأيام في حياة أم كلثوم هى التجربة الأولى لها في مواجهة جمهور غير أفراد أسرتها.

وجاء الدور على رجال القرية.. فطلبوا من "العمدة" أن يتوسط لهم عند الشيخ إبراهيم..لتحضر ابنته إلـى "الـدوار"

ليسمعوا صوتها الذى لا حديث "للحـريم غيـره"... وغيـر حلاوته.. ورغم رفض الوالد في البداية إلا أنه وافق تحـت إصرار العمدة وإلحاحه..ذهبت بنت التاسعة يرافقها "أبوهـا" إلى "الدوار".. وفي غرفة "الحريم" قرأت القرآن.. ثم قـدمت التواشيح..بينما تجمع أهل القرية شباباً وشيوخاً ونسـاء فـي الخارج حتى ملأوا الدوار والشارع المؤدي إليه..والكـل لا يصدق أن هذا الصوت هو صوت الطفلة "أم كلثوم":

"من اليوم ده.. أصبح بيتنا بيحبه كـل أعيـان البلـد.. والناس الصالحين..كل واحد يطلب أن أروح بيته.. زى مـا رحت بيت "العمدة".. وكان أبويا الله يرحمه ما يحبش يكسف حد".

أقنع أهالي طماي الزهايرة وخاصة أعيانهـا.. الشـيخ إبراهيم البلتاجي أن يشرك ابنته معه في الموالد..وبعد تـردد حسم أمره وبدأ في إشراكها في بطانته وكان مقرئـا للقـرآن ومؤدياً للإنشاد الديني في الموالد والحفلات... وبعد إشـراكه لها في بطانته بإحدى الليالي في إيتـاي البـارود (محافظـة البحيرة) طلب الأهالي من الشيخ إبراهيم أن يسـمعوها فـي إحدى قصائده، وأمام إلحاح الأهالي وقفت ومن خلفها والدها

وشقيقها الشيخ خالد..ولم يصدق الجمهور الذى ملأ "جـرن" البلدة.. أن كل هذا الجمال في الصـوت ينطلـق مـن هـذه الطفلة.. ومن تلك الليلة لم يتمكن أخوها وأبوها مـن تقـديم القصائد الدينية، حيث أصبحت هى المطلوبة من المستمعين.

مع تكرار خروج أم كلثوم إلى الموالـد.. ثـارا شـقيقا الشيخ إبراهيم وهدداه بالمقاطعة..وفضل أن يضحي بمستقبل ابنته بدلا من خسارة إخوته.. وحاول إقناع أم كلثوم بالابتعاد عن هذا الطريق، فقالت له: "زى ما أنت عـايز يابـا..أنـا عمري ما أزعلك.. أنا ماليش حد في الدنيا غيـرك.. وكـل واحد بياخد على قد نصيبه".

هذا التخوف من الشيخ إبراهيم على ابنته وثورة شقيقاه عليه، كان انعكاسا صادقا للمناخ الاجتماعي السـائد حينئـذ، والذي "كان يضع المطربين والمطربات في مكانة متدنيـة.. فمعظم المصريين كانوا يقبلون على شكل أو آخر من أشكال الترويج الموسيقي في الأماكن العامـة أو الخاصـة، وكـان العاملون في هذا المجال يعيشون ويعملون في جميع أنحـاء مصر تقريبا، ومع ذلك فلم يكن الشباب يلقون أي تشجيع على امتهان عمل كهذا، أو مخاطبة من يمتهنـه، وفضـلا عـن

صعوبة كسب الرزق بالغناء وصعوبة الظروف التي تواجـه المغني المبتدئ، فقد بدا أن الموقف السائد من الغنـاء كـان أساسه فكرة الناس عن إحترام المرء لذاته، فوقـوف الفنـان على خشبة المسرح ليتفرج عليه الآخرون. وهو يمثل أو هو يغني أغاني عاطفية أو هو يرقص.. وهذا أسـوء الأحـوال، كان في رأي الناس إهدارا للوقت في عمـل تافـه لا يتفـق وسلوك الذي يحفظ للمرء كرامته، ويتحول المشتغل بالفن إلى نجم يمكنه حينئذ أن يتخاص مـن الأحكـام الظالمـة التـي يصدرها الناس عله مسبقا" ( • ).

وتحفظ السجلات التاريخية عشرات الوقائع التي تبـين مدى المعارضة الشديدة لكبار المطربن مـن أهلهـم بسـبب اقدامهم على الغناءوأبرزهم الشيخ سيد درويش الـذي أقسـم زوج أخته ألا يدخل الشيخ سيد بيته إذا لم يهجر الغناء ويعمل معه في محل نجارة الموبيليا الذي يملكه وقبل الفتى هذا إلى حين أما الموسيقار محمد عبد الوهاب فكان يـردد دائمـا أن أخيه جره من فوق خشبة المسرح إلى الخارج، وظل يجـره في الشوارع حتى وصل به إلى المنزل أما الشيخ زكريا أحمد

---

• صوت مصر أم كلثوم – كتاب – فرجينيا دانيلسون – ترجمة عادل هلال عناني – المجلس الأعلى للثقافة – مصر – ٢٠٠٢.

فلم ينسي تعنف أبيه قائلا له: "أنت من أسرة محترمة وتريـد أن تكون واحدا ممن تدور حياتهم حول يا ليل يا عين".

وما حدث لسيد درويش ومحمد عبـدالوهاب وزكريـا أحمد، كان إمتدادا لما حدث قبل ذلـك بسـنوات للمطـرب والملحن عبده الحمولي، الذي فرمت وجه أبيه لأنه لم يكـن راضيا عن اشتغاله بفن الغناء ويقول قسـطندي رزق الـذي عرف الحمولي، وألف كتابا عنه، "كان عبده صـالحا يقـيم الصلاة في مواقيتها، وبارا بوالده وقد فر من وجهـه لكونـه غير راض عنه لاشتغاله بفن الغناء الذي كان وقتئذ يعد فـي مصر مهنة محتقرة ومسقطة لمحترفها من عيـون النـاس، وحدث نقلا عن المقطم (صحيفة) بتاريخ ٩٣٤/٩/١١ هجرية توقيع حضرة رزق الله شـحاته الموسـيقار" أن الخـديوي إسماعيل قصد زيارة مديرية الغربية فأراد سعادة المـدير أن يجعل الاحتفال بقدومه في غاية الفخامة والأبهة. ورأى أنه لا يكمل السرور في تلك الحفلة إلا بإحضار أعظم المطـربين، فدعا المرحوم عبده الحمولي، ورأى أن هذه خيـر فرصـة يسترضي فيها والده عنه فقال لسعادة المدير أريد أن أطلـب منك شيئا واحدا وهو أن تجعل أبي يرضى عنـي، فأرسـل

سعادة المدير تلغرافا في الحال لوالده فحضر الحفلة الليلية، وكان عبد جالسا في حرة الخديوي إسماعيل، وحاشيته فدعاه المدير إلى جانبه وسأله. هل أنت غاضب على ابنك، وأنت تراه في حضرة أفندينا، فكان جوابه "أنا وابني وأولادي عبد لأفندينا وأقبل عليه وعانقه" ( • ).

الزمن الذي يفصل بين ما حدث للحمولي ثم لسيد درويش وزكريا أحمد ومحمد عبد الوهاب لا يقل عن ٤٠ عاما تقريبا فالحمولي بدأت شهرته في عصر الخديوي إسماعيل ورحل عام ١٩٠١، وزكريا وعبد الوهاب بدأت مسيرتهما مطلع العشرينات من القرن العشرين ورغم هذا التباعد ظلت النظرة واحدة فالمطرب أو المطربة في مكانة متدنية حتى يتحول إلى نجم وحيئذ تتغير النظرة.. ولم تكن أم كلثوم استثناء من هذا، بل كان الأصعب بالنسبة لها أنها إمرأة تدخل هذا العالم المرتبط في أجواء الريف وقتئذ بأشياء مرذولة كالخمر، والمخدرات، ولعب القمار، ولولا شجاعة أبوها في التعامل مع مجمل هذه المعطيات ذات الإرث التاريخي ما كان هناك أم كلثوم الفنانة، وبدأت شجاعة الشيخ

---

• - الموسيقى الشرقية والغناء العربي – مع السيرة الذاتية للفنان عبده الحمولي – كتاب – قسطندي رزق – مكتبة مدبولي – القاهرة – عام ٢٠٠٠

إبراهيم بأحزان خيمت عليه حتى رأى أحلاماً مزعجة، أكـد تفسيرها ضرورة عودة ابنته لقراءة القرآن وغنـاء القصـائد والتواشيح وبعد تدخل عمدة طماي الزهايرة وأعيانهـا لـدى أشقاء الشيخ إبراهيم، عادت أم كلثوم للغناء ولكن بشروط هى ألا تتخلى عن "العقال والعمة" ولا يظهر منها أمام الجمـاهير غير الوجه وأصابع اليدين فقط.

عادت أم كلثوم من جديد إلى الغناء وتتذكر أول مواجهة للجمهور في حفل تعتبره اول بدايتها الفنية:

"كانت أول مرة أغني فيها.. في فـرح عنـد مـأذون بلدنا..وكان ده شرف كبير لينا.. ما أخدتش ولا مليم.. غيـر كباية شربات.. وطبق مهلبية..وفي آخر الليل.. وفي الليلـة دي.. كل البلد سمعتني.. وقالوا رأيهم لتاني مرة بعد اليـوم اللى غنيت فيه في "أودة الحريم" في بيت العمدة.. وأنا فاكره انني غنيت في الفرح بتاع المأذون...أغنية..

**أقول لذات حسن ودعتني**

**بنار الوجد طول العمر آه**

وفي تاني يوم.. دعوني لفرح "غفير نظامي" في عزبـة الحوال.. القريبة من بلدنا.. غنيت فيه لغاية الصـبح.. فـي

الليلة دى خـدت أول أجـر فـي حيـاتى.. كـان عشـرة صاغ..وكانت المعاملة في الأيام دى بالريال.. يعني خـدت "نص ريال".. مكانش المبلغ ده نصيبى لوحدي..وإنما كـان بيشاركني فيه أبويا وأخويا الشيخ خالد..وبعد كـده بخمسـة أيام.. دعاني الحاج يوسف تاجر "الغلة" في مركز السنبلاوين لإحياء ليلة. برضة فاكرة غنيت فيها

**حسبي الله من جميع الأعادي**

**وعليه توكلت واعتمادي**

.. في الوقت ده.. كنت باغني من الساعة تسعة لغايـة الساعة اثنين الصبح على طول.. وقد إيه كانت فرحتي فـي الليلة دي لما صاحب الفرح مد إيده وأعطاني المعلوم.. كـان ريال بحاله.. ما كنتش مصدقة عينيه.. كان مبلغ كبير خالص في الوقت ده.. وقبل ما نمشي مـد الرجـل الطيـب إيـده وأعطاني كمان " ربع ريال ".. اتهيأ لي.. أنا وأبويا وأخويـا في الليلة دي.. إننا أصبحنا من الأغنياء ".

... وبعد كده فكر حسن أفندي حلمى... التـاجر فـي محطة "أبو الشقوق" في أحياء "ليلة بفلوس".. الناس اللي تقعد في الأول تدفع "ربع ريال" يعني الدرجة الأولـى النهـاردة..

واللي بعدهم يدفعوا "تلات قروش" والدرجة التالتـة بـلاش.. لأن الناس هتبقى واقفة بره الخيمة اللي كـان عاملهـا عنـد المحطة..

.. والحمد لله ربنا وفقنا.. ونجحت الليلة بشكل ما كناش نحلم بيه، جه ناس في "الليلة من كل البلاد المجاورة.. وكان فيهم بعض أهالي "المنصورة"... "بلدياتي".. قد إيـه كـانوا فرحانين.. جاءوا يهنوا.. يهنوا واحدة من مديريتهم..

.. وعلى فكرة ما كنتش عارفة إن " الحفلة " نجحت إلا لما "حسن أفندى" أعطاني "جنيه ونص".. بصيت للجنيه ونص موش مصدقة عنيه.. لأنه كان أول جنيه تمسكه إيـدي فـي حياتي.. كانت الدنيا موش سايعاني.. في كل دقيقة "أبـوس" الجنيه.. وأنا هاطير من الفرح.. كنت باتنطط.. وبـاقول يـا أرض اتهدي ما عليك قدي أنا معايا جنيه!

وفي الأسبوع اللي بعديه.. دعانا عبد المطلـب أفنـدي الموظف بدائرة المرحوم الشناوي "باشا".. علشان نعمل الفرح بتاع أخوه في "كفر دماص" بندر "المنصورة".. وكان أجرنـا في الليلة جنيه ونصف بما فيها مصاريف الانتقال..

وحبة... حبة.. بدأت أشعر إنني بقيت حاجة.. وقد إيـه فرحت.. ومليت الدنيا فرح.. لما دعوني علشان أغنـي فـي مركز " أجا " حسيت إنني أصبحت مغنية "عالمية".. ثم لقيت نفسي.. بانتقل من مديرية الشرقية.. لما غنيه في فرح "بكفر صقر".

غطت شهرة أم كلثوم الوجه البحري حتى قـدمت أول حفلة لها في القاهرة، أقامها الشيخ زكريا أحمد والشيخ محمد أنور في حي السيدة زينب لصالح أسرة فقيرة.. وكان الشـيخ زكريا أحمد قد تعرف عليها هو الشيخ أبو العلا محمـد فـي عام ١٩١٩ وهي لا تزال صغيرة.. عندما كان الشيخ زكريا يحيي شهر رمضان عند "على أفندي أبو العنين"، وكيل الثري "إيلي الدرع" المشهور في ذلك الوقت بمدينة السنبلاوين وكان الشيخ أبو العلا محمد يفعل نفس الشئ ولاحظ الشيخ زكريـا خلال ليالي الشهر.. أن هناك آنسة صـغيرة..تتنصـت إليـه باهتمام شديد.. وتسمعه بشغف، فأثـارت انتباهـه.. وسـأل عليها..

فقالوا له وحسب كلام أم كلثوم:

"دي أم كلثوم.. بنت الشيخ إبراهيم البلتاجي من طماى.. وبتيجي كل ليلة... مع أخوها خالد عشان تسمعك..وترجـع تانى، أصلها.. بتغني برضه زيك في الأفراح والليالى".

قبل الانتقال إلى القاهرة وقع لها حادث في أحد قصـور أثرياء هذا الزمان ظلت تردده طوال حياتها لأنه فتح لها عالم آخر ففي عام ١٩١٧ ذهبت لإحياء حفلة في حلوان في قصر عز الدين يكن بك بمناسبة ليلة المعراج، ولما رآها جن جنونه ورفض أن تغني، وأمر أن تظل ومن معها في بدروم القصر حتى لا يراها أحد، واستدعي الشيخ إسماعيل سـكر لإحيـاء حفلته.. وقضت أم كلثوم ليلة رهيبة في بدروم القصر تبكي.. ولما أبلغ الخدم زوجة عز الدين ببكائها نزلت إلى البـدروم.. فارتمت أم كلثوم في أحضانها.. وتتذكر ما قالته لها:

"حرام كده نتحبس هنا... طيب سيبونا نـروح مـا دام مافيش ليلة.. أعمل إيه حظي كده.. وأنا ياست، قد إيه كنـت واضعة أمل في الليلة بتاعتكم دى.. كنت باقول فـي السـكة لأبويا وأنا جايه.. إن السعد مواعدنا عنـدكم الليلـة.. بعـد "المعازيم" الكبار ما يسمعوني لكن ربنا يمكن له حكمـة فـي اللي حصل"..

ربتت زوجة "البيه" على كتف "أم كلثـوم".. وأحاطتهـا بذراعيهاهامسة بصوت لا يسمعه إلا من في البدروم:

"إنت صعبانة عليه خالص والنبي.. أصل عز "بيه" يـا بنتي كان فاكرك مبهرجة زي السـتات اللـي بيغنـوا فـي مصر"..

فنظرت إليها "أم كلثوم" وهي بين أحضـانها.. وقالـت بصوت خافت:

"إنا يا ست هانم" غير دول.. أنا عايشة في الفلاحـين.. ما أقدرش اتبهرج.. وألبس غير الحشمة.. إحنا نـاس بتـوع ربنا.. بندور على لقمة العيش بعرقنا.. اللي جاي يدوب على قد اللي رايح.. إنتي عارفي "يا ست هـانم".. أن أهلـي مـا كانوش عايزني أغني.. وكان لهم شـروط.. وكـان أبويـا منفذها.. قبل ما يقولوها.. شروطهم إني أكون كده.. بسيطة.. عادية.. غير مبهرجة.. وصحيح إزاي البس "أفرنجي" وأنـا بامدح النبي.. واقول التواشيح".

رق قلب الزوجة لأم كلثوم، وطلبت منها الغناء.. فغنت: "سبحان من أرسله رحمة لكل من يسمع ويبصر".. وخرجت زوجة "البيه" والدموع تبلل خديها، ونجحت محاولتها في إقناع

زوجها لسماع هذا الصوت النادر.. ولما استمع إليهـا اتجـه إليها وقال لها:

"حقك على يا ابنتي... سامحيني علشان خاطر النبـي.. أنا هاعوض لك.. كل اللي حصـل.. هـاديكي زي ماأنـت عايزة.. أنت تستاهلي مال قارون".

وغنت، واهتز لها الحاضرون بما فيهم الشيخ إسماعيل سكر الذي اشترك مع بطانة أم كلثوم فـي ترديـد الأغـاني والتواشيح.. عندما رأي عز الدين بك يخلع طربوشه إعجابـا بصوتها فخلع الطربوش كان دليل الإعجاب في مثـل هـذه الليالي. كان أجر أم كلثوم لهذه الليلة ثلاثة جنيهـات خـلاف مصاريف الانتقال، وطبقا للعقد الموقع فإنه في حالة تأخرهـا سوف يدفع والدها عشرة جنيهات غرامة

والمؤكد أن الإعجاب الذي حظيت به أم كلثـوم ممـن استمعوا لها في قصر عز الدين يكن منحها المزيد من الثقـة خاصة وأن ليلتها هذه جاءت بعد رفض لها، وتوسلات منهـا بالغناء وعلى كل حال كانت مثل هذه التجارب بمثابة تعبيـد للأرض التي تسير عليها أم كلثوم نحو محطتها الحلم، وهـي محطة الإنتقال إلى القاهرة، وكما أشرنا من قبل لدور الشـيخ

زكريا أحمد، والشيخ أبو العلا محمد في هذا الأمر، خاصة الشيخ أبو العلا أستاذها الأول، ولتترك أم كلثوم تحكي عن قصتها مع هذا الرجل، وما فعله من أجل انتقالها إلى القاهرة:

تقول أم كلثوم:

"كنت متشوقة أشوفه وأسلم عليه بإيديه.. كنت باحب صوته من يوم ما سمعته في "المكنة" بتاعة شيخ البلد.. أبو صاحبتي "عيشة" كنت كل يوم معنديش فيه شغل أروح عندها علشان تدور الاسطوانة بتاعته.. واقعد سرحانة وأنا باسمعه.. كان في رأيي أحلي صوت في الدنيا.. كان حلو مافيش بعد كده حلاوة.. كنت بافكر دايما إنه موش زي كل الناس اللي سمعتهم قبل كده.. علشان كده.. قلت لأبويا.. لازم نروح "السنبلاوين" ونسمعه.. وما كانش أبويا الله يرحمه بيردلي طلب.. ورحنا المركز.. وقعدنا مع الناس اللي بتسمع الشيخ أبو العلا.. ماكنتش مصدقة عنيه.. ولما خلص.. جريت ورحت عند الدكة بتاعته ولحقني أبويا وأخويا خالد.. زاحمت كتير.. لغاية ما بقيت قريبة منه.. وسلم أبويا وأخويا عليه.. ومديت إيدي زي كل الناس.... فسلم عليه بسرعة.. الناس كتيرة عايزة تسلم عليه... رجعت تاني وقالت أسلم... عايزة

إيدي تستني في إيديه أكبر وقت عايزة أكلمه مـوش قـادرة أنطق..كانت مفاجأة كبيرة..

وقلت لأبويا... اعزمه والنبي عندنا.. أنا عايزه أقول له حاجات كتيرة.. عايزة أسمعه لوحدي.. عايزه يسمع صوتي.. ويقول رأيه.. عايز أعرف رأيه في قعادنا في مصـر علـى طول.. دا راجل طيب هيقول الحق.. رأيه يابا مهم قوي في الحكاية دي.. وأهو أنت شايف الجوابات اللي بتيجي والناس اللي بتنصحنا نسافر ونقعد في مصر.. رأي الشيخ أبو العـلا مهم قوي والنبي "يابا" في الحكاية دى..

لبى الشيخ إبراهيم البلتاجي رغبة ابنته، ودعا الشيخ أبو العلا محمد في منزلهم.. وطلب الضيف أن يسـتمع إلـى أم كلثوم.. لكنها رفضت في البداية ثم لبت طلبه وتبرر رفضها قائلة:

ـ رفضت لأنني كنت أريد أن أسمع صوته وحـده... أريد أن أملأ أذني بكل كلمة وكل نغمة ينطق بها.. أريـد أن أحفظها عن ظهر قلب، وأحافظ عليها لأرددها في كل دقيقـة تمر بعد ذلك، فالشيخ أبو العلا فنان كبير له قيمته في عـالم الغناء والطرب.

ولم أقو على الاستمرار في الرفض عندما أصر الشـيخ أبو العلا على سماعي، قلت لنفسي وقتها.. لقد جاءت الفرصة ليقول مثل هذا الفنان الكبير رأيه وقبل أن أغني أمامه قرأت "الفاتحة والصمدية".

غنيت أمامه بعض القصائد الدينيـة... كنـت بـاغني وعيني على حركات وجهه حتى إذا شعرت أنه غيـر راض عن أدائي، توقفت بسـرعة، ولكننـي اجتـزت الامتحـان الصعب.. فقد اقتنع بي الشيخ أبو العلا، وتأكد لي ذلك مـن حركات رأسه مع صوتي.. ولما انتهيت من الغناء التفت إلى قائلاً:

"هايلة.. هايلة خالص... الله يفتح عليكي.."

ولم أصدق أذني فسألته:

ماذا يقول الشيخ أبو العلا.. إنني أريد أن اسمع ما قلتـه مرة أخرى أريد أن أسمعه مائة مرة..

ورد الشيخ أبو العلا.. موجها كلامه لوالدي: الله حاجـة كويسة خالص، لو جت أم كلثوم مصر حتلاقي نجاح كبيـر، خسارة إنها تحصر شغلها في الريف بس... تعالوا مصر....

واقعدوا هناك... وأؤكد أن ربنا هيوفقكم وحتكونوا حاجة تانية غير كده.

لم تصدق أم كلثوم ما سمعته:

"بصراحة لم أصدق أن الذي يقول ذلك، هو الشيخ أبـو العلا أحسن وأشهر مغني في ذلك الوقت..

ونظر الشيخ أبو العلا لوالدها:

"يا شيخ إبراهيم... أنا موش بأقول الكـلام ده مجاملـة علشان ما أنا في بيتك. لكن دي شهادة أنا مسئول عنها. أمام ربنا.. حرام يا شيخ إبراهيم تضيع مستقبل بنـت زي دي.. ربنا إداها الموهبة.. دي في رأيي أحسن من كتير عندنا فـي مصر.

فرد عليه الشيخ إبراهيم: يا شيخ أبو العلا.. أنت عارف مصر.. وعيشة مصر.. إحنا على قدنا.. مالنا ومال الزيطـة اللي هناك.

ـ والتفت الشيخ أبو العلا إلى والد أم كلثوم.. قائلا:

"في مصر ناس بتحب اللون اللي بتقدمه بنتـك، اللـون الوقور، وعلى فكرة اللون ده له معجبين كتير.. أنا برضـه بأغنيه، وبيغنيه الشيخ إسماعيل سكر. بس الفرق بـين اللـي

بتقدمه بنتك إننا بنلحن الكلام بطريقة نقدر نقف بيهـا أمـام الأغاني التانية".

رد الشيخ إبراهيم:

"ربنا يعمل اللي فيه الخير يا شيخ أبو العلا.. دا كل شئ قسمة ونصيب.. أوعدك أنني حافكر فـي حكايـة مرواحنـا مصر.. وأبعت لك جواب على طول برأيي"..

وأخذ الشيخ إبراهيم عنوان الشيخ أبو العـلا ليراسـله، وبعد أن انتهي الحديث، التفتت أم كلثوم إلى والـدها ولكنهـا وجهت كلامها للشيخ أبو العلا قائلة: "أريـد سـماع صـوت الشيخ أبو العلا.. أريد أن أتأكد أنه موجود فعلا في بيتنـا.. أريد أن أسمع كل ما عنده"وسكتت " ليخـيم الصـمت علـى الجميع لينطلق صوت الشيخ، وتصف أم كلثوم جماله: "وكأنه صوت كروان... كنت مشدوهة بعذوبته ونقاوته"..

تضيف: غنى في هذا الوقت الكثير..

ومنها "أفديه إن حفظ الهوا أو ضيعا" طلبـت إعادتهـا لأحفظ منه اللحن وطريقة الأداء.. لقد كان الشيخ أبو العلا.. على الطبيعة أحسن صوتا وأكثر عذوبة من الأسطوانات التي سمعتها له من قبل..

لبى الشيخ ابراهيم البلتاجي نداء الإنتقال الـى القـاهرة الذي أطلقه الشيخ زكريا أحمد وصمم عليه الشـيخ أبـ والعلا محمد، وبعد فترة من إنتقال العائلة المكونة من الشيخ إبراهيم وأم كلثوم وأخيها خالد ووالدتها، واستقرارهم فـي عابـدين قدمت أول حفلة لها في سرادق في شارع خيرت بالقرب من جريدة (اللواء) التي كانت تصدر في ذلك الوقت.. وفي هـذا الحفل الذي نظمه متعهد حفلات اسمه محمد أبو زيد، شـارك الفنان حسن فائق بمنولوجات والمعروف أنـه كـان يلاقـي اضطهادا سياسياً بسبب منولوجاته الوطنية خاصة بعد نفـي سعد زغلول إلى جزيرة سيشيل، وقدم منولوجـاً عـن ذلـك اسمه: مصر تناجي سيشيل.

وتوالت حفلاتها بنجاح كبير، رغم المضايقات الكثيـرة وتقول عن هذه المرحلة:

"كنا راضيين بأي شئ.. لأن الذي يرزق الجميـع هـو الله.. لقد كان كل همي أن أقف على قـدمي فـي القـاهرة.. وأثبت وجودى.. (الفلوس) كانت آخر حاجة نفكر فيها.. مـن أجل ذلك لم ندقق مع المتعهدين الذين ضحكوا علينا في بداية عملنا..وكان والدي يصدقه ويتنازل له عن جزء من الأجـر

المتفق عليه، فبعد أن يكون الاتفاق على سبعة جنيهات يصل إلى أربعة.. كان ذلك يحدث بالرغم من أننا كنا نكتشف كذب ما يقول.. فأحيانا كانت الصالة تضيق بـالجمهور.. فيـأتي المتعهد بمقاعد إضافية.. وأحياناً يطلب المتعهـد الحضـور مبكراً قبل ميعاد الحفل بأكثر من ساعتين ثم يطلـب منـا أن نطل على الصالة.. فنراها شبه خالية.. وتبدأ المساومة مـع والدي..ولكنني كنت أفاجأ وأنا على المسرح أن الصالة مليئة بالجمهور.. ومع مرور الأيام تنبهنا إلى هذه الحيل، فلم يعـد لها مكان"..

وهناك من التفاصيل الكثيرة تتعلق بالاستقرار النهـائي في القاهرة وبدء نشاطها الفني فيها، وتـم ذلـك فـي عهـد السلطان فؤاد الذي تولي الحكم خلفا للسلطان حسـين كامـل (١٩١٤ – ١٩١٧) وتحول فؤاد من سلطان إلى ملك يوم ١٤ مارس عام ١٩٢٢ وعلـى الـرغم مـن هيمنـة الاحـتلال الإنجليزي وتحكمه في كل شيء رأي فؤاد أن اليـوم الـذي تحول فيه من سطان إلى ملك جعل من مصر دولة "متمتعـة بالسيادة والاستقلال"!

كان المشهد الغنائي وقتئذ بلا هوية، ويلخصـه الكاتـب الصحفي صلاح عيسى بأنه المشهد الذي انتهى فيه العصـر الكلاسيكي للغناء الذي لمع فيه عبده الحـامولي و" ألمـظ " و"محمد عثمان" و"سلامة حجازي".. يقول صلاح عيسي "بعد يا ملك قلبي بالمعروف" و"سلامي عليك يـا زمـان" انتقـل "الفرانكو آراب".. من المسرح إلى الغناء. وتقـدمت "منيـرة المهدية" لتتصدر المشهد الغنائي بصوتها القوي الذي تخللـه بحة غجرية بدائية في قرارها نداء حسي لا تخطئـة عـين.. وانتشرت الأغاني الهابطة التي تؤجج الشبق للجنس، باعتباره موضوعا في ذاته، لا صلة له بأية عاطفة إنسانية، باعتبـاره – كالمر – مفتاح الفرح، لقوم يعيشون آخر أيام أعمـارهم، ويريدون أن يعيشوا في غيوبة خمر،وغيبوبة حـس، لتكـون البرزخ بين فورة الحياة، وعدم الموت.

يضيف عيسى: على حناجر المطربات والمطربين، من "منيرة المهدية" إلى "نعيمة المصرية" ومن "الست وحيدة" إلى "الست رتيبة" ومن "صالح عبد الحي" إلى"عبد اللطيف البنـا" انتقلت كلمات المداعبة الجنسية من غرف النوم إلى غـرف حفلات الغناء في الصـالات والمسـارح، وتحولـت إلـى

اسطوانات طبعتها شركة بيضافون، وبيع منها ألـوف مـن النسخ، لتسمعها السيدات المخدرات في البيوت، أمـا "السـت منيرة" و"الست نعيمة" و" الست توحيدة " وبقية الجوقة فسوف يغنون أغاني من نوع "ارخي الستارة اللي في ريحنا أحسـن جيرانك تجرحنا / يا فرحانين يا مبسوطين/ يا مفرفشين يـا مزأططين بالقوي يا حنا".. وبعد أن يصف عيسى هؤلاء بـ "جوقة مطربات الحرب العالمية الأولـى"، يسـتكمل قـراءة المشهد بذكره واحدة مما قدمته الست نعيمة المصـرية "مـا تخافش عليا، أنا واحـدة سـيجوريا (أي مضـمونة باللغـة الإيطالية)، في العشق يا أنت واخده البكالوريا "أمـا منيـرة المهدية: "من إيدي وداني ع الموسكي / وسقاني كونياك على ويسكي، وقال يا منيرة آنستي / مادام شربنا.. نبات الليلـة / وخدني ودخلني الأودة / لعبنا سوا وبقت موضة.. حط إيـده على شعري يامه يا شعري / قمت أنا اتخضيت / وحط إيدي على حاجبي / يامه يا حاجبي/ قمـت أنـا أتلـذيت". وفـي طقوطقة أكثر إباحية قدمت الست رتيبة: "خدني في جيبك بقا / بين النهود والمنطقة"، أما عبد اللطيف البنا فلخص المرحلة

في مونولوج بيقول مطلعه : " الستات دول لذتنا. والبنات هما همزتنا".

ساد هذا اللون (الطقاطيق) من الغناء في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولي في مناخ إجتماعي وسياسـي تصـفه الباحثة الأمركية فرجينيا دانيسلون: "أقبل المصـريون مـن أفراد الطبقتين العليا والمتوسطة، متابعة الجديد فـي مجـال الغناء بشراء الاسطوانات المسجلة، وتذاكر الحفلات الفنيـة، وصدر ما يزيد على اثنتي عشرة من المجـلات المختصـة بالموسيقي والمسرح أو المجلات التي أفردت بين صـفحاتها أبوابا مهمة لأخبار الفن والنقد الفني، وإتسعت رقعة الإقبـال على النشاط الفني لتشمل مؤسسات تجارية مثـل المسـارح وشركات تسـجيل الاسـطوانات بالإضـافة إلـى الأفـراد والعائلات".

ويقول الشاعر الغنائي سيد حجاب:

"صحيح أن كثيرا مـن المغنـين والمغنيـات أسـهموا بأصواتهم وأغنياتهم في صورة ١٩١٩، لكن الغناء المصري كان منقسما على نفسه تتنازعه عدة إتجاهات وطرائق.. كان هناك الإنشاد الديني "الإسلامي والقبطي" الذي تعود جـذوره

الى مصر الفرعونية، وكان هناك غناء النخبة مـن الأتـراك والمستتركين، كما كان هناك غناء الغجر والعوالم الذي يملأ المقاهي وعلب الليل. وكان هناك الغناء الشعبي الفولكلـوري الذي لاشك أن أم كلثوم قد سمعته أو شاركت فيه في طفولتها القريبة، وكان بكل صنف من هذا الغناء قواعـده وأصـوله وجمالياته ولم يكن هناك نمط واحد من الغناء تجمـع عليـه الأمة بكل طبقاتها ومستوياتها الثقافية المختلفـة، صـحيح أن الأمة بكاملها أجمعت على عشق ألحان سيد درويش لكن الهم الأساسي لسيد درويش كان حلما موسيقيا. ولم يلتفت كثيـرا لحل هذه الأزمة الغنائية، فنحن الآن حين نسمع ما تبقى مـن تسجيلات صوتية لألحان سيد درويش سيدهشنا هذا التبـاين الواضح بين مصرية الألحان والموسيقى وبين أسلوب غنائها الذي يتراوح ما بين غناء الغجر والعوالم في أصوات حيـاة صبري، ومنيرة المهدية. وما بين الغناء على طريقة الأتراك والمستتركين في أدوار سيد درويش العشرة".

كان في قلب المشهد الغنائي مـن الأصـوات النسـائية أسماء مثل.. توحيدة.. منيرة المهدية.. فتحية أحمد.. فاطمـة قدري.. فاطمة سري.. وحياة صبري، والمنشدة الدينية سكينة

حسن وبين هؤلاء وأم كلثوم بدأت الحرب، ولم تكن الأدوات متكافئة بين الطرفين فأم كلثوم لم تكن تملـك سـوي جمـال صوتها.. أما الأخريات فلهن الرصيد التاريخي، والخبرة في المكائد، والمعجبين، ولم تكن الحرب بن الطـرفين لتكـريس زعامة بدلا من أخرى، وخنق صوتا غنائيا على حساب آخر، أو دفن موهبة تنبت من أرض قاحلة.. وإنما هي الحرب التي تتكرر في التاريخ دائما وهي حرب الانتقـال مـن مرحلـة بمعالمها الحضارية والتاريخية إلى مرحلة أخرى جديدة. وما حدث مع أم كلثوم كان تعبيرا عن ذلك فهي وضعت أقـدامها في التوقيت الفارق في التاريخ، توقيت لمرحلة شهدت ثـورة ١٩١٩ بكل فورانها الشعبي، ورغم أن الثـورة لـم تحقـق الاستقلال لكنها أسست لقيم وطنية ونهضوية جديد يعبر عنها الناقد كمال النجمي: " أيقظت ثورة ١٩١٩ شخصية الشـعب المصري، وأن أصداء تأثيرها، كتـأثير الثـورة العرابيـة، وحادثة دنشواي، ظلت تتردد في ربوع مصر علـى مـدي سنوات، وفي مجال الثقافة التعبيرية أدت ثورة ١٩١٩ وكذلك الإتجاهات الاجتماعية التي ساعدت الثورة على تقويتها إلـى تدعيم اعتزاز المصريين المتنامي بتراثهم الوطني".. ويضيف

النجمي: "يتميز المصريون بطريقتهم فـي الغنـاء.. وهجـر المطربون هذه الطريقة لمئات من السنين، وعـاش الشـعب يغني لنفسه بينما كان المطربون المحترفون يغنون للسلاطين والأمراء والمماليك ثم للباشوات الاتراك..

فهمت أم كلثوم مقتضيات المرحلة الجديدة، وبدأت فـي التعاطي معها، وكان عام ١٩٢٦ هـو نقطـة التحـول فـي مسيرتها الغنائية حيث أدخلت تطويرا جديـدا علـى فرقتهـا الغنائية تمثل في إدخال آلات حديثة في التخت الذي يصاحبها تقول:

"في أواخر عام ١٩٢٦.. وكنت وقتهـا بالإسـكندرية.. التقيت هناك بعازف العـود المعـروف مصـطفى رضـا.. وتحدثنا عن الفن.. واللون الذي أقدمه.. ثم تناول الحديث بيننا فكرة إدخال الالآت الحديثة في "التخت " الذي يصاحبني فـي الحفلات..وأبدي مصطفي إستعداده للإشـتراك مـع الفرقـة الموسيقية التي تصاحبنى..

وتحمس والدي للفكرة... واشترط في سياق الحديث أن يكون التطور إلى الأقوي والأحسن.. بحيث لا يكون تقليـداً لأي "تخت" آخر موجود في القاهرة..

وبصراحة.. كنت أفكر في تطوير "التخت" قبـل لقـاء مصطفى رضا.. كنت أفكر في ذلك.. قبل أن أجد نفسي فـي يوم من الأيام مرغمة على ذلك..

وقبل أن ينصرف "مصطفى رضا" كان قد اتفـق مـع والدي على أسماء أعضاء "التخـت".. وهـم إلـى جانـب مصطفى.. محمد العقاد. وسامي الشوا... ومحمود رحمـي.. ومحمد القصبجي وآخرون.. ولم يبخل والدي بشـئ.. فـي سبيل التعاقد مع كل هؤلاء.. لما كانوا يتمتعون به من مكانة فنية في ذلك الوقت.. وقد استفدت كثيراً من تكوين "التخـت" على هذا النمط.. فقد كان الشيخ محمود رحمـي.. يـدربني على عزف العود.. وحفظ أكبر كمية من التواشـيح لتكـون بمثابة أرشيف... يساعدني في المسـتقبل وأجـدت بالفعـل العزف على العود.. وفكرت يومها فـي تلحـين الأغـانى.. وجربت حظي في تلحين قصيدة لأحمد رامى.. بعنـوان "يـا نسيم البحر ريان الندى" ولأشبع رغبتي في التلحين أقـدمت على التجربة مرة أخري في أغنية لرامي أيضاً بعنوان: "على عيني الهجر"، بعدها آمنت بالتخصص وفضـلت الاقتصـار على الغناء فقط وقد استفدت كثيـرا مـن تـذوقي للشـعر..

ومعرفة بحوره وأوزانه التي تعلمتها عن الشاعر أحمد رامي وقراءاتي المتعددة لكتب ودواوين الشعراء..

هذا التجديد الذي بحثت عنه أم كلثوم كاستجابة للتحـدي الحضاري الذي فرض نفسه.. زاد مـن حمـلات الغضـب ضدها ممن رأوا أن استمرارها يحتوي على خطـر محقـق عليهم، وتأسيساً على ذلك نظـم هـؤلاء حمـلات صـحفية مغرضة ضدها، على أمل منهم أن تترك المطربـة الجديـدة القاهرة، وتعود إلى قريتها طماي الزهـايرة، وتتـرك لهـم الميدان كما كان من قبل.

تقول أم كلثوم عن هذا الجانب:

كان هدف هذه الحملات أن تبعث اليأس فـي نفسـي.. وتقتل آمالي في المستقبل لأعود إلى "طماي".. وأتـرك لهـم القاهرة ميداناً رحبا يرتعون فيه.. لقد تناولت هذه الحمـلات في البداية الأغاني التي أقدمها.. وأدعـوا أنهـا لا تناسـب جمهور القاهرة. وإنها تناسب رواد الليـالي والموالـد فـي الأرياف.. وبصراحة لم يؤثر هذه الأسلوب في إيماني بالله.. وبالمستقبل لأنني كنت أعرف طريقي الذى اخترته مع والدي

وأخي واقتنعنا به.. وكانت باكورة أغنية من كلمات المرحوم على الجارم ولحن أحمد صبري النجريدي..

"مالي فتنت بلحظك الفتاك وسلوك كل مليحة إلاك"

يومها أحسست بتجاوب الجمهور.. وانفعاله باللون الجديـد.. وتوقعت أكثر من حملات الصحف والمجلات.. لذلك لم تكن تلك الحملات بالشئ غير المتوقع..

في هذا السياق يمكن فهم شراسة المعارك التي حيكـت ضد أم كلثوم من المغنيات المحسوبات على المرحلـة التـي كانت الستائر توشك على الإسدال عليها لبدء مرحلة جديـدة، تؤسس هوية للغناء وترصد الدكتورة نعمات أحمد فؤاد التـي تصدت لكتابة سيرة أم كلثوم هذه المعارك قائلة:

كان الصراع الفني من ١٩٢٠ – ١٩٣٠ صاخبا، ولـم تكن أم كلثوم طرفا بارزا في هذا الصراع – على الأقل فـي أوله – فقد كانت صغيرة لا تلحظها العين، فقد حدث في عام ١٩١٨، أن أخذ جلساء فاطمة قدري التي كانت يؤمئذ مطربة ذائعة الصيت، يتحدثون عن فتاة مسكينة اسمها أم كلثوم، فتاة يقولون عنها أنها تغني، وأن لها صوتا لا بأس به، ولكنها لا

تغني كما يغني الناس، بل هي (تودد) للنبي عليـه الصـلاة والسلام، وتنشد الأناشيد في موالد الريف، وتلبس العقال.

وأخذ الحاضرون من الفلاحة الصـغيرة مـادة للتنـذر والضحك والتسلية، مرة يطلقون النكات على اسمها، ومـرة يتساءلون عن سر العقال.. ومرة يتساءلون عن الجبه التـي تلبسها، وتزعم أنها (بالطو) وهل هي بنت أم ولـد، وترتفـع القهقهات مهما كانت النكتـة سـخيفة، وبينمـاهم يضـجون بالضحك، طلعت عليهم مطربتهم، فاطمة قدري، فهبوا وقوفا، وأدوا التحية. وبعد أن أطمأن بهم المجلس،أستأنفوا الحـديث، فتساءلت الست فاطمة من طرف أنفها من هي أم كلثوم هذه، فقصوا عليها قصتها من جديد، فارتسم على وجهها تعبير من تذكر شيئا سمعت به قبلا.

- آه لقد سمعت بالبنت أم كلثوم، ولا مانع من أراهـا، وسرعان، ما تطوع (المطيباتية) بإحضـارها لكـي تحظـى بمقابلة المطربة المشهورة فاطمة قدري. وحين جاءت (البنت أم كلثوم). دخلت تتعثر في خطواتها، فيها انكسار المسـاكين من أهل الريف، وفيها حياؤها، على الرغم من أنها كانت قد

قطعت شوطا في القرى والمحافظات، ولكن القاهرة وأهلهـا في أعين الريفيين شئ آخر – قربي – قالت فاطمة قدري.

(قربت) أم كلثوم، تقدمت من ست الحسن والجمـال، حـائرة مرتبكة ليس لديها ما تقوله للست فاطمة قدري التي تعـرف مصر كلها قدرها.

ثم انصرفت أم كلثوم، بعد أن أعطت المجلس مـادة أغزر للسخرية والتفكه والضحك، أما هي فلعلها كانت تحلـم باليوم الذي تصبح فيه مثل فاطمة قدري.

وتضيف نعمات أحمد فؤاد: كانت نعيمة المصـرية من رأيها أن "منير المهدية" لا يعلى عليها، وأن فتحية أحمـد لا بأس بها على ألا تغني من أنفها، أما أم كلثوم فكانت تقول أنها لا يتوقع لها مستقبلا وتقول نعمات:

"كانت الفترة بين ١٩٢٦ – ١٩٣٠ تتميـز بعمليـة تصفية للمطربات الكثيرات اللاتي ظهرن في العقد الثالث من القرن العشرين.. تصفية كانت نتيجتها أن انحصرت المقارنة واعجاب المعجبين بين ثلاث:

منيرة المهدية – فتحية أحمد – أم كلثوم.

أحست منيرة المهدية سلطانه الطرب أن عرش الغناء بدأ يهتز من تحتها، وصلت درجة قلقها وغيرتها إلـى أنهـا إرتدت ملاءة لف سوداء. ووضعت علـى وجههـا برقعـا. وإرتدت شبشبا في قدمها حتى تبدو كبنات البلـد، وصـحبت معها الممثل محمد بهجت، وذهبت إلى مسرح رمسيس، حيث كانت تغني أم كلثوم، وإشترت تذكرتين في أعلـى التيـاترو (وهي أرخص مقاعد المسرح، ولما شهدت قـدرة أم كلثـوم الغنائية وسيطرتها العجيبة على الجمهور، لم تستطع تحمـل أكثر من وصلة واحدة، وانصرفت إلى عوامتها تفكـر مـاذا تفعل حتى إهتدت إلى حيلة شيطانية وذلك بإيقاع ناقد صعيدي شاب اسمه محمد عبد المجيد حلمي صاحب مجلة المسـرح وكانت مجلة فنية شهيرة في غرامها، وبـدأ فـي الحمـلات الصحفية ضد أم كلثوم وكانت الذروة في قوله " أن أم كلثـوم قدمت وهي بنت صغيرة شكوى لمحكمة السنبلاوين مؤداهـا أن شابا من القرية اغتصبها، ووعد بنشر نص الحكـم، ولـم ينشره طبعا لأنه كان كذبة كبيرة. لكن هذه القضية بالتحديـد دعت والدها إلى التفكير جديا في العودة إلى قريتـه وتـرك القاهرة الملعونة نهائيا ورغم توسلاتها له إلا أنه رفض نهائيا

حتى بعثت العناية الإلهية بمن يعيد الأمور إلى نصابها تقول أم كلثوم:

"فجأة دق الباب.. وأسرع إليه الشيخ خالـد يفتحـه.. وكان القادم..أمين المهدي صديق العائلة ترافقه أسرته، جـاء بعد أن سمع بإصرار أبي على مغادرة القاهرة، ونظرت إلى أمين المهدي، وكأنه مبعوث العنايـة الإلهيـة الـذي جـاء ليخلصني ويقنع والدي بالبقاء في مصر.. التفت أمين المهدي إلى أبي، وقال موجها إليه الحديث.. "وأنت يا شيخ إبراهيم.. بيهمك الكلام الفارغ اللي مكتوب في مجلة المسرح، وعارف لما تسافر أنت وبنتك، يبقى معناه إيه ؟.. معنـاه إن الكـلام صحيح.. كانت هذه الكلمات كافية لكي يعدل والدي عن رأيه، ولكن الحملات الصحفية لم تتوقف.. بل عقدوا مقارنة بينـي وبين فتحية أحمد.. ثم بيني وبين منيرة المهديـة وفتحيـة.. وكانت النتيجة أنني الثالثة، ولم أهتم بالنتيجة، وإنما صـممت ألا أكون في الموقع الذي وضعوني فيه..كنت أسعى جاهـدة لأن يفرضني فني على صفحاتهم ولم أستعجل الأيام".

أين كان أستاذها ومكتشفها الشيخ أبو العلا محمد من كل هذا ؟

تجيب أم كلثوم.

في هذه الأيام كان "الشيخ أبو العلا" يلازمنا.. يحضر إلينا في لوكاندة "جوردن هاوس" كل ليلة.. يغني لي وأغني له.. حتى حفظت منه كل أغانيه وألحانه.. كان يرافقني في كل حفله أذهب إليها.. كان الشيخ أبو العلا.. في منزلة والدي.. لا تزال نصائحه حتى اليوم أعمل بها (قبل رحيلها).

وغاب الشيخ أبو العلا يومين على غير العادة.. وفي اليوم الثالث ذهبت إلى منزله أسأل عليه.. فوجدته مريضا.. فعدت والدموع تبلل خدي.. وأخبرت والدي.. فرافقني أنا وأخي خالد لنقضي معه هذه الليلة مكثنا معه حتى نام.. كنا نذهب إليه كل يوم إلى أن أسترد صحته.

وفي الايام التي ثقل فيها لسانه.. كان يحرص أيضا على الحضور إلينا.. وكان يغني لي.. وعندما تغيب الكلمات منه.. أو يتعثر نطقها يقول لي: أنت عارفة أنا عايز أقول إيه.. فقد كنت أحفظ أغلب أغانيه..

إنني لا أنسى يوم أن قال لي : لن نفترق أبدا يا "أم كلثوم" لأنني أعتبرك ابنتي.. أنا مسئول عنك وعن نجاحك زي الشيخ إبراهيم بالضبط.

وفي ليلة مظلمة.. لم يطلع لها قمر.. جاءني نبأ وفاة الشيخ أبو العلا.. كان ليلة الأربعاء ٥ يناير ١٩٢٧ كنت في ذلك الوقت قد انتقلت إلى الزمالك (حي).. خرجت من الشقة هائمة على وجهي لا أدري ماذا أفعل.. وكان يرافقني أخـي خالد.. وسامي شوا.. كنت أريد أن أبكي.. ولكن الـدموع لا تطاوعني. لقد تحجرت في عيني.. سرت على قـدمي مـن الزمالك إلى شارع فؤاد.. ضاعت الطرق أمامي وفقدت كـل تفكير.

كنت أسير من شارع إلى شارع.. كل شـئ أمـامي كان مظلما.. فقد مات الرجل.. الذي وقف بجانبي.. وقدم لي أكبر عون وأكبر مساعدة.

حسمت أم كلثوم معاركها مع الأخريات بالإنتصـار عليهن بالضربة القاضية، فهل يمكن القـول أن المعطيـات السابقة وحدها كانت السبب في هذا الإنتصار الساحق؟ ولماذا تعلق بها البسطاء والفلاحون مبكرا، ورأو فيها ما لم يروه في غيرها؟

ولماذا سجلت انتشارها بهذه السرعة فـي بـداياتها.. هل لذلك علاقة بمجريات الجوانب السياسية والاجتماعية في

الفترة التى بدأت منها في طماى الزهايرة، ثم انتقالهـا إلـى القاهرة، وهل كان لأن أم كلثوم فهمت مقتضـيات المرحلـة الجديدة في تاريخ مصر ؟

الكاتب والروائى الراحل فتحى غانم له رؤية خاصة تقدم إجابة عن مجمل هذه الأسئلة،

يقول: لم تكن أم كلثوم في ذلك الوقت، في الفترة بين عام ١٩١٥ وعام ١٩١٨ وهي فترة ظهورها كمغنيـة فـي الريف، وقبل إنتقالها إلى القاهرة، تغني كالمطربات الشهيرات في ذلك الوقت ولا تقلدهن، بل ربما لم تكن سـمعت باسـم منيرة المهدية أو باسم الشيخ سلامة حجازي.

ولم يكن غناء المحترفن في مصر للناس العاديين، بل كان قاصرا على طبقة الأمـراء والأعيـان الـذين يقيمـون الحفلات في بيوتهم، أو يتـرددن علـى صـالات الـرقص والبارات.

وفي ذلك الوقت، كان الفلاح المصري يعاني عذابا لم يشهد له مثيلا في حياته، كان الإنجليز يصادرون مـا شـيته ودوابه التي هي كل ثروته وحياته، ثم بدأ الإنجليز يسـوقون آلاف الفلاحين مسخرين للحرب التي كانـت بيـنهم وبـين

الأتراك في الشام، وأرسلوا حوالي عشرين ألفا من الفلاحـين المصريين إلى فرنسا عام ١٩١٦، بعد أن اكتشفوا قوتهم في العمل وشدة مثابرتهم تحت ظروف الحرب القاسية، وأحست كل قرية في مصر بالضياع وفقدان الناس والمال، يحترقـون في أتون حرب لا شأن لهم بها، وفي هـذه الحالـة النفسـية المريرة، بدأ الفلاحون يعبـرون عـن مأسـاتهم – سـواء المرتحلون خارج مصر، أو الباقون فيها – بأغان ليس لهـا صلة بغناء المحترفين في مصر.

يضيف غانم: كان المغني في مصـر يثيـر النـاس ويطربهم، بشئ اسمه " الهنـك والرنـك " وهـي الميوعـة والطراوة في الغناء، ابتكرها محمد عثمان منذ أيام الخـديوي إسماعيل وحفلاته الباذخة، إذ يقضي المغني عشـر سـاعات متتالية وهو يتلاعب بصوته مرددا جملـة أو شـطرا مـن قصيدة.

وكانت منيرة المهدية تثير حواس المستمعين، ببحـة في صوتها فيها طابع جنسي، يشبه بحة الأغاني التي يغنيهـا الأمريكيون اليوم في أغانيهم الراقصة.

أما أم كلثوم فقد غنت مع الفلاحين، علـى طبيعتهـا وسجيتها، غنت بلا قواعد وبلا هنك أو رنك وبلا بحـة.. أو تلاعب.. أطلقت صوتها معبرا عما تحس به، بـلا خضـوع لتقاليد أو مزاج.. أطلقت صوتها وكأنها تغني لنفسـها.. وإذا بالفلاحين يطربون لسماعها ويجدون فيها تعبيرا عن الإنطلاق الذي يتمنونه في حياتهم.

وهنا يجب أن نسجل لأم كلثوم أنها استحقت منذ ذلك الوقت، التفضيل الذي حباها به الفلاحون على غيرهـا مـن الأصوات التي كانوا يسمعونها، وهذا التفضيل راجع لأمـر شخصي في أم كلثوم، وحتى لو هيئت الظـروف لأصـوات جميلة أخرى أن تبرز، لما كان جمال الصوت وحده كافيا، إذا خضع هذا الصوت الجميل لقواعد المحتـرفين فـي الغنـاء وتقاليدهم، بل كان لابد أن ينطلق الصوت الجميل ثائرا مـن كل قيد.. حتى يتجاوب مع حالة المستمعين النفسية، وهذا هو ما فعلته أم كلثوم.. وحدها.

لقد إستجابت أم كلثوم فـي غنائهـا المنطلـق إلـى مشاعرها التي اتفقت مع مشاعر الفلاحين، ولكنها لم تتفق مع مشاعر هواة الطرب من الأعيان الأغنياء، وليس أدل علـى

ذلك مما كتبه النقاد عندما ظهرت أم كلثوم لأول مـرة فـي القاهرة.

كتبوا يصفون صوتها في الصحف.

"إنها ترسل الغناء إرسالا بغير قطعة من قطع الطرب تمهد لها سبيل الانغام"!

قال ناقد آخر:

"زيادة على حسن الصوت ورخامته، يوجد شئ اسمه الفن، وأم كلثوم تسير مع طبيعتها فقط، وهذا لا يكفـي فـي الواقع وليس فنا ".

وقال ناقد ثالث :

"إن في صوتها جفافا – يقصد لا ميوعة فيـه – ولا يمر صوتها بالآذان، فما تكاد تنفرج شفتاها، وما يكاد الإنسان يحس أن النغمة تكون في مرورها بالأوتار حتى تنفلت مـن الأذن، ولكن يخفق بها القلب".

يقول غانم: جميع هؤلاء النقاد- ويؤسفني ألا أعرف أسماءهم إذ لم يوقعوا كلماتهم – كانوا يفضلون منيرة المهدية على أم كلثوم.

ومنيرة كانت تمثل الجنس الصارخ في الصوت وفي معاني الأغاني. وكانت تستجيب لجمهور سهرات فيها خمـر وحشيش وصيحات فيها عربدة وشـهوة، ونكـات جارحـة مخجلة.

وكانت أم كلثوم – مغنية موالد الفلاحين – لها صوت طبيعي، ينطق الكلمات سليمة، بلا عوج أو التـواد، وبعيـد تماما عن الأصوات الجنسية فضلا عن خلـوه مـن صـنعة التكلف في التلاعب بالصوت وترديد الكلمات، بصرف النظر عن معناها.

ومن الغريب أن تختار هذه الفلاحـة المغنيـة هـذه الطريقة في الغناء وتتمسك بها بتأييد من جماهير المسـتمعين الفقراء.

ولا تحاول أن تتعلم طرق الغناء الأخرى السائدة في ذلك العصر، متفقه في ذلك مع الشيخ سيد درويش وفي نفس الوقت- دون أن تلقاه أو تتعلم على يديه – وهـو الموسـيقى الذي كفر أيضا بفن المحترفين، وبـدأ ينـادي بـأن طبيعـة المصريين في الغناء أقوى من فنهم، وبينما كان سيد درويش يجهد نفسه للتلحين بطريقة جديدة تخالف مـألوف العصـر،

وتتفق مع المشاعر الثائرة الجديدة التي تجتاح الناس، كانت أم كلثم تطبق أفكار سيد درويش فعـلا بغنائهـا الريفـي بـين الفلاحين.

ويقطع غانم بالقول: لا أريد أن أتهم بالمبالغة إذا قلت إن ألحان سيد درويش الثائرة على الصنعة القديمة، والمتأثرة بالطبيعة والسجية المصرية، وكذلك صوت أم كلثوم وطريقتها في الأداء الطبيعي، كانا يرمزان إلى رغبة حقيقة كامنة فـي النفوس للإنطلاق والتجرد من القيود السياسية والاقتصـادية التي تضغط عليهم، ولما حقق لهم هذا الحلم- من ناحية الفن – سيد درويش في ألحانه، وحققت أم كلثوم في غنائها أقبلـوا عليها في إعجاب.

وبدأ الأغنياء يسمعون عن أم كلثوم كانـت الأنبـاء تتناقل إلى الأعيان من خدمهم وأعوانهم أن هناك فلاحه تغني بصوت ملائكي، وتحرك الفضول في نفوس بعـض هـؤلاء الاعيان، فإستدعوا أم كلثوم إليهم ليتحققوا من صحة النبأ.

رسمي باشا محافظ دمياط، كان لا يجد في المدينـة نوعا من التسلية يتفق مع مركزه ومنصبه، وفي إحدى نوبات السأم استدعى أم كلثوم إليه وإستمع إليها مع ضيوفه، فهـزوا

رؤوسهم في إعجاب، ولكنهم لم يجسروا على مقارنتها بمنيرة المهدية العظيمة.

وتعود أم كلثوم من مثل هذه الحفلات، بعد أن تأكـل طبق مهلبية، أو تقضم قطعة لحم، بعيدا عن المائدة التي تقام للمدعوين فهي ليست أكثر من فلاحة لها صوت جميل.. وأين يجتمع مجلس الوزراء في عوامة لها راسية علـى شـاطئ النيل.

وفي أثناء تردد أم كلثوم على بيوت أعيان الفلاحين، بدأت تسمع عن القاهرة، وحدثها توفيق بك زاهر من أعيـان السنانية، عن توقعه لنجاحها لو ذهبت إلى القاهرة.

ويطرح غانم رؤيـة مغـايرة حـول الفضـل فـي اكتشافها.. يقول: عندما يتحدث الكتاب عن أم كلثوم يؤكدون دائما أن توفيق بك زاهر أكتشف موهبتها، ونحن نعرف الآن أن هذه الرواية ليست حقيقية، إن الذين اكتشفوا أم كلثوم هـم فلاحو القرى.. ومنهم الخفير الذي أعطاها عشـرة قـروش لتغني في فرحه، وبائع السجائر أحضرها لتغني فـي حلقـة أقامها مقابل جنيه واحد، وأمثالها من بسـطاء النـاس، أمـا

الأغنياء فقد تسلموها من بين الناس يدفعهم الفضول أولا.. ثم نوع من الحماس للشئ الجديد المثير.

ونجح وفيق بك زاهر في إقناع أم كلثوم بالسفر إلى القاهرة وإستطاع أن يضيفها في بيت آل عبد الرازق في شارع الدواوين.

وكانت فرقة للكشافة النوبية تقيم حفلا في مقرها بجوار البيت، فأرسلوا أم كلثوم لتغني فيه.

وبدأت أم كلثوم تغني قصيدة وقورة وغريبة عن جمهور حفلات القاهرة، وما كاد صوتها يرتفع بمطلع القصيدة.

مولاي كتبت رحمة الناس عليك.. فضلا وكرما

حتى إرتفع أحد السامعين صائحا:

- كتب الغلب علينا يا أختي.

وضج الناس بالضحك.وبكت أم كلثوم

ولو قدر لي أن أكون ناقدا فنيا شهد ظهور أم كلثوم لأول مرة في حفلة غنائية عامة في مدينة القاهرة لكتبت في ذلك الوقت النقد التالي لأم كلثوم:

"ظهرت بالأمس مغنية جديدة تدعى أم كلثوم.. أقبـل على سماعها جمهور كبير أغلبه من السـوريين والأفـرنج وبعض الشبان من أهل القلم والثقافة، وقد وقفت أم كلثوم على خشبة المسرح في ملابس صبي عربي.. البـالطو والكوفيـة والعقال، ومن حولها بطانة من المشايخ وصفهم أحد الأفنديـة بجواري بأنهم كالأصنام الجامدة، وقـد علمـت أن هـؤلاء المشايخ خالد والد الفتاة الشيخ إبراهيم وأخوها الشـيخ خالـد وقريب لها اسمه الشيخ صابر، ويدور الهمس بأن هذا الشيخ الأخير طيب أم كلثوم، ولكن أحدا لم يؤيد هذه الإشاعة بعد.

وإستطاعت هذه الفتاة العجيبة أن تغنـي بغيـر آلات تخت بصوت واضح جميل قوي، ويبدو أنها تـأثرت كثيـرا بتلاوة القرآن الكريم الذي حفظته في الكتاب في قريتها، وهي لا تجيد صنعة الأنغام والتلاعب بها، ولا تعتمد على شئ غير صوتها وصوت بطانتها، وهو مزعج ونشـاز، ولا يقـارن بصوت أم كلثوم، ويخيل لي أنها لن تستمر في الغناء بصحبة هذه البطانة وإلا حكم عليها بالفشل،وأسعدني أن أعلـم أنهـا بدأت تعلم العود لتغني هي وتعزف عليه، وربما كـان هـذا خيرا لها وللسامعين.

وأجمع أغلب السامعين على سوء اختيـار المغنيـة لأغنياتها البعيدة عن سوء اختيار المغنية لأغانيها البعدة عـن ذوقهم، فقصائدها بعيدة عن الرقة. مليئة بالوقار، وقد غنـت بالأمس قصيدة.

مولاي كتبت رحمة الناس عليك.. فضلا وكراما

فسخر منها أحد المستمعين وصاح :

- كتب الغلب علينا يا أختي

ومع ذلك إستمرت المغنية الصغيرة في الغناء والذي لا يعلمه الحاضرون أنها ما كاد تنتهي من القصـيدة حتـى أسرعت إلى حضن والدها الشيخ إبراهيم وأجهشت بالبكاء.

وعلى أية حال خرج الكثيرون من الحفـل، وهـم لا يخفون إعجابهم بصوت أم كلثوم، وسمعت أكثر مـن شـاب مثقف يقسم في تهور وإندفاع بأن سيكون لهذه الفتاة شأن في عالم الطرب.. وأن طريقتها في الغناء خير من أسلوب الغناء عند منيرة المهدية ".

وتلاحظ على هذا النقد – وقد جمعت مـا فيـه مـن معلومات وأخبار من صحف ومجلات ذلك العصـر- كأنـه يشير إلى جمهور جديد لأم كلثوم غير الجمهور الذي أعتادته

هي بين قرى الفلاحين وغير الجمهور الذي اعتاد أن يسـمع الطرب والغناء في القاهرة إنه جمهور السوريين والافـرنج، ثم الشباب المثقف من أولاد الأعيان وأثرياء الزراعيين فـي الريف.. وهو في حقيقته جمهور الطبقة المتوسطة في المدينة وهي الطبقة التي بدأت تنمو وتتسع مصالحها في مصر.

ويرصد فتحي غانم كيفية تولد العلاقة بين صوت أم كلثوم منذ بدايتها والطبقة الوسطى التي بدأت فـي نموهـا.. يقول:

في خلال الحرب العظمى وبعدها، نزح كثيـر مـن أبناء الفلاحين إلى القاهرة ليتعلموا ويتحولوا إلـى مـوظفين يقبضون المرتبات الشهرية من الحكومـة كـذلك إزدهـرت التجارة التي كان يسيطر عليها الأوروبيون، وبعـض أبنـاء الشام.

وهذه الطبقة كانت تعمل سواء في دواوين الحكومة، أو في أعمال التجارة، ولم يكن لديها متسع من الوقـت كـي تسهر الليل كله في الحفلات والليالي الملاح، مثل الأعيان في سهراتهم في البيوت أو في الصالات والبـارات، بـل كـان هؤلاء الموظفين والتجار لهم يوم أجازة يسـتطيعون فيـه أن

يستمعوا إلى الغناء ولاشك أنهم رحبوا بغناء أم كلثوم السريع – بالنسبة لغناء الآخرين في ذلـك الوقـت – فضـلا عـن اهتمامها بالمعاني التي تؤديها بصوتها، وهو ما يتفـق مـع مستوى عقلية هذه الطبقة.

وبعد أن يشير غانم الى أن الطبقة المتوسطة هي التي زاملت أم كلثوم في صعودها الفني، يقول: منـذ جـاءت أم كلثوم إلى القاهرة، ابتعدت نهائيا عن طبقة الفلاحين الأجراء إلا في اغانيها ذات المعاني القومية أو الاشتراكية التي تمس مصالح هؤلاء.

وإذا أردنا أن نفهم طابع أم كلثـوم الفنـي منـذ أن انضمت إلى الطبقة المتوسطة برحلتها من الريف إلى المدينة فلابد لنا من دراسة الطبقة المتوسطة التي عاشـت فيهـا أم كلثوم وغنت لها.

وأهم ما يميز الطبقة المتوسطة هي أنها تقـوم علـى أساس مبدأ البحث عن الربح.

والطبقة المتوسطة تتكون من أفراد يعيش أغلبهم في المدن، ويبحثون عن الثروة المادية عن طريـق التجـارة أو إمتلاك الدكاكين أو المصانع الصـغيرة أو الكبيـرة أو مـن

احتراف المهن المختلفة كالمحاماة والطب والهندسة أو مـن الإلتحاق بالوظائف الحكومية.

وأفراد الطبقة المتوسطة يكتسبون كل صـفاتهم مـن السوق، أي أن المصلحة المادية هي التي تحرك مشـاعرهم وانفعالاتهم وعواطفهم وأفكارهم.. فهم يثورون وينقلبون إلى وطنيين لأن مصـلحتهم الماديـة تقتضـي أن يثـوروا وأن يصبحوا وطنيين.. وقد يتراجعون في ثورتهم إذا ما وجـدوا أنهم سيصابون بأزمات مالية لا يطيقونها، فإذا ما اسـتقرت أحوالهم حصنوا أنفسهم بالوقار المكتسب فتحدثوا عن مثاليات الشرف والفضيلة والعفة والتدين.

والفائز في الطبقة المتوسطة، هو من يجمع مالا أكثر من غيره، لذلك تهـتم الطبقـة المتوسـطة بالحـديث عـن الشخصيات ومقدار ما تكتسب من مال، أكثر من حديثها عن القيم التي يعيش من أجلها الإنسان. فمثلا ليس هناك حـديث في هذه الطبقة عن الفن بقدر الحديث عن شخصـيات الفـن وقدرتها على إكتساب المال من فنها. وليس هناك حديث عن الموسيقى والغناء في ذاتهما، بل الحديث عن منيرة المهديـة وكم كسبت، وأم كلثوم وكم تكسب.

ولذلك لم يعن أحد بدراسة تطور الموسـيقى عنـدنا، وحصرنا حديثنا عن الموسيقى، في تتبع الشخصيات الفنيـة التي ظهرت متتالية في هذا المجال الفني.

وبعد أن بدأت أم كلثوم الغناء في القـاهرة بسـنوات قليلة، جذبت أنظار النقاد إليها فلم يلاحظوا فنها ولم يدرسـوا خطواتها الجديدة في الفن، بل اقتصروا على مناقشة واحـدة، وهي : هل تصلح أم كلثوم كخليفة لمنيرة المهدية أم لا ؟

وكان حديث الصحف يدور حول هذه المناقشة فتقـرأ مثل هذه القصة "كنا جلوسا، فطلع علينا نذير يهتـف.. لقـد ماتت منيرة المهدية.. بغتنا جميعا وكان أحدنا يشرب السحاب فاندفق عليه ومرت برهة قصيرة ترحمنا فيها علـى السـيدة منيرة وذكرنا صوتها الجميل وجهادها في المسرح ثم انتقلنـا فجأة إلى الحديث عمن يخلفها.. فتحية أحمد.. فاطمة قدري.. أم كلثوم.. نعيمة المصرية، وقام جدال عنيف، ونسى الجميع منيرة، ثم بعد ساعات علمنا أن منيرة المهدية لاتزال على قيد الحياة، وفي الحال نسينا فتحية وفاطمة وأم كلثـوم، وعـدنا نتحدث عن منيرة المهدية ".

هذه هي الطبقة المتوسطة وهؤلاء هم نقادهـا الـذين استقبلوا أم كلثوم في القاهرة.

وقد انتصرت الطبقة المتوسطة بعد ثورة عام ١٩١٩ عندما أجبرت الملك على إعلان الدستور، وتثبيت حق هـذه الطبقة- من المثقفين أولاد البورجوازية الزراعية - في تولي الحكم، وزادت الطبقة المتوسطة مع إنتشار التعلـيم وحلـول المصريين مكان الأجانب في الوظائف. ومع نمو هذه الطبقة المتوسطة كان فن أم كلثوم ينمو ويزداد وينتشـر، يضـيف غانم: ويلاحظ القارئ أني أربط الفن بشخصـية أم كلثـوم، فهكذا تنشاء تقاليد الطبقة المتوسطة التي جعلت الغناء والطرب وأم كلثوم قمة واحدة وشيئا واحد.

وأصبح فن أم كلثوم وشخصيتها يعكسان معا رغبات ومثل الطبقة المتوسطة.

فليس عبثا أن ينفق المذيع وقته في وصـف فسـتان السهرة الجديد الذي تلبسه أم كلثوم ولون منديلها الذي تمسك به أثناء الغناء، كما تتحدث الصحف عن الفراء الثمين الـذي تتدثر به فكل هذه المظاهر مهمة وضرورية في تأكيد مركز الفنان في الطبقة المتوسطة، وبغير الملابس الفاخرة اللائقـة

والمجوهرات الثمينة والمسكن الفخم والسيارة التي من أحدث طراز، يعتبر الفنان أو الفنانة في أعين النـاس فـي مركـز متواضع وليس جديرا بالإهتمام.

ومنذ أن بكت أم كلثوم من سخرية أحد المستمعين في حفلتها الأولى في القاهرة، تعلمت درسها الأول عن المجتمع الجديد الذي كانت على وشك الدخول فيه إنه مجتمع كسـب المال وإنتهاز الفرصة والمهارة والشطارة، وسيطرة الفـرد، وأنانيته فيكفي أن تجول فكرة عابرة بخاطر أحد المستمعين، حتى يطلقها غير عابئ بشئ، فقد دفع ثمن تذكرته وما دام قد دفع الثمن فهو حر فيما يفعله، وسيد لنفسه. هذا هـو منطـق المتفرج. ولم يمض وقت طويل حتى أصبح أيضـا منطـق الفنانة التي جاءت من الريف.

فما دام صوتها جميلا والناس تعجب به، وتدفع المال من أجل سماعه فهي حرة وسيدة لنفسها في عـالم الغنـاء. والجمهور يتبعها ويستسلم إلى تصرفاتها في الألحان كيفمـا تشاء بنفس الطريق التي كان الجمهور يتبـع بهـا زعمـاءه السياسيين.

وسيطرت أم كلثوم على سامعيها، فأعلنوا ثقتهم بها ووضعوها على قمة فن الغناء والطرب بغير منازع

يضيف فتحي غانم :

كان أساس العلاقة بين أم كلثوم وجمهورها، شيئا يشبه الصفقة.

فأم كلثوم عليها – من ناحية – أن تغني بصوتها الجميل، الأغاني المختلفة بحسب المناسبات، الوطنية والدينية أو العاطفية، تبعا لمزاج الجمهور وحالته النفسية.. والجمهور عليه – من ناحية أخرى – أن يدفع الحب والمال الذي تطلبه أم كلثوم.

وبهذه الصفقة أصبحت أم كلثوم نفسها، واحدة من أبرز أفراد الطبقة المتوسطة.

وهي على علم أن جمهورها يهتم قبل كل شئ بشخصيتها هي، ممثلا في صوتها، قبل أن يهتم بكلماتها أو بألحانها، ولذلك فرضت أم كلثوم صوتها على اللحن كما كان لها الحق الأول والأخير في اختيار الكلمات التي تغنيها، وتعديلها مهما كان الشاعر الذي يؤلف أغانيها، شوقي أو رامي أو بيرم التونسي.

وهذا هو تفسير اهتمـامي بالمغنيـة فـي دراسـة الموسيقى في هذه الفترة من حياتنا الفنية، فقد خضـعت لهـا الألحان والكلمات.. كما لا نعدو الحقيقة، إذا قلنا إنها شاركت في تلحين وتأليف أغانيها، بما أحدثته فيهـا مـن تغييـرات مختلفة.

وليس أدل على ذلك، من سماعك لأم كلثـوم وهـي تغني اللحن الواحد، فتطيل فيـه لمـدة سـاعتين إذا أرادات وتختصره لربع ساعة إذا أرادت، فصوتها أهم عندها، وعنـد المستعمين إليها أيضا من اللحن ذاته، وما يكاد صوتها يرتفع بالغناء حتى تخفت الآلات الموسيقية.

لذلك نشهد في غناء أم كلثـوم، معركـة فـذة بـين الصوت من ناحية والموسيقى من ناحية أخرى. وربما كانت هذه المعركة غريبة عند من يفهم الموسيقى على نحـو مـا يفهمه الغربيون مثلا. فاللحن الذي يكتبه موسـيقى غربـي، يجب أن تحترمه المغنية، مهما كان الموسيقي عظيما كـ " بيتهوفن " أو " شوبرت " أو تافها مثل مؤلفي موسيقى الجاز.

والموسيقى يكتب لحنه فتعزفه الآلات بدقه، وتتبعـه المغنية في خضوع تام، فصوتها لا يعدو أن يكون آله صوتية

من بين آلات الفرقة الموسيقية.. أو إذا كانت المغنية موهوبة فهي مثل الممثل المسرحي الذي يؤدي الـدور الـذي كتبـه المؤلف، دون أن يتكلم بأفكار وكلمات من عنده.. فللموسيقى السيادة لأنها الأصل. وقد يغني اللحن الواحد عشرات المغنين فلا يميز الواحد عن الآخر. إلا إخلاصه في أداء اللحن الذي وضعه الموسيقى.

أما أم كلثوم، فقد تعجبها – أو تعجب الجمهور جملة من اللحن، فتظل ترددها لفترة طويلة لمجرد اللذة التي يشعر بها السامعون من الصوت الجميل وهو يؤدي هـذه الجملـة بالذات.

وهذا يعني كما يقول غانم: أن الإنطـلاق والحريـة اللذين بدأت بهما أم كلثوم في غنائها بين الفلاحـين، أصـبح أنطلاقا يعبر عن نزعة فردية، مقياسها هو الشـعور باللـذة والنغم الجميل يعبر عنه الصوت الجميل.

وبعد أن كانت أم كلثوم نفسها تمثل الطبيعة الجديـدة للشعب المصري، وكان النقاد القدامى يهاجمون حلو غنائهـا من الصنعة أدخلت أم كلثوم الصنعة على غنائهـا، فقطعـت

الألحان التي تغنيها وخرجت عنها لتتلاعب بصوتها حسـب مزاجها بعيدا عن اللحن المرسوم الذي وضعه الموسيقى.

وهذه الظاهرة ملموسة في فنون الطبقة المتوسـطة، والتي يعبرون عنها بـ" الفن من أجل الفن " أو بـ " الفن من أجل اللذة أو الجمال ".

واللوم- فيما حدث- لا يقع على أم كلثوم، فهي مغنية ذات صوت جميل، وإنما يقع اللوم على العقول المفكرة التي زاملتها في رحلتها الفنية، وهي عقول رجال سياسية ورجال اقتصاد وأدب وصحافة.

وكان تشجيع هؤلاء جميعا، ونقـدهم وتقـديرهم لأم كلثوم، لا يمثل في غير إعجابهم بالصوت الجميـل والـربح الوفير الذي يمكن أن تحصل عليـه، ولا شـئ أكثـر مـن هذا..فكانوا بذلك مثالا واضحا لعقلية الطبقة المتوسطة التي لا تفكر إلا في المال، وتكيف معتقداتها ومشاعرها بمقـدار مـا تحصل عليه من ثروة، ولا أعرف أحدا من أصدقاء أم كلثوم دفعها إلى مغامرة فنية، والفنانون بطبيعتهم يحبون المغـامرة ولو ضحوا بالمال من أجلها، ولاشك أن أم كلثوم كانت لتتردد في الإرتقاء بفنها لو وجدت من ينصحها بذلك، حتى لو كـان

ذلك على حساب ما تكسب من مال.. ولكن ما حـدث هـو إحجام أم كلثوم عن المغامرة غير المضمونة فلم تواصل الفن المسرحي الذي إزدهر في مصر، وأقبل عليه الشـيخ سـيد درويش، ومنيرة المهدية نفسها، وإن كانت اضطرت إليه بعد تحديد ساعات السهر في الصالات بأمر السـلطة العسـكرية الإنجليزية مما جعلها تلجأ إلى السهر في المسـرح.. وكـان مفترضا في أم كلثوم أن تبدأ عهد الأوبرا في مصر، وهـي قادرة – لاشك في ذلك- على أن تخلقه وتوجده، ولكن أحـدا لم يكن يهتم بتطور الموسيقى وفن الغناء بل تركز الاهتمـام في شخص أم كلثوم واقترن الغنـاء بالمغنيـة وإسـتطاعت وبصرف النظر عن لون الغنـاء، كمـا اسـتطاع الزعمـاء الوصول إلى الحكم بأسمائهم بصرف النظـر عـن المبـدأ السياسي.

وهكذا وقف التطور حتى دخلت مرحلة جديدة، هـي مرحلة ثورة ٢٣ يوليو، وهي المرحلة التي إرتفعـت فهـا أم كلثوم إلى ظاهرة قومية للأمة العربية.

لا تسحب رؤية فتحي غانم من رصيد أم كلثوم الذي تكون تدريجيا منذ قدومها إلى القاهرة ويندرج ما يراه تحـت

وجهة نظر ترى في الفن والموسيقى والغناء أنه يرتقي فـي جماعيته، وليس فرديته، اختارت أم كلثوم أسـلوب الأغنيـة ذات الطابع الفردي لكن هذا لم يخلو من ميزة يراهـا كمـال النجمي في أنه حمل سمة الطابع القومي المشترك في طريقة الغناء وترد أم كلثوم على ما ذكره فتحي غانم، وينقلـه هـو أيض:

- هل أنا مسئولة حقا عن اختفاء الغناء المسرحي في مصر ؟

هل صيح أننا عرفنا الأوبرا والأبريت في أيام الشيخ سلامة حجازي ومنيرة المهدية ثم جئت أنا فأبطلت هذا الفـن المسرحي.. ولم أستمر فيه ؟

وتجيب: إن لي رأيا فيما كان عليه الغناء المسـرحي في مصر، إنه لم يكن أوبرا ولا أوبريت لا غنـاء مسـرحيا بالمعنى المفهوم، كان مجرد أغان فوق المسرح لا تنسجم مع القصة المسرحية، بل هي تقطع سياق القصة، وتقف المغنيـة أو المغني ليؤديا دورهمـا، فتصـبح الأغنيـة فـي جانـب والموسيقى في جانب والقصة نفسها في جانـب ثالـث، ولا يربط بين هذه العناصر الثلاثة- الأغنية والقصة والموسـيقى

– أية صلة غير إجتماعها بالمصادفة في مكان واحـد فـوق خشبة المسرح.

ولم أرض عن هذا الأسلوب في الغناء، فأما أن تكون لدينا أوبرا وأوبريت بطريقة فنيـة سـليمة، أو امتنـع عـن الظهور على المسرح إن وجدت، يجـب ألا تكـون تقليـدا للأوبرا الأجنبية.

إن الموسيقى يجب أن تعبر عن روحنا الشـرقية ولا يمكن أن نفرض على جمهور المستمعين ذوقـا والأسـلوب الأوروبي، فذلك لأن جمهور الصور واللوحات الفنية محدود ومحصور في طبقة ضيقة من المثقفين، أما الموسيقى والغناء فجمهورهما هو الشعب كله على إختلاف طبقاتـه وثقافاتـه وأعماره.

إن الذي يدرس الموسيقى الأوروبية كالذي يدرس لغة أجنبية يجب أن يستفيد منها.. ولكن من المضحك أن يطالـب بأن تكون هذه اللغة الأوروبية هي لغتنا.

ولقد إستمعت إلى الموسـيقى الأوروبيـة وشـاهدت الأوبرا الافرنجية فلم أهز لها، ولم أحس بصدى لها في نفسي كمصرية شرقية، وأعتقد أن هذا هو شعور الآخرين، فالـذين

يترددون على دار الأوبرا يهتمـون بإسـتعراض الملابـس والأزياء والظهور في المجتمعات، أكثر من اهتمامهم الحقيقي بالموسيقى والغناء، وأنا لا أحب هذا التظاهر الـذي يعكـس مركب النقص وعدم إحساسنا بشخصيتنا العربية.

وتضيف أم كلثوم: يعجبني الهنود الصينون، لأنهـم يحتفظون بشخصيتهم في موسيقاهم، فعندما شاهدت الأوبـرا الصينية استمعت إلى موسيقى وغناء لا يمكن أن يصـدر إلا عن الصينيين ويعبر عن حياتهم ومشاعرهم وكذلك الموسيقى الهندية تعتمد على آلات خاصة بها ولا تحاول تقليد أحد وهذا هو سبب نجاح الموسيقى الهندية والأوبرا الصينية في العـالم كله.. إن كل بلد يجب أن يضيف إلى الموسيقى شيئا من عنده لا أن يقلد غيره

وأخشى أن يكون المجددون للموسيقى الشرقية يقعون في خطأ التقليد أو الإقتباس للموسيقى الأوروبية، وأنا أفضـل الاستماع إلى السيمفونيات الأجنبية من أصحابها الأجانب بدلا من تقليدها، وحتى الموسيقى الراقصة أفضل الاستماع إليهـا من مصادرها الأجنبية ولا أوافق على تقليـدها فـي مصـر

وتقديمها للجمهور على أنها موسيقى مصـرية تعبـر عـن شخصيتها المصرية.

ونحن نستطيع بالموسيقى الشرقية والآلات الشـرقية أن نقدم أوبرا صادرة من تراثنا وحياتنا وتبهر العـالم كلـه، وفكرتي عن هذه الأوبرا تلخص في النقاط التالية:

- الاعتماد على التراث الموسيقى القديم ولا أقصد به الألحان القديمة بذاتها إنما نستلهم روحه ونربطها بواقـع حياتنا.. وهو يجمع بين الموسيقى والغنـاء والـرقص فـي الاندلس وفي أيام العباسيين وإخراج تابوهات ستمد أصـولها من هذا التراث وتؤلف لها قصة مناسبة.
- إعداد أصوات مختلفة لتشترك في الغناء وإعداد كورس غنائي مدرب.
- المحافظة علـى الآلات الشـرقية والمقامـات الموجودة في الموسيقى الشرقية ولا توجد في الغربيـة، وأن نضع آلاتنا الموسـيقية فـي مصـر لأن الآلات النحاسـية والخشبية التي تصنع في الخارج لا تستطيع أن تؤدي ربـع المقام.

لو تحققت هذه الظروف كلها فسترى مولد الأوبـرا المصرية كفن حقيقي.

وترد لفتحي غانم عن قصة المال الـذي رأى أنهـا حصلت عليه بشخصها بصرف النظر عن لون الغناء تقـول له:

أما كلامك عن المال فأقول إني غامرت بالمال فـي سبيل فني، غامرت بالمال يوم قررت أن أغني المعاني الدينية والوطنية، لقد نصحني الكثيرون بأن أعدل عن هذا النوع من الغناء، وكانوا يظنون أن الجمهـور لا يهـتم إلا بالأغـاني العاطفية أو الخفيفة، ولكني صممت على تقديم أشعار شـوقي وفيها " ريم على القاع بين البان والعلم " وفيها " الاشتراكيون أنت إمامهم " وهي معان والفاظ بعيدة تماما عـن معـاني " تعاليلي يا بطة " و" تعالي يا شاطر نروح القناطر".. إن مـا قدمت لجمهوري كان يحمل قيما دينية ووطنية وكـان مـن الممكن ألا أنجح في إقناع الجمهور بأن يسـمع لمثـل هـذه الأغاني، ولكني نجحت في ذلك، وهذا هو أعظم إنتصار لي، وكم كنت سعيدة في إحدى الليالي وأنا خارجة من مطعم فـي الشاطبي، فسمعت وأنا أركب عربتي صـوتا يغنـي " ابـا

الزهراء " وكان الصوت صادرا من كبارية على الكورنيش، وأحسست أن وصول هذه المعاني إلى ذلك المكان، وإنتشارها على هذا النحو، دليل على إرتقاء الغناء في مصر فما كـان أحد يتصور منذ زمن قريب أن تنتشـر بـين النـاس غيـر الأغاني الخليعة المبتذلة.

ويفتح هذا التعليق من أم كلثوم الحديث عن قسـماتها الوطنية منذ مجيئها إلى القاهرة وطوال عهود الحكـم التـي عاشت في ظلها، فمع الملك فـؤاد الأول (١٩١٧- ١٩٣٧ ) يمكن القول أنها كانت ولفترة طويلة منه في مرحلة البحـث عن مشروعها الغنائي الذي سيؤسس شخصيتها الفنيـة فيمـا بعد، ويعتبر مؤرخون أن عهد الملك فؤاد الأول كان تتويجـا لتطور طويل للفنون الحديثة في مصـر بـدأ فـي عصـر إسماعيل، واختفي معه هذا اللون من الفنون البدائيـة الـذي عرفته مصر من قبل مثل خيال الظل والأراجوز، والمقصود بالتتويج هنا أن تلك الفنون خلت في بنية الثقافة المصرية بعد أن ظلت غائبة عنها لوقت طويل وتأسس في هـذه المرحلـة نادي الموسيقى الشرقي، وعاد يوسف وهبى عام ١٩٢٣ من بعثته في دراسة المسرح في إيطاليا وقدم في عام ونصف بعد

عودته ٣٥ قصة مسرحية، واصبحت كما قال الكاتب محمـد التابعي " مهنة التمثيل من المهن التي لا يأنف منها الشـبان المتعلمون كما كان الحال من قبل " وفي عام ١٩٢٧ دخلـت صناعة السينما مصر، ففي القاهرة أسست السيدة عزيزة أمير شركة " إيزيس فيلم.. وأعدت سيناريو باسم نداء الله، أدخلت عليه بعض تعديلات فيما بعد، وأطلقت عليه اسم " ليلي " وفي الاسكندرية أسس الشقيقان إبراهيم وبدر لاما شركة " كوندور فيلم " وأعد سيناريو باسم " قبلة فـي الظـلام " وكـان أول السيناريوهات التي اشتغلا بإخراجها "، وفي ٣ نوفمبر عـام ١٩٣٠ تم افتتاح معهد فن التمثيل الجديد ليستقبل فـي شـهر أكتوبر من العام التالي أولى دفعة دراسية وعددها ٣٠ كـان من بينهم رفيعة الشال وروحية خالد، وزوزو حمدي الحكيم، وعبد السلام النابلسي، ومحمد عبد القدوس.

وفي ٣١ مايو عام ١٩٣٤ بدأ البث الإذاعي للإذاعة الحكومية، وكان ضمن فقرات الافتتاح فاصل موسيقي للآنسة أم كلثوم " أبدعت فيه ما شاء لها صـوتها السـاحر وفنهـا الممتاز ".

في هذا السياق كان مشروع أم كلثوم الغنائي يتأسس بدءا من الشيخ أبو العلا ثم الدكتور أحمد صبري التجريدي، وجاء القصبجي لتغني له من كلمـات أحمـد رامـي عـام ١٩٢٤ :

ان حالي في هواها عجب

اي عجب

ليس يرضيني رضاها

ثم يشقيني الغضب

وبعد هذا اللحن جاء لحن " أن كنت أسامح وأنسـى الأسية " وكان ثورة في عالم التلحين تجاوز كل ما قدمتـه أم كلثوم من قبل للقصبجي أو لغيره.

وفي معنى الوطنية السائدة حينئذ لم تغرد أم كلثـوم خارج السرب، فهي ككل المصريين رأت في سعد زغلـول زعيم الأمة ورمزها وفي ليلة ٢٧ أغسطس عام ١٩٢٧ كانت تغني في كازينو البسفور بالقاهرة، وفوجئت أثناء غنائها بأن جميع المتفرجين يهرولون إلى خارج المسرح حتى وجـدت نفسها تغني لفرقتها، فتوقفت عن الغناء لتسـأل عـن سـبب هروب الجمهور، فقيل لها أن الزعيم سـعد زغلـول وافتـه

المنية في تلك الليلة، فإمتنعت منذ تلك الليلة عن الغناء لفتـرة من الوقت حدادا على زعيم الأمة، وعندما عادت مرة أخرى كانت عودتها بقصيدة " إن يغب عن مصر سعد " التي نظمها أحمد رامي ولحنها محمد القصبجي من مقام النهاوند ويقـول مطلعها :

إن يغب عن مصر سعد
فهو بالذكرى مقيم
ينصب الماء ويبقى
بعده النبت الكريم
خلدوه في الأماني
وأذكروه في الولاء
أندبوه في الأغاني
أعذب الشكوى البكاء

وبيع من الأسطوانة التي حملت هذه القصـيدة عـدد جعلها تحتل المركز الثاني في توزيع اسطواناتها فـي ذلـك العهد، وبعد أسطوانه أغنية " إن كنت أسامح وأنسى الأسية "، واظبت أم كلثوم بعد ذلك ولمدة طويلة على أن تفتح غناها في كل حفلة بهذه القصيدة. وهو ما يعد امتزاجا حقيقيا مع الحالة

الوطنية التي كانت تجيش في نفـوس وقلـوب المصـريين، وعلى كل الأحوال لم تقترن هذه المرحلة في حياة أم كلثـوم بمقاربة الحاكم فالملك فؤاد لم يكن يتحدث العربية ولم تكن أم كلثوم ضمن جوقة مطربين يسمع إليهم بصـفة خاصـة بـل كانت واحدة ضمن عشرات الفنانين الذين يحتشدون أحيانا في ركابه في بعض عواصم المحافظات لتقديم الحفلات الغنائيـة كما حدث في مدينة المنيا عام ١٩٣٠ ولا يوجد ما يشير إلى أنه كان " سميعا " عاشقا للغناء، أو له مطرب مفضلا، وذلك على العكس تماما من والده الخديوي إسماعيل الذي عـرف عنه عشقه للفن ولصوت عبده الحـامولي والمـظ، وكانـت رعايته الخاصة للحمولي.

هكذا بدأت أم كلثوم..وظلت تفتخر بتاريخها الطـالع من المعاناة التى أعطتها فهماً خالصاً للحياة والوطن والدور، وكلما رأت الفرصة مواتية للتعبير عـن انحيازهـا تفعـل.. وتبحث في الكلمات عما يطابق الزمن.. وبالتالي يمكن القول أن بحثها عن أبطال مثل الـذين عاشـوا حصـار الفالوجـا وتحدثت عنهم كما جاء سابقا.. كان طبيعيـاً وتلقائيـاً قـدر تلقائيتها الشخصية كما هو واضح في حديثها عن ذكرياتها.

# الحب.. الهجر.. الملك

تحكي أم كلثوم في مقالها النادر بمجلة الهلال أكتوبر عام ١٩٧١ في الذكرى الأولى لرحيل جمال عبـد الناصـر قصة لقائها الثانى به وقصة علمها بوقوع ثـورة ٢٣ يوليـو ١٩٥٢...تقول:

كان المؤذن قد انتهى لتوه مـن آذان الفجـر، حـين اتصل بى ابن أختي، وكان يؤمئذ ضابطا بسـلاح الإشـارة، وقال لى أبشري.. لقد حقق الله سبحانه وتعالى الأمل الكبيـر الذى طالما كنت تحلمين به.. لقد قامـت الثـورة.. اسـمعي الإذاعة.

كنت يومئذ اصطاف بالاسـكندرية، وهرعـت إلـى الراديو، وسمعت "أنور السادات" بصوته القوي المؤمن، يبشر الناس بقيام الثورة، ويتلو البيان الأول الذى خرجـت مصـر على صيحته تتنسم أنفاس الحرية.. كان شيئاً كالأحلام، بـل أجمل من الأحلام، نهضت على الفور، وأعددت عدتى للسفر إلى القاهرة، اتجهت إلى مطار الاسكندرية، وهنـاك وجـدت بعض أعضاء الـوزارة القائمـة "يومئـذ"، وزراة "نجيـب الهلالى".. يتأهبون لركوب الطائرة لتذهب بهم إلى القاهرة..

وسألني أحد الوزراء: لماذا أنت ذاهبة إلى القاهرة؟!، قلت له بمنتهى الصرامة: قل لى أنت. لماذا أنتم ذاهبون إلى القاهرة؟ قلت له هذا، لأننى كنت واثقة أنهم ذاهبون يحاولون الوقـوف في وجه القدر. ولكن يد الله كانت فوق ايديهم، وبقيت الثورة، واستقرت في أعماق التاريخ، أما هم، فقد ذهبوا مع الـريح، ونزلت من الطائرة، فذهبت إلى إدارة الجيش بكوبرى القبـة رأساً، لأهنئ الأبطال الثائرين على الظلم والبغى والطاغوت، الذين وثبوا ليضعوا نهاية تاريخية لعهـد الظـلام، وكنـت أتصور، وأنا أتسرب إلى مبنى إدارة الجيش أننى لن أعـرف منهم أحدا.. ولكننى عندما قلبت عيني فـي وجـوه هـؤلاء الأبطال، لم ألبث ان تبين أنني أعرف من بينهم تلك الوجـوه الحبيبة المؤمنة.. وجوه أبطال الفالوجا الذين احتفيت بهم في بيتي منذ أربع سنوات، وفي طليعتم وجه "جمال عبد الناصر" وتصافحنا للمرة الثانية، وقد ازداد في عينيه هذه المرة بريق الإصرار على النصر، وعدت إلى بيتي في القاهرة، واتصل بي الأستاذ الشاعر أحمد رامي، وسألته أن يعجل بنظم تحيـة أقدمها للثورة لنظم لى الأغنية التى مطلعها:

"مصر التى في خاطري وفي فمي

أحبها من كل روحي ودمي
بنى الحمى والوطن
من منكمو يحبها مثلى أنا"

ذكرت أم كلثوم هذه الحقائق بعد قيام الثورة، وأعادت ذكرها بعد عام من رحيل عبد الناصر، غير أنها لـم تـذكر جوانب القلق التى أعترتها منذ أن سمعت خبر الثـورة فـي الراديو وهى في الاسكندرية..كان قلقها ممزوجـاً بـالخوف على ما حدث.. الخوف من أن يظهر كما قالت: "من يحاولون الوقوف في وجه القدر".. وتكشف قصة لسعد الدين وهبة كان هو طرفها شخصياً هذا القلق الممزوج بالخوف.

يقول سعد: كنت أعمل ضابطاً بمرور الإسكندرية في يوليو ١٩٥٢، وفي الوقت نفسه كنت أدرس في كلية الآداب، وسمعت البيان الأول للثورة بصوت أنور السادات من راديو سيارة في مدخل الطريق الزراعى بين القاهرة والإسـكندرية عند نقطة "حجر النوبتجية" وكنت قد تلقيت في منتصف الليل إشارة بأن حالة الطوارئ ستعلن في الإسـكندرية السادسـة صباحاً، وعلى كضابط مرور أن أن أوفر عدداً من سـيارات اللورى تحمل عساكر بلوكات النظام - الأمن المركزى حاليا

ـ استجابة لحالة الطوارئ وكان من الصعب أن نجد سـيارة لوري في منتصف الليل؟ ذهبت بالموتوسـيكل إلـى هـاتف المحافظة وسألت عامل الهاتف أن يفهم أكثر من ذلك، هداني تفكيري أن أذهب إلى مدخل طريق القاهرة لأسأل القـادمين من القاهرة عما يجري هناك، وسمعت البيـان الأول لثـورة يوليو، أو الحركة المباركة، كما كنا نسـميها فـي أشـهرها الأولى.

يواصل سعد الدين وهبـة سـرد حكايتـه: "بـدلتي الرسمية، والموتوسيكل الحكومي الذى أركبه ساعدانى علـى التردد على مواطن الأخبار، فذهبت إلى (بـوليكلي)، وإلـى رأس التين ـ المقر الصيفي لمجلس الوزراء في الإسكندرية وقصر الملك ـ وإلى المنتزه ـ قصر الملك أيضا ـ وفـي يوم ٢٦ (يوليو) ذهبت في ركب سليمان حافظ (وكيل مجلس الدولة) من بوليلكي إلى قصر التين، وكان يحمل فـي يـده وثيقة تنازل فاروق عن عرش مصر.. بقيت طبعاً في حديقة القصر، ثم عدت أتقدم سيارة سليمان حافظ، بعدما وقع فاروق على التنازل.. كان ذلك قبل الظهر، وكان محدداً لمغادرتـه الإسكندرية السادسة مساء، ولم يكن هناك بين جماهير مصر

من يعلم ذلك إلا المسئولون طبعاً.. ومـن فرحتـي أردت أن أذيع النبأ، فذهبت إلى كلية الآداب جامعة الإسكندرية حيـث كانت لجان تصحيح أوراق الإمتحان مجتمعة، وكنت منقـولاً من السنة الأولى إلى السنة الثانية والنتيجة لم تظهـر بعـد، وأبلغت من وجدته من الأساتذة: د.إبراهيم شريف.. ود. ثابت الفندى وغيرهما، ثم غادرت كلية الآداب إلى نـادى ضـباط الجيش بالسلسلة، والقريب من كلية الآداب بالشـاطبى (إدارة جامعة الإسكندرية الآن) وهناك وجدت بعض ضـباط القلـم السياسى أمام النادى، ومن بينهم اليوزباشى سيد فهمى (وزير الداخلية في السبعينات وحتى مظاهرات يناير ١٩٧٧) فوقفت معه نتناول بالحديث الأحداث الجارية، وفجأة وجدنا سـيارة سوداء تقف بالقرب منا، وصوت سيدة تنادى منها:

يا حضرة الضابط.. يا حضرة الضابط..

وأشار لي سيد فهمي:

روح شوف الست دى عاوزه إيه..

ذهبت إليها.. وعندما اقتربت من السيارة، بـادرتني بالسؤال:

هو خرج ولا لسه؟

سألتها:...من؟

أجابت: الملك.

قلت: لسه.. إنما هيخرج الساعة ستة..

فرفعت يدها إلى السماء، وقالت بصوت مرتفع:

ربنا يحميهم ويوفقهم.

ولم يكن الصوت غريبـاً... وعنـدما صـاح بهـذا الارتفاع، وتأملت محدثتي، عرفتهـا... كانـت أم كلثـوم.. شكرتني وانصرفت.

على الرغم من قلق أم كلثوم على الحركة الوليدة كما سميت آنذاك. وهو القلق الذى صب في خانة فرحتها وتأييدها لها، الأمر الذى جعلها تأتى من الأسكندرية رأسا إلـى مقـر الضباط للتهنئة.. على الرغم من هذا إلا أن شيئا ما حدث كاد أن يعصف بفرحتها بالحدث الكبير، وكان من الإذاعة..

اعتمدت الإذاعة المصرية في الأسبوعين الأولين من عمر الثورة على تقديم رصيدها من الأغنيات الوطنية القديمة التي سجلها كبار المطربين والمطربات ومن تلك الأغنيـات "مصر تتحدث عن نفسها"، والتي تغنت بهـا أم كلثـوم لأول مرة عام ١٩٥١ وقصيدة "فلسطين" و"نشيد الجهـاد" وأغنيـة

"أحب عيشة الحرية" وتغنى بها محمد عبد الوهاب قبل عـام ١٩٥٢، وأما الأغنية الوطنية التي سجلت بعد نجاح الثـورة فهي قصيدة "صحوة مصر" نظم الشاعر على الجارم، وتلحين محمد القصبجي وغناء المطربة شهر زاد، وكانت في بدايتها الغنائية وقدمت شهر زاد أيضا أغنية "الله أكبر" كلمات محمد على أحمد ولحن حسين جنيد وقدمتها في ١٤ أغسطس. وقدم محمد قنديل أغنية "الراية المصرية" تأليف محمـد إسـماعيل جاد في ٢٦ أغسطس وكان مطلعها:

هلا لك في الوجود زينة
يا أغلى من ضي عينيا
يا راية مصر يا غالية
تعيش وتسلمي لينا

وقدم قنديل في شهر سـبتمبر أغنيتـه الشـهيرة "ع الدوار"

أما أم كلثوم فقدمت وكما ذكرنا على لسانها من قبـل أغنية "مصر التي في خاطري".

وعلى الرغم من هذا الزخم الغنائي الذي تسابق إليـه الجميع إلا أنه وبعد أن قررت الثورة تعيين رقيبـا للإذاعـة

اختفى صوت أم كلثوم من الإذاعة، وكأن بلدوزر داس علـى تسجيلاتها الغنائية، واختفى صوتها بقرار تصور من إتخـذه أنه يملك إحالة فنان بقامة أم كلثوم إلى المعـاش، أو حـبس صوته الغنائي في صندوق مغلق لا يمكن فتحه!

يقول المهندس محمد الدسوقي ابن شقيقة ام كلثـوم: "كنت أعمل في ذلك الوقت مهندسا في الإذاعة.. ولاحظـت بعد قيام الثورة أن الإذاعة لم تعد تذيع أغانى أم كلثوم.. وكان السبب في ذلك وجيه أباظة (أحد الضباط الاحرار) وأوكلـت إليه الثورة في البداية مهمة تسمى "أركان حـرب الإذاعـة" وشعرت أم كلثوم بأن هناك "حاجة".. وكـان أخـى الأكبـر دسوقى ضابطا في الجيش. ودفعة المشير عبد الحكيم عامر، فذهب لمقابلته، وقدمه عبد الحكيم عامر لجمال عبد الناصر، وأخبره أخي بأن الإذاعة منعت أغاني أم كلثوم".

ولما علم عبد الناصر أن حجة منع أغانيها هى أنهـا حسب رأي أركان حرب الإذاعة من العهد البائد، كان تعليقه الشهير: "إذا كنا نستطيع هدم الأهرام وأبو الهول لأنهما مـن العهد البائد.. يبقى نهدم أم كلثوم ".. وعلى الفور تم تصحيح الوضع وعادت أغانى أم كلثوم".

لم يقف تصرف عبد الناصر عند حد تصحيح الوضع واعتبار أم كلثوم صرحا لا يمكن هدمه كالأهرامـات وأبـو الهول

يقول محمد الدسوقى: بعد أيام فوجئت بأم كلثوم تقـل لى: عبد الناصر سوف يتعشى عندنا.. ما تروحش!

قلت لها: أهلاً وسهلاً..

وحضر فعلاً جمال عبد الناصـر، وتعشـى مـع أم كلثوم، وكنت معهما، وعرفنا منه أنه معجب للغاية بصوت أم كلثوم، ولا يعمل إلا على صوتها.. وبعـد العشـاء حضـر صلاح سالم ثم حضر جمال سالم، وبمجرد أن دخل ووجـدنا في الصالون.. قال: أنتم قاعدين كده من غير حراسة.. فردت أم كلثوم: الحارس ربنا.

كان قرار أركان حرب الإذاعة بمنع أغاني أم كلثوم من الإذاعة هو جزء من المشهد، الذي بدأت ملامحـه فـي التكوين عبر تفاصيل سابقة أخرى تؤكـد فـي مجملهـا أن عسكرة الفن كعسكرة المشاعر كلاهما يؤدي إلـى الجمـود، وأنه حين تضع المسئولية في أيد من لا يفهمها علـى الـدنيا السلام ويروي الإعلامي الشهير أول رئيس لإذاعة صـوت

العرب أحمد سعيد جانبا من هذه التفاصيل التي لا تخلو من الطرافة، يقول أحمد سعيد:

"في ٣١ مارس ١٩٥٣ توجه إلى مبنى الإذاعة ضابط المخابرات فتحي الديب المسؤول عن دائرة الشئون العربية في جهاز المخابرات المصرية لمقابلتي وإبلاغي بقرار إنشاء برنامج صوت العرب وترشيحي للعمل فيه".

صعد الديب في مبنى الإذاعة إلى حيث يوجد أحمد سعيد، وتصادف أنه كان موجودا مع جلال معوض، ونادية وفيق وهمت مصطفى.. كان الثلاثة يتبادلون القفشات حول آخر ما فعله الرقيب، وإستمع الديب إلى ما يذكرونه بشغف بالغ ينقله أحمد سعيد من أوراقه الخاصة التي دون فيها ما حدث حرفيا:

- فتحي الديب: أحكي لي يا أستاذة نادية
- نادية توفيق: إمبارح كانت على برنامج السهرة قصيدة "ولد الهدى" لأم كلثوم.. وتنفيذا لتعليمات السيد الصاغ الرقيب كان المفروض نبعت له نص أبياتها بالكامل عشان يراجعه ويعتمده أو يعتمد أي أغنية أخرى.
- فتحي الديب: وبعدين :

• نادية توفيق: زميلنا الأستاذ أحمد خميس وهو شاعر أصلا وجد أن أبيات القصيدة معروفة، وأنها في مدح النبـي وتحية مولده، أثاري الصاغ الرقيب بيراجع البرنامج اليومي، واكتشف أنه لم يعرض عليه أبيات القصـيدة وسـأل عـن المسؤل أمس فقالوا له أحمد خميس فكلمه وعنفه، وطلب فورا نص القصيدة، وقرأها مرتين وعلم بقلم في إيده بدايرة وكتب جنبها كلمتين، ووقع عليها، ثم قال "يتوقف إذاعتها، وحطـوا بدلا منها حاجة من اللي أنا سبق واعتمـدتها عشـان نـازل لمجلس الثورة".

• فتحي: أعرف بقي الصاغ عبده عمل ايه في ورقة النص

• أحمد سعيد: قصيدة شوقي فيها بيت الشـعر اللـي بيقول فيه : "لزمت باب أمير الأنبياء".. وحضرته عمل دايره بقلمه الأحمر حول عبارة أمير الأنبياء وكتب جنبها "لا تـذاع ألم تعلموا أن الثورة ألغت الملكية وألقاب الأمراء".

ويذكر أحمد سعيد رد الفعل على فتحي الديب الـذي بدا وجهه مجمدا على مشاعر إنسان منسحق للخطـاب ثـم انفجر في ضحك هستيري وخرج من جيبه منـديلا ليجفـف

دموع الضحك ويضيف سعيد: أعطي أحمد خمـيس الورقـة للشاعر صالح جودت مراقب السهرة في هذه الليلة، واتصـل تليفونيا باللواء الرحماني مدير الإذاعة الـذي وعـد بإلغـاء الأمر، واستدعى الرقيب في جلسة مغلقة لمدة سـاعة خـرج بعدها ليعلن أنه لن يقبل مراجعة حاجة إلا إذا عرضت عليـه قبلها بيوم ما عدا الأخبار، وخرج الرقيب الرائد من الإذاعـة بعد ذلك وتم تعيين عبد المنعم السباعي وهو شاعر وكاتـب أغاني لم تؤسس هذه الإجراءات القاسية علاقة تناقض بين أم كلثوم والعهد الجديد الذي اهتم رمزه الأول عبد الناصر بمـا حدث لها وقرر على الفور معالجته، بل ذهب إليها فيما يشبه الإعتذار لها واعتبرها خالدة خلود الأهرامات وأبو الهـول، وعلى الرغم من كل هذا فإن عبير العهد البائد الذي إسـتخدم ضدها يقذف ببعض اللبس في بحيرة التاريخ ويطرح تساؤلا :

هل كانت أم كلثوم ابنة للعهد البائد بكل عوراته.. أم أنها تعايشت معه دون اندماج؟

هل كانت تستعد لدخول المرحلة السياسـية الجديـدة بمفهوم التعايش مع أى سلطة سياسية شأنها في ذلـك شـأن بعض الفنانين الآخرين؟ أم أنها كانت تنتظر منها شيئاً مختلفاً عما قبل؟

الشاعر الغنائي أحمد شفيق كامـل.. أحـد شـعراء أغنيات أم كلثوم له رؤية خاصة.. يقول:

"لم تكن أم كلثوم ابنة مخلصة للعهد البائد كما جاء في رواية منع أغانيها.. صحيح أنها غنت في مناسبات خاصـة للملك.. وأيضاً فعل عبد الوهاب ( الفن والشباب).. وبحماس الشباب أنا مثلاً لم أكن مستريحاً لما كتبه رامي لأم كلثوم بعد الثورة مباشرة " يا دولة الظلم انمحي وبيدي"..

لكن بشئ من التأمل وشهادة للتاريخ أرى، أنه لابـد من فهم هذه القضية في سياقها الصحيح.. وأعنى بـذلك.. أن أم كلثوم مطربة... والمطرب ملك لمن يطلبه.. كما أن الفـن قبل الثورة.. لم يكن له عقيدة.. بمعنى أنه لم يكن هناك تيـار غنائى سائد يقود الوطن نحو الاستقلال.. حكاية المطرب ملك لمن يطلبه كانت قبل الثورة تحمل معنى واحداً هو "أن الملك موجود وهو الذى يطلب".

رؤية الشاعر أحمد شفيق كامل تجـد صـداها فـي صفحات التاريخ..

جاء في صحيفة الجمهور المصـري فـي فبرايـر ١٩٥٢، نقداً لاذعاً لأم كلثوم بسبب حفلتهـا الشـهرية التـى قدمت فيها أغنية "رق الحبيب" وقصيدة "رباعيات الخيام" بينما كانت تعيش مصر جرح معركة رجال الشرطة في القناة مع كتيبة مدرعة من الجيش البريطاني، واستشهد فيها رجال من الشرطة.

قالت صحيفة الجمهور المصري في مقال قاسي لـم يحمل اسم صاحبه الحقيقي:

"ما كنا ننتظر من مطربـة الشـرق أن تـذيع فـي الظروف الراهنة الفاجعة، غنوتها الغزلية الجديدة الذائبة حنينا وصبابة وشوقاً، ولا قصيدة عمر الخيام السابحة فـي بحـار الخمر والهوى، ولا تلك الأغنية الثالثة "رق الحبيـب" التـى سمعها الناس من قبل مرات.. فكانت هـذه الأغنيـة علـى جمالها، أسوأ ما اقترفته مطربة الشرق من الذنوب في حفلتها الأخيرة، فلم يطرب مصري واحد لهـذه الأغنيـة الهزليـة

المترفة في الليلة التى كانت فيها أرواح الشهداء تصعد إلـى بارئها في ميدان المعركة المحتدمة بمنطقة القناة ".

لم يكن مجرد تقديم هذه الأغاني السبب الوحيد فـي توجيه هذه الإنتقادات الجارحة إلى أم كلثوم.. ويكشف الناقـد والمؤرخ كمال النجمي أنه صاحب هذا المقال وأن الأسـباب الحقيقية التي جعلته قاسيا. إلى حد كبير فيه على أم كلثوم أنها غنت مونولوجها الشهير "رق الحبيب".. بناء على "تليفـون" تلقته في أثناء استراحتها في غرفتها بمسرح الأزبكية، وبعـد أدائها الوصلتين الأولى والثانية، وكان إحـداهما "رباعيـات الخيام"، والثانية أغنية لا أتذكرها.. والقصة بحذافيرها كمـا كان يتداولها الوسط الصحفي حينذاك.. أن الملك فاروق كان قد هجر الملكة ناريمان، أو خاصمها لسبب من الأسباب، ثـم عاد إليها في تلك الليلة بعد الهجر والخصام، فطربت الملكـة لهذا الرضا الملكي السامي، وأحبت أن تستمع من أم كلثـوم في حفلتها لأغنية تكون لسان حالها (أى حال الملكـة) فـي سرورها بوصال فاروق بعد الهجران، فلم تجد ناريمان أبلـغ تعبيراً وتصويراً لحالها من أغنية "رق الحبيـب" مـع أن أم كلثوم كانت قد انقطعت عن تقديم هذه الأغنية في حفلاتها بعد

أن قدمتها مرة بعد مرة فـي سـنوات متواليـة فـي عقـد الأربعينيات، يضيف النجمي علمنا ـ نحن الصـحفيين ـ أن ناريمان اتصلت بأم كلثوم في مسرح الأزبكية، وطلبت هـذه الأغنية، ولم تكن أم كلثوم مستعدة لغنائها بل كانـت نسـيت بعض كلماتها.. فاجتمعت وفرقتها الموسيقية وملحن الأغنيـة وقائد الفرقة محمد القصبجي، وأجرت بروفة اسـتعادت بهـا حفظها للأغنية، ولهذا تأخر رفع الستارة في الوصلة الثالثة.

يضيف النجمي: لم تكن أم كلثوم قد غنت شيئاً مـن تلحين القصبجي في حفلة عامة منذ سنوات حتى طلبت منهـا الملكة ناريمان أغنية "رق الحبيب" وهى من أبـدع ألحانـه، فبكى القصبجي تأثرا من "هذا العطف السامي" على أغنيتـه، واعتبر الإعجاب الملوكى رداً لاعتباره عند أم كلثوم بوجـه خاص، ولم يفت بكاء القصبجي في تلك الليلة صحافة ذلـك العهد، فأومأت إليه بعض الصحف بتلميح يشـبه التصـريح، وقالت: بكى القصبجي تأثراً بما حظـى بـه مـن "العطـف السامي".. وعرف أذكياء القراء أن ذلك معناه، أن أم كلثـوم إنما قدمت تلك الأغنية بطلب من القصر الملكي العامر!

لم تكن هذه الحكاية هي الوحيدة في فصل العلاقة بين أم كلثوم والقصر الملكي، وإذا كان عهد الملك فؤاد قد اتسم في هذا الجانب بما يمكن وصفه بأن "كل واحد في حاله".. القصر يحكم كما يريد، وأم كلثوم تغني في سياق مشروعها الغنائي، ولم يكن هناك إنتباه أو فهم لتوظيفها لصالح مشروع سياسي ما.. فإن مع ابنه الملك فاروق كان الأمر مختلفا، والعديد من الشواهد تؤكد أن أم كلثوم غنت له.. ففي مساء الخميس ٢٩ يوليو ١٩٣٧ وبمناسبة رفع الوصاية عنه ومباشرته لسلطاته الدستورية غنت أم كلثوم في العاشرة من ذلك المساء قصيدة من لحن رياض السنباطي وكلمات الشاعر أحمد رامي يقول في مطلعها:

جل من هناك بالملك السعيد / يا مليك النيل في العصر الجديد / نعمة أسبغها الله على / عهدك الزاهي وواديك الرغيد /

وفي مذكراته "فاروق كما عرفته" يقول كريم ثابت المستشار الصحفي للملك فاروق، إن فاروق لم يكن يميل إلى الموسيقى العربية والغناء العربي ولا يعني بسماعهما، ولم يكن يحب سوى بعض "الطقاطيق" العربية، إما على سبيل

التسلية أو لأنها كانت تحتوي على تحية له في الحفلات التي كان يشهدها.. ويروي كريم ثابت عن فاروق: لماذهب مـرة إلى النادي الأهلى، ليسمع أم كلثوم في حفلة من حفلاتها ذهب إليه في الحقيقة لمأرب سياسي، وليس لسماع كبيرة مطربات الشرق، فقد كانت وزارة الوفد التي تألفـت فـي ٤ فبرايـر ١٩٢٤ متربعة يؤمئذ في دست الأحكام، وقـد ذهـب فـي مناوأتها لفاروق إلى منع إذاعة القرآن الكـريم فـي قصـر عابدين في أثناء شهر رمضان.. ففكر أحمد حسنين "باشا" – وكان رئيسا للديوان الملكي إذا ذاك – مع بعض أصدقائه في مناورة يغيظون بها الوزارة، وهي أن يذهب فـاروق إلـى النادي الأهلى، بينما أم كلثوم تغني، والإذاعة "مفتوحة" فيردد الراديو صدى أصوات التصفيق والهتافات وحدث ذلك فعلا.

ويضيف ثابت: في تلك الليلة أنعم فـاروق علـى أم كلثوم بنشان الكمال من الطبقة الثالثة.. وبعد أربع سنوات من ذلك التاريخ وقع نظره في إحدى المجلات على صورة تمثل أم كلثوم جالسة في فندق "سان استفانو" إلى مائدة واحدة مـع السيدة زينب الوكيل، فغضب لمجالسـتها حـرم مصـطفي النحاس "باشا" عدوه السياسي في ذلك الحين.. وجلب بواسطة

بوليسه الخاص الصورة الفوتوغرافيـة الأصـلية للصـورة المنشودة في المجلة، وأرسلها إلى " لأطلع عليها " أم كلثوم " وأعاتبها على ذلك فلم أفعل.. وحاولت أن أقنعه بأن أم كلثوم ليست موظفه في القصر، فتقاطع من يقاطه القصر، فأبى أن يقتنع بهذا الرأي ولم يرض عنها بعد ذلك.

ويزيد كريم ثابت في قوله عن الملك فاروق أنه كان يعتقد أن صوته جميل، وأن له "سحبة" لا يدركها كثيـرون.. وأنه يحسن الغناء.. ولم يكن صوته جميلا، ولـم يكـن لـه "السحبة" التي أراد أن تكون له، ولم يكن يحسن الغناء، بل لم يكن له أقل إلمام بأصول الغناء وقواعده.. ويضيف ثابـت : قال لي مدة بعدما " صاحب أنشودة كانت تذاع بالراديو: "هل تعرف يا كريم أنه لو لم أكن ملكا لأمكن أن أكـون مغنيـا " فقلت له على الفور: لأ معلهش يـا مولانـا.. خليـك ملـك أحسن!".

وكان قبل ذلك بمدة قد قال لي: "لو لـم أكـن ملكـا لأستطعت أن أكون ميكانيكيا".

ومن واقع التسجيل الصوتي للحفل الذي يشير إليـه كريم ثابت والذي يحتفظ به المؤرخ الموسيقي د. نبيل حنفـي

محمود، ومن واقع ما ذكرته أم كلثوم لمجلـة الصـباح فـي عددها الصادر يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٤٤، يأتي. نبيل حنفي بالقصة كاملة قائلا: كان هذا الحفل فـي مسـاء الأحـد ٢٤ سبتمبر عام ١٩٤٤ وكانت مناسـبته حلـول عيـد الفطـر المبارك، وكان مكان الحفل حديقة النادي الأهلي فـي حـي الجزيرة بالقاهرة.. وغنت مونولوج رق الحبيب، وقالـت أم كلثوم لمندوب مجلة الصباح عما حدث في تلك الليلة، وعـن إحساسها قبل أن تغني: "لا أكتمك أنني قبل أن أبدأ الغناء في تلك الليلة النادرة الوجود، كنت عادية شأني في ذلك كشـأني في كل حفلة أغني فيها، وكنت قد أعتزمت بمناسبة حلول عيد الفطر أن أغني في الوصلة الثانية، الأغنية المحبوبة للجمهور "يا ليلة العيد أنستينا.. وجددت الأمل فينا" وكان الجو جمـيلا مبهجا للنفس، والجمهور الذي حضـر الحفلـة كـان نخبـة ممتازة.. ثم تصف أم كلثوم ما كان من أمر رئيس الـديوان الملكي أحمد حسنين باشا والذي كان جالسـا بالصـف الأول قبالتها في ذلك الحفل، عندما مال أحدهم ليهمس بحديث فـي أذنه بينما كانت أم كلثوم تسترسل في غناء طقطوقة "يا ليلـة العيد"، وبعد أن نهض رئيس الديوان الملكي، جـاء الاسـتاذ

فكري أباظة ليعلن- كما هو واضح فـي الشـريط المسـجل للحفل – أن جلالة الملك قد شرف الحفل، وتصف أم كلثـوم لمجلة الصباح شعورها إزاء تلك المفاجأة فتقول: "وقبـل أن أتوقف عن الغناء دوي الهتاف من الشباب الممتلـئ بحـب الفاروق حامي وادي النيل، وسرعان ما تملكتنـي فرحـة لا أقوى على تصويرها، ورهبة لم أشعر بهـا طيلـة حيـاتي الغنائية، ونظرت بعيني وأنا في هذا الموقـف لهـذا الحـب العميق الذي تصوره قلوب تكاد تجن بحب الفاروق، وتجلـت أمام ناظري الذات الملكية في مشـيتها نحـو الصـف الأول ترعاها العناية الصمدانية، ووقفت أمام الميكروفون، وأمـام المليك، وهنا وهبتني العناية الصمدانية من لدنها قوة وشجاعة فواصلت الغناء".. ويوضح د. نبيل: "كان ما غنت أم كلثـوم في تلك الليلة وأبدعت فيه من واقع الشريط المسجل، المقطع الأخير من طقطوقة "يا ليلـة العيـد"، والـذي تتـرنم فيـه بالشطرات التالية :

يا نيلنا ميتك سكر / وزرعك في الغيطان نور

يعيش فاروق ويتهنى / ونحيي له ليالي العيد

وإزاء الإعجاب الشيد من جمهور الحفـل وتصـفيقه المتواصل أعادت أم كلثوم ذلك المقطـع، وكررتـه مـرات عديدة، وعندما اختمت تلك الوصلة، فإنها كانت من الـذكاء بمكان عندما اختتمتها بمقطع أغنية "حبيبي يسعد أوقاته"، وهو المقطع الذي تتغنى فيه قائلة: "والليلة عيد / ع الدنيا سـعيد، وعز وتمجيد لك يا مليكي".

وعما حدث بعد الحفل تستكمل أم كلثوم حديثها لمجلة الصباح، قائلة: "ثم نزلت الستار، ونظرت من طياتهـا إلـى جلالة الملك، فوجدت جلالته في مكانه، وجاءني من يبشرني بالمثول بين يدي جلالته، وخطت قدماي نحو المكان السـامي الذي تجلت فيه الديمقراطية بأسمى معانيهـا، ولثمـت اليـد الكريمة، لحظات مرت سراعا كانت هي السعادة كلهـا، بـل تقدير علوي سينير الطريق إلى آخر نسمة في الحياة.

وتقول مجلة الصباح في وصف ما حـدث بعـد أن صافحت أم كلثوم يد الملك وقبلتها: "أنبأنا الاستاذ مصـطفي أمين بك (الكاتب الصحفي الراحل) فـي المـذياع، تعطـف جلالته السامي بمنح الآنسة أم كلثوم إبراهيم نيشان (الكمـال) ويعمل شريط الحفل المسجل صوت مصطفي أمين يزف ذلك

ويحمل كلمة إرتجلتها أم كلثوم من وحي الموقـف، وقالـت فيها: سيداتي سادتي.. تعطف صاحب الجلالة مولاي الملـك المحبوب بتشريفه هذه الحفلة فوق ما تستطيع أن تعبر عنـه نفس، فإني لا أجد من الكلمات ما أعبر عن شـعوري إزاءه، وإني أضرع إلى الله أن يمد في عمر الفاروق، ويحفظه للبلاد ذخرا وللفن نصيرا ( • ).

هل يؤكد ما سبق مقولة الشاعر أحمد شفيق كامـل: "المطرب ملك لمن يطلبه، والملك هو الـذي كـان يطلـب".. وبالتالي قدمت أم كلثوم بعضا من فنها بأوامر ملكية؟. أم أنها كانت تقدم ما تقدمه وتنتظر الرضا الملكـي أولا وأخيـرا؟. والاحتكام في هذا إلى ما حدث في حفـل النـادي الأهلـى بحضور الملك، وما قالته أم كلثوم عنه يعطي التباسـا أكثـر مما يعطي إجابة شافية، فأم كلثوم لم تكـن مقاومـة لسـلطة سياسية وإنما فنانة لها مشروع غنائي تجاوب معـه الشـعب بكل طبقاته، وإذا كانت هي نظرت إلى الملك فاروق بوصفه حاكما له الطاعة حتى يسير مشروعها كما تحب، فإن الملـك وجد في حفلتها الغنائية الوسيلة المثلى لمخاطبة الشعب وكسر

---

• - جريدة القاهرة – العدد ٢٥٣ – ١٥ فبراير ٢٠٠٥ مقال "أسطورة حفلات الست" د. نبيل حنفي محمود.

طوق الحصار المفروض عليه من حكومة الوفد، ولما وجدها تجلس مع زينب الوكيل زوجة مصطفي النحاس غضب عليها ولم يرض عنها، ويعود هذا التفسير الى القول بأن الملك هو الذي كان في احتياج اليها ويقول سعد الدين وهبة:

"هناك من الحكايات العديدة التى روتها لى أم كلثـوم ما يؤكد أنها لم تكن من الأصـل إحـدى المفضـلات لـدى الملك.. وكانت هى تحاول قدر ما تستطيع صـنع المواقـف التى تؤكد استقلالية شخصيتها.. كان الملك ذات مرة موجودا في الحلمية بالاس (أحد النوادى الليلـة فـي الأربعينيـات) وتصادف وجودها، وطلبها على مائدته، لكنهـا رفضـت.. وحين شعر أنه فقد بعضاً من شعبيته، منحها نيشان الكمـال حتى يكسب رضا الناس، وهذا النوع مـن النياشـين كـان مخصصاً للأميرات ولزوجات رؤسـاء الحكومـة، ولأن أم كلثوم فلاحة ثارت أرستقراطيات المجتمع، وقـررن إعـادة الأوسمة التى حصلن عليها احتجاجاً على ما فعله الملك، لولا أن السيدة صفية زغلول أرملة الزعيم سعد زغلول سـاندتها وهنأتها، وكانت هى الأخرى حاصلة على وسام معها.

يضيف سعد: شوف.. لا يمكن التقاط واقعة من هنا، وأخرى من هناك للتدليل على شئ غير حقيقي. لـم تكـن أم كلثوم مغنية قصر.. أو مغنية باشاوات.. هى ظلت حتى آخر يوم في حياتها تذكر بكل فخر وحنـين أنهـا بنـت طمـاي الزهايرة.. فلاحة.. من أصول فقيرة، لا تنتمي إلى الملـوك في شئ كما أنها وهى صغيرة كانت متمردة وعنيدة جـداً.. حكت لي وأنا أعد فيلماً سنيمائياً عنها لم ير النور، أنها كانت تغنى في الأزبكية وهى صغيرة، وهتـف الجمهـور: "يحيـا سعد.. يحيا سعد"، وطالبها بأن تغني لسعد، فرفضت، وصعد أبوها إلى المسرح وضربها بالقلم، حتى تلبي رغبة الجمهور لكنها رفضت وبكت، ودخلت خلف الكواليس، ولما سئلت بعد ذلك، أجابت: أنا أحب سعد، لكن ما أغنيش بـالأمر.. هـى حكت لى (الكلام لسعد): إن الجمهور كاد يتهجم عليهـا، وأن صفعة أبيها كانت لتهدئة الناس، ورغم ذلك صـممت علـى موقفها.. "كرامة يعنى زيادة عن اللزوم".. أما حكاية أغانيها للملك.. فهى حاجات "هايفة".. لا تذكر.

ويعطي المؤرخ كمال النجمي صورة مكملة لما ذكره سعد الدين وهبة وذلك من باب الحس الوطني الذي تمتعت به قائلا:

"غنت أم كلثوم قصيدة "سلو قلبي" لأحمد شوقي في الاربعينات (القرن الماضي) وقال فيها:

وعلمنا بناء المجد حتى أخذنا إمرة الأرض اغتصابا

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

حين غنت أم كلثوم هذه الأبيات.. كانت الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها، ونهض الشعب المصري يعرض على المحتلين مطالبه الوطنية في جلاء قواتهم على أرضه، وإستكمال استقلاله، وكانت كلمة "المطالب" تعني المطالب الوطنية، ولهذا كان البيت الذي يذكر فيه شوقي، وما نيل المطالب بالتمني يثير حماسة مستمعي أم كلثم، فيعلو هتافهم وتصفيقهم في كل مرة يستمعون فيها إلى هذا البيت الذي لحنه السنباطي تلحينا حماسيا رائعا، وهكذا اختلطت الحماسة الوطنية بالأشواق الدينية في هذه القصيدة التي كانت باكورة الحقيقة لشعر شوقي على حنجرة أم كلثوم، وتحولت أم كلثوم إلى داعية من دعاة الجلاء بسبب هذه القصيدة التي

ألهبت حماسة الجماهير حتى قال محمد عبد الوهـاب تعليقـا عليها آنذاك: "يصفق الجمهور"، ويهتف لأم كلثـوم، كأنهـا زعيمة وطنية لا مطربة".

يضيف النجمي:

"عقب الحرب العالمية الثانية انشغل الرأى العام فـي مصر بقضية الوحدة بين مصر والسودان.. وفي عام ١٩٤٦ اختارت أم كلثوم من ديوان شوقى قصيدة كان قد نظمها فـي العشرينات، عندما أطلق الشبان الرصاص على سعد زغلول لاعتزامه السفر إلى لندن، مـن أجـل مفاوضـة الحكومـة البريطانية حول قضية الجلاء، واسـتقلال السـودان، وتبـدأ القصيدة بفرح لنجاة الزعيم والتهليـل لشـفائه مـن جرحـه البسيط:.

نجا وتماثل رباتها

ودق البشائر ركبانها

تحول عنها الأذى وانثنى

عباب الخطوب وطوفانها

ثم يمضى في أبياته البليغة:

وفي الأرض شر مقاديره

لطيف السماء ورحمانها

بدأت أم كلثوم غناءها بهذا البيت، ثـم ألحقـت بـه الأبيات التى قالها شوقى عن السودان، وكان سـعد زغلـول يعتزم أن يجعله في جدول المفاوضات، ويرى كمال النجمـي في ذلك، أن أم كلثوم كانت تبحث عن كلمات أغانيهـا عمـا يطابق الزمن، وفهم طبيعة المراحل الاجتماعية والسياسـية، وإذا كان مزاج السميعة قد تبدل أثناء الحرب العالمية الثانية، كما سبقت الإشارة، فإن أم كلثوم فهمت هذا التحول بطريقتها، ومزجته بما يثير الحماسة.

يتداخل الشخصي بالعام لـدى أم كلثـوم فـي هـذه المرحلة.. فإذا كانت قد حصلت على نيشان الكمال، فإن هذا يدخل في نطاق التقدير العام لما قدمته من فن.. غير أن سلب ما هو طبيعى لدى الإنسان لا بد أن يشعر معه بالقهر مهمـا كان التقدير العام من حوله.. عاشت أم كلثوم الحالتين.. حالة التقدير العام لفنها.. وحالة القهر الشخصي لمشاعرها، والذي تجلى في رفض الملك زواجها مـن خالـه شـريف باشـا

صبرى.. وأيضاً زواجها من الموسـيقار محمـود الشـريف وهناك تفسيرات كثيرة لقصتها مع شريف باشا صبري، منها ما قيل أنها كانت انتصارا للبنـت الفلاحـة البسـيطة التـي استطاعت بجاذبيتها الجديدة أن تكسر الحواجز وتفرض على الأسرة المالكة سطوة من نوع آخر، نوع منحها الله لها وهي الفقيرة وجعلها الأبقى في الوجدان والتاريخ رغـم قـرارات الملك بتأميم مشاعرها.. وتحمل قصتها مع الموسيقار محمود الشريف والتي رواها حرفيا في مذاكراته الشخصـية دلالات عميقة تكشف إلى أى مدى كانت أم كلثوم تنظر إلى القصـر والملك بعدم الارتياح.

يصف الشريف قصتهما معا بوصف رومانسى حالم:

"لم نترك مكانا في ضواحى القاهرة إلا وفيه بصمات سهراتنا وخلواتنا.. عشنا اياما كالحلم.. كانت تبدو وكأنها فتاة في سن العشرين.. تحرك في داخلها الحب.. معه كل إنسانيتها وتغير كل شئ.. الحياة.. الألوان.. تغيرت حتى ألـوان ملابسـها.. حتى نقابة الموسيقين لم تسلم من هذا التغيير فقد خلع مبناهـا زيه القديم ولبس ثوبا من طلاء جديد..كنا كعصفورين نحلـق في سماء ربيع دائم تملؤه الخضرة والحب.. وكـان شـعارنا

كما عبرت عنه أم كلثوم "أنا وأنت والحـب وبـس".. وفـي موضع آخر يقول: "في جلسة من جلسات الصباح الخالـدة، وعلى إحدى روابينا الخضر كانت تطعمني.. وبدأ اهتمامهـا بي في شكل غير عادي.. قالت لى بالحرف الواحـد: "هـل تسمح لى أن أتولى الإشراف على حياتك وشئونك. فأنا أراك تنتحر".. لم يكن يمر يوم دون أن نلتقي... اعتـادت قـدماي على فيلا أم كلثوم، أحياناً أكون ضيفاً على الغداء، أو ضيف سهرتها الوحيد.. كل منا يفرغ ما في جعبتـه مـن أسـرار، ويتسابق كل منا في أن يفتح قلبه للآخر، حتى أننا كنا نتشاجر كالأطفال حول من يحكي قصته قبل الآخر". "كنت أختار لها فستان السهرة والبروش والإيشارب.. وكان كلما اقترب ميعاد حفلتها الساهرة الشهرية تزداد قلقاً وخوفاً وتـردداً.. كانـت تفكر في قرار الاعتزال بجدية". ويشير الشريف الـى بدايـة تعارفهما من خلال مجلس نقابة الموسيقيين وعبر الإذاعـي محمد فتحي، ويشير الى أنها أعطته كلمات أغنية "لسه فاكر" وأعد لحنها بالفعل، واستمعت اليه دون تعليق وهو ما يعنـي عدم تحمسها له، ثم أسندته فيما بعد لرياض السنباطي.

يضيف الشريف: بعد عام ونصـف بـين رعشـات الأيدي واضطراب الشفاه، ولم يكن أحد خلالها يعرف حقيقة العلاقة.

ماذا بعد كل هذا الحب؟ سألتها وهى في قمة السعادة: إيه رأيك؟

- لم أكمل ما أريد قوله.. قالت: موافقة.

- قلت لها: موافقة على إيه؟

- ردت ببديهة حاضرة: موافقة على اللي انت بتفكر فيه.

- وإيه اللي أنا بافكر فيه؟.. ضحكنا. ثـم بادرتهـا قائلاً: وفاطمة (زوجة الشريف وكانت مريضة)

- مالها فاطمة؟

لا أستطيع التخلي عنهـا.. وأنـت تعـرفين محنـة مرضها.. وليس لها في العالم سواي.

قالت: بالعكس.. إبقاؤك على فاطمة شئ يرفع مكانتك في نظرى.. ويزيد إطمئنانى إليك؟ أنا عارفة الموقف كويس.

وبعد لحظة صمت أردفت قائلة: لعلمك، ولـو أنـى كنت عايزة أعملها لك مفاجأة.. أنا منذ أيام اتصلت بصـاحب

العمارة المجاورة للفيلا، وحدثته بخصوص شقة في العمـارة تنقل فيها الأسرة علشان يبقوا كلهم جنبنا، وعشان تبقى جنبي، وجنبهم طول الوقت.

قلت: إذن متى؟

قالت: سأرسل إلى أخي خالد، واسـتدركت الموقـف بقولها:

- ليس بقصد المشورة.. ولكن من باب المجاملـة.. حتى أشعره باهتمامي به وبأنه في الصورة.

يضيف الشريف: تمت الخطوبة في ليلة رأس السـنة الهجرية ووضعت دبلة الخطوبة في يدها، نقشت على دبلتـي "لا إله إلا الله" وعلى دبلتها "محمد رسول الله". ورنـت أول زغرودة في فيللا أم كلثوم، وحضر الخطبة الإذاعي محمـد محمود شعبان (بابا شارو)، ومن الموسيقيين محمـد عبـده صالح عازف القانون في فرقتهـا، وأميـر الكمـان أحمـد الحفناوي، وصديقي الموسيقي عبد الرءوف عيسى، ومنشـد الكورال محمد نبيه.. وكانت هديتي لها خاتما ماسيا مطعمـاً بالبلاتين كان في إصبعي، كانت قد أعجبت به، فأهديته إليـه على الرغم من أنه خاتم رجالي، أما هديتها لي فكانت سـاعة

والدها الذهبية القديمة وهى ساعة سويسرية لها غطـاء مـن الجلد.

رغم تكتم الخبر إلا أنه تسرب إلى صـحيفة "أخبـار اليوم"، ورن جرس الهاتف فـي الفـيللا، وكـان المتحـدث مصطفى أمين.

ـ مبروك.

ـ شكراً.

ـ الخبر صحيح إذن.

ـ نعم.

ـ متى يتم الزواج؟

ـ قريباً.

ـ وهل تعتزلين الغناء؟

ـ الأمر له وما يريد.

في صباح اليوم التالي كتبت أخبار اليوم القصة تحت عنوان "زواج أم كلثوم" بقلم الصحفي مصطفي أمين.

يشير الشريف في مذكراته وفي أكثر من موضع إلى أن عمق العلاقة بينه وبين أم كلثوم وصل إلى درجة مبادرتها أكثر من مرة لزيارة شقته في حي السيدة زينـب، وتعارفهـا

عن قرب على أمه وشقيقته وزوجته فاطمة التى تعانى مرض القلب وحار الأطباء في تشخيص علاجها، وتعمقت العلاقـة مع الأسرة إلى حد أن أم كلثوم كانت تفضل وجبات الطعـام من أخيه حسن والذى اشتهر بها، ويشير أيضاً إلى أنها فـي إحدى زياراتها لمنزله، ولم يكن هو موجوداً في المنزل حيث كان يقوم بتسجيل أغنية في الإذاعة، وفوجئ بعد عودتـه أن سيارة أم كلثوم موجودة أمام منزله، والناس تلتـف حولهـا، ولما صعد مسكنه وجدها بالإضافة إلى عـدد مـن الأطبـاء الآخرين منهم الدكتور حسن الحفناوى صديق عائلتـه وزوج أم كلثوم فيما بعد، جاءوا جميعاً لإجراء الكشف على زوجتـه فاطمة، وكان الشريف السبب في تعريف الحفناوي علـى أم كلثوم.. كما يشير إلى أنه ومع تفاقم حالة زوجته المرضـية، وتأثير ذلك سلبياً عليه، نصحه عبد الوهاب بأن يبحث الأمـر ويضع حداً لذلك، في إشارة من عبد الوهاب بأن الشرع يجيز له وضع حد لحياته مع زوجته ما دامت هى مريضة، وهـو بهذا القدر من السوء.. ورفض الشريف هذا.. وأثـار هـذا اعجاب أم كلثوم وعقبت عليه قائلة: "أنت بتكبر في نظـري أكثر بسبب تمسكك بفاطمة".

الرومانسية الحالمة التي يحكي بها الشريف وكلمـات الغرام التي ينقلها عنها تطرح تساؤلا لماذا الشريف بالـذات هو الذى استطاع أن يخطف قلبها؟.. هل جاء رد فعل منهـا على رفض الملك زواجها من خاله شريف باشـا صـبري، بمعنى أنها بحثت عن البديل من طبقتها التى خرجت منهـا.. أم أن الشريف كانت في شخصيته سمات أثرت فيها على هذا النحو؟... يقول الفنان كمال الطويل: محمود شريف حقيقة في حياة أم كلثوم لا يستطيع أحد إنكارها، وإن تأثيره عليها كـان قوياً بالغاً، لأنه كان شخصية "خشنة" تختلف عن الشخصيات المحيطة بها.. وكانت هذه النقطة بالتحديد مصدر انجذاب أم كلثوم نحوه.

المهم.. كيف كانت ردود الأفعال على خبر الخطوبة الذى جاء في أخبار اليوم.

ينقل الشريف ردود الفعل على أصعدة مختلفة بـدءا من القصر الملكي مروراً بمحمد القصبجي المولع بحـب أم كلثوم دون استجابة منها، انتهاء بأم كلثوم نفسـها، ويشـير بطريقة عابرة إلى حكاية مجهولة عن مقتل ضابط فـي رأس

البر.. وتثير هذه الحكاية علامات استفهام لا يقـدم الشـريف نفسه إجابة عنها.

عن القصبجي يقول الشريف: " كان يحب أم كلثـوم حباً مكتوماً لم يبح به، وبعد إعلان الخطوبة جاء إلى فيللا أم كلثوم، وكنت أقضى معظم أوقاتى معها، يحمل مسدساً مهدداً بقتلى إن لم أفسخ الخطوبة.. تقدمت أم كلثوم منـه وسـحبت المسدس من يده ثم طردته".. ويقول في موضع آخر.. "كـان أخطر حب لأم كلثوم هو حب القصبجي فقد كانـت تدركـه بنفسها وتتجاهله، ولكنه كان يطاردها في صمت". ويكشـف الشريف: "حكى لى الفنان أحمد الحفناوي أن القصبجي كـان يشكو لي من أنه يتكلف يومياً خمسة جنيهات ثمنـاً لتاكسـي لكى يتتبع باستمرار خط سيرنا أنا وأم كلثـوم " ويضـيف " كانت هى تعرف ذلك، وتقصد عندما تراه يتتبع مسـيرتنا أن تقطع القاهرة بسيارتها طولا وعرضا.. حتى ترهقه.. كانـت تقول لي: خلينا نحرق قلبه ع الفلوس اللى بيـدفعها عشـان يبطل يتجسس على الناس..

أما رد الفعل على صعيد القصر الملكي فيقول عنـه الشريف: في صباح اليوم التالي للخطوبة، وبعد أن نشـرت

الخبر "أخبار اليوم". دق جرس الباب في فيللا أم كلثوم وكان القادم مصطفى أمين، جاء يقول لأم كلثوم، إن الملك فـاروق غير راض عن تلك الخطوبة، أجهشـت أم كلثـوم بالبكـاء، وبادرت مصطفي أمين بقولي: دى خطيبتي أمام الله والرسول والناس، ما له الملك ومالنا؟

رد مصطفى أمين قائلاً:

ـ أحسن لك تنفذ الرغبة الملكية.

ـ قلت بتحد: ما فيش حد يقدر يفـرق بينـى وبـين خطيبتي.

جففت أم كلثوم دموعها، وقالت موجهه كلامها إلي:

ـ أمرنا لله يا محمود.... مافيش نصيب... لازم تنفذ الأمر.

ـ ليه يا ثومة.

ـ أنا خايفة عليك.

ـ من إيه.

ـ أحسن يقتلوك.

ـ يقتلونى إزاى؟

ـ زى ما قتلوا الضابط بتاع رأس البر.

سألت مصطفي أمين:

- إيه حكاية الضابط ده؟

رد قائلاً:

- دي حكاية ثانية مش موضوعنا دلوقتي.

كتبت "أخبار اليوم" في اليـوم التـالي أن أم كلثـوم فسخت الخطوبة عندما علمت أن محمود الشريف له زوجـة أخرى لم تكن تعلم عنها شيئاً.. يقول الشـريف: "لـم أعلـق بكلمة.. ولم ترد أم كلثوم على الرغم مـن علمهـا بالحقيقـة كاملة، فقد أثرت أن تنحني برأسها إلى أن تمر العاصفة".

بعد فسخ الخطوبة بأشهر أصيبت أم كلثوم بجحـوظ في عينيها نتيجة نشاط متزايد في الغدة الدرقيـة... ويحكـي الشريف نقلا عن صديقتها الأثيرة سميرة أباظة، أن أم كلثوم كانت تتنزه في إحدى الأمسيات علـى شـاطئ النيـل فـي الزمالك، وهمت بأن تقذف بنفسها في النيل، لكـن قريبتهـا وسكرتيرتها الخاصة سنية اسماعيل التـى كانـت برفقتهـا هرولت إليها وعادت بها إلى المنزل.

عاد محمود الشريف إلى محرابه وإلـى ألحانـه.. لا يصرح بشئ إلى الصحفيين: "لم أذكر أم كلثوم التـى كنـت

أحترمها وأقدرها.. لم أذكرها بكلمة سوء، وطويت الحلم الذي كاد أن يجمعنا لنعلن من جديد ميلاد المسرح الغنائي".. كـان الشريف كما يشير في مذكراته قد أقنـع أم كلثـوم بأهميـة استثمار صوتها في التصدي لعمل مسرح غنائى بـدلاً مـن اقتصارها على الأغنية الفردية.. لكن كما ذهب حلمـه فـي الزواج بها.. ذهب حلمهما في المسرح الغنائى.. واسـتخلص هو من قصته معها معاني عديدة.. أبرزها أن مـا حـدث لا يقف عند حدود التجربة الفردية فقط، وإنما يتسع ليشمل أبعاد سياسية.. يقول:

"ظل زواج أم كلثوم حـديث العظمـاء، والأمـراء والقادة.. تركوا خلفهم معاهدة صدقي ـ بيفن، وما جرته من مظاهرات واشتباكات دامية.. لم يلتفتوا إلى الهتافات العدائية ضد الملك والملكية في الإسكندرية يوم رفع العلم على قلعـة كوم الدكة.. تركوا كل هذا وانشغلوا بـأمر زواج أم كلثـوم ومحمود الشريف، وكأن الدنيا انقلبت حين تزوج فنان بفنانة، ولم تنقلب حينما كانوا يساومون من أجل بيع مصـر كلهـا للأجنبي، استقرت كل تلك الأفكار في نفسي، وتأكد لى سخف الأغاني التى كانت تردد اسـم فـاروق الحـب، والإجـلال

والتكريم، بينما الجماهير تهتف بسقوطه في شوارع القـاهرة والإسكندرية، وتكشف لى أن الجماهير كانـت فـي طريـق والقادة والمغنين كانوا في طريق آخر بعيدا عن الناس، وعما يعتمل في نفوسهم، وقبل قيام ثورة يوليو بسـنوات وجـدتني أختار كلمات ذات مغزى خاص لألحنها.. رددتها كل جماهير الشعب من الإسكندرية إلى أسوان، وعشقتها كأنهـا أغنيـة عاطفية، ولكنها لم تكن كذلك، فقد كانت تعبيراً صـادقاً عـن معاناة الشعب وعن مدى صبره على كـل المهـازل التـى ترتكب باسمه.. كنت أرددها بعشق خاص، وحفرت في نفسي مجرى معادياً لكل ما هو ملكى وكل ما يصدر عن القصر:

تقول الأغنية:

يا عطارين دلوني

الصبر فين أراضيه

ولو طلبتوا عيوني

خدوها بس ألاقيـه

سألتهم عنـ ـ ـه

العطارين قالـ ـوا

المر فيه منه

والصبر مش موجود

حا أعيش بأوهامي

طول ما المراد موجود

وأقول لأحلامي

الصبر مش موجود

يرى الشريف في هذه الأغنية تعبيراً صادقاً عن نفاد الصبر والتوق إلى التغيير المنتظر حدوثه.. يقـول: "كانـت التظاهرات التى ملأت الشوارع طوال السنوات السابقة للثورة تنبيء بشيء ما لا بد أن يحدث، وقد حدث بالفعـل فـي ٢٣ يوليو ١٩٥٢".

والمؤكد أن قهر مشاعر الحب حين تمارسه سـلطة سياسية يكتسب طعم العقلم.. خاصة إذا كانت سلطة من النوع الذى كان يساوم من أجل بيع مصر كلها للأجنبـي. وقهـر السلطة لمشاعر أم كلثوم تم في تجربتين هما الأكثر دراما في حياتها الأولى رفض الملك زواجها من خاله حتى لا يخـتلط الدم الملكي بدماء الفلاحين على الرغم من قيمتها التي علـت

وقدرها الذي سكن القلوب.. والثانية، حين ذهبت مشـاعرها إلى واحد من طبقتها جاء إلى القاهرة مـن بـاكوس الحـي الشعبي في الإسكندرية.. محملاً بعبق سيد درويـش وبيـرم التونسي.. رفض الملك أيضاً.. كما لا يعرف أحد قصة هـذا الضابط الذى قتل في رأس البر.. هل كان حباً آخر لها، تـم التعامل معه بآلية أخرى من القهر هى آلية القتل كما قالت أم كلثوم للشريف حين أبلغها مصطفي أمين أمر المـلـك بعـدم اتمام الزواج.. هل يمكن في ظل هذه الخصوصيات ألا تحمل أم كلثوم في قلبها كرها مشبعاً ضد القصر والملك حتى لـو غنت لفاروق أغنية وفي أى مناسبة؟

والمؤكد تأسيساً على ما سبق أن حساب أم كلثوم على العهد البائد هو نوع من حساب توحد التواجد الزمني فقط، أما التوحد بمفهوم الانتماء فقد كان مؤجلاً لـزمن آت يتطـابق وتتطابق معه.. والمؤكد أيضاً أن سجلها بكل تناقضاته لم يكن غائباً عن أذهان قادة ثورة يوليو ١٩٥٢، فهم جميعـاً أبنـاء الطبقة الوسطى.. الطبقة التي انحازت للتغيير، والطبقة التـي يمكن اعتبار أم كلثوم منها، وهم جيل صنع وجدانـه فـن أم كلثوم وعبد الوهاب، ومن الطبيعي أنهم كانوا حريصين على

حضور حفلاتها الشهرية كما أن قائد الثـورة جمـال عبـد الناصر مثلا عرف عنه أنه كان محبـاً للموسـيقى والفـن، وهناك من يؤكد أنه حاول تعلم العزف على آلـة القـانون، وانتسب للدراسة في معهد الموسيقى لهذا الغرض، والعهـدة في هذ الرواية على وكيل وزارة الخارجية السـابق السـفير وفاء حجازى، كان عاشقاً لأغنية "همسة حائرة" لمحمد عبـد الوهاب.. وهاويا بجدارة للقراءة في شتى العلوم والمعرفـة.. يضاف إلى هذا التكوين الشخصى لعبد الناصر كثائر، فكمـا تقول سير الثوار أن في تكوين شخص الثائر جزء رومانسي حالم.. وهناك من يسحب هذه الجزئية في التكوين الشخصي لعبد الناصر على مشروعه السياسي لانتصاراته وانكساراته.

هذه المعطيات تكشف كيف كانت طبيعة التعامل بين أم كلثوم وعهد ما قبل الثورة.. طبيعة يخـيم عليهـا الحـذر والشك، كما تظهر ملامح طبيعة التقاء أم كلثـوم بالمرحلـة الجديدة..طبيعة مهيأة للالتقاء بثورة ضد العهد البائد.. طبيعة توحدها مع مرحلة رمزها شخصية بحجم وقيمة جمال عبـد الناصر الذي أظهر في تصرفاته الأولى نحوها حميمة يتوافق فيها التقدير الشخصي بالعام، ومعرفة القيمة، وربما إدراكـاً

منه لدور لها سوف يأتى في معاركه الداخلية والخارجية نحو الاستقلال الوطنى الذى أشعل به حماس الوطن العربي مـن محيطه إلى خليجه في الخمسينات والسـتينيات مـن القـرن الماضي.. فكيف تكون هذا النسيج؟.

يقول الموسيقار عمار الشريعي: كانت أم كلثوم بحكم تربيتها ونشأتها الشخصية، وانغماسها في الطـين المصـري الذى استمر معها حتى موتها، بذرة جيدة لتبنى فكر الثورة.. شئ مؤجل في شخصيتها ظهر مع يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

عمار الشريعى يضع رؤيته السابقة في سياق أشـمل يتمثل في الاحتياج المتبادل بين الثورة وأهل الفـن.. وفـي مقدمتهم أم كلثوم، دون أن يقف حائلا في ذلك ارتباط بعضهم بالعهد الملكي.

يقول: عمار حين قامت الثورة، كان يوجـد بالفعـل كوادر فنية راسخة.. ونذكر من هذه الكـوادر أو القمـم، أم كلثوم وعبد الوهاب، وفريد الأطرش.. وكان للقيادة الجديـدة (الثورة) اما الاعتماد على ما هو موجود، وبالتالي الوقوع في محظور من اثنين، الأول، أن تفقد مصداقيتها، لأن من غنـوا للملك غنوا للثورة، يخلق هذا ألغاما غير مضمونة النتـائج..

أما الاختيار الثانى فهو تخليق قيادات خاصـة بهـا تحمـل فكرها، وبالتالى تحمل لها ما قد تفعله من خيـر أو شـر أى تحمل مصداقيتها بشكل كامل.

أما الاختيار الثالث، فتمثل فيما يمكن تسميته بإمساك العصا من الوسط.. بمعنى خلق قيـادات جديـدة واسـتمالة القيادات السابقة.. وهو ما حدث بالفعل.

يضيف عمار: كانت الشخصـية المصـرية بالفعـل مؤهلة للثورة، وتشمل الفنانين أيضاً، والدليل علـى ذلـك أن عبد الوهاب قدم قبل الثورة رائعة كامـل الشـناوي "نشـيد الحرية".. وقدمت أم كلثوم عقب الثـورة "صـوت الـوطن" لرياض ورامي، وقبل الثورة قنبلة "مصر التى في خـاطري" وقدمت ليلى مراد "الاعتماد على الإله القوي" لمدحت عاصم، وقدم محمد قنديل "ع الدوار" أى كان هناك استعداد واحتشـاد من جماهير الفنانين المصريين لاحتياج الثورة ثم تأييدها.

يواصل عمار: لو تأملنا تاريخ عبد الوهاب وأم كلثوم مع العهد الملكي سنجد أن الاثنين كانا ينظران إلى الملك على أنه ملك.. غير أن عبد الوهاب في اعتقادي كان الأقرب لتأييد

الثورة من زاوية قد لا ينتبه إليها البعض كما اعتقد، وهي أنه غازل الملك مراراً، وقدم له قصيدة الفن من كلمات الشـاعر صالح جودت، وقدم أيضاً "الشباب" و " هل السلام " ولم يرد الملك على هذا الغزل بنيشان، أو لقب كما فعل مع أم كلثـوم ويوسف وهبي.. والمعروف أن هذه الأشياء كانت تمثل لعبد الوهاب قيمة كبيرة.. وتأسيسا على ذلك وحسب رأيـي فـإن عبد الوهاب كان بداخله شعور غير متعاطف مع الملك، وهذا ما جعله يتعاطف مع الرأي العام، ويقدم " نشيد الحرية ".. أما أم كلثوم فكان الأمر بالنسبة لها مختلفاً.. فهى سـيدة تربـت ونشأت في التربة المصرية ولم تغادر أبداً طماي الزهايرة.. فلاحة.. ريقها بيجرى على طبق المهلبية الذي تناولته وهـي طفلة صغيرة، أي أنها بذرة جيدة لتبنى أفكار الثورة.. وفـي رأيي أن أغنيتها العاطفية كانت تحمل هذه الإشارات، فمـن يقدم أغنية " أصون كرامتي من أجل حبي " مؤكـد أن لديـه شعوراً بعزة النفس.. قد يقول القائل: أنها غنت "عزة جمالك فين من غير ذليل يهواك"..أرد عليه فـوراً أنهـا قالـت: " وتجيب خضوعي منين ولوعتي في هواك ".. كما أنها قالـت في أول الأغنية: "حرمتني من نار حبك، وأنا حرمتـك مـن

دمعي".. يعني أتألم من غير بكا.. كما يعني فهم الأغنية على أن الحب فيها يمكن أن يكون مستباحاً أو خانعـاً، لكـن رد الحبيب ليس خانعاً في معظم الوقت.. هذه التركيبة كما قالـت بذرة جيدة لتبني فكر ثوري، وللتعامل معه، والمشاركة فيه.

يدلل عمار الشريعي على رؤيته بتسجيل استمع إليـه في الإذاعة لأغنية "صوت الوطن".. وكانت فـي أول حفلـة لضباط الجيش بعد الثورة، وشارك فيهـا أم كلثـوم وعبـد الوهاب وفريد الأطرش، وحصل خلالها مشادة بين الضـباط وفريد بعد أن دخل خشبة المسرح، وقال "مسـاء الخيـر يـا باشاوات".. فهاجوا غضباً، لأن الثورة كانت قـد أصـدرت قراراً بإلغاء الألقاب.. قدمت أم كلثوم في هذا الحفل قصيدة " صوت الوطن " بإحساس يفوق الوصف، يقول عمـار: لـم أستطع مقاومة البكاء وأنا أسمعه، وفي المقطع الأخير: "نحبها من روحنا ونفتديها بالعزيز الأكرم".. تركت أم كلثوم الضباط ومنهم عبد الناصر يرددونها معها في غناء يدفع القلب إلـى ترك الضلوع.. هذا الأداء من يسمعه يتأكد أن شيئاً مـؤجلاً في شخصية أم كلثوم ظهر مع لحظة الثورة.. هذا الشئ هـو التكوين الثورى الفطرى، والذى سيظهر فيما بعد في معارك

وطنية عديدة مثل العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦، ومرحلة مـا بعد ١٩٦٧، كما سيظهر في العلاقة التى توطدت بينهما وبين عائلة عبد الناصر، بعد أن لخصت فيه أو وجدت فيـه كـل المعانى النبيلة الإنسانية والسياسية.

# ٣

# والله زمان يا سلاحـــي

سألت الدكتور خالد جمال عبد الناصـر.. مـا هـى حقيقة علاقة بيت وعائلة عبد الناصر بأم كلثوم؟

أجاب خالد وكنت في لقائي معه بمنزلـه بضـاحية مصر الجديدة:

أم كلثوم منذ كنت في الخامسة من عمـري تقريبـاً، كانت تأتي دائماً إلى منزلنا، وتحرص على حضـور عيـد ميلادي، وعيد ميلاد باقى إخوتي.. كانـت صـداقتها قويـة بالوالدة.. وكان الوالد دائماً مشغولاً، وبالتالى كانت مقابلاتـه لها حين تأتي إلى البيت في منشية البكري قليلة، هـذا رغـم حبه الشديد لصوتها، وتقديره واحترامه لشخصـها، وسـوف أذكر شيئاً أقوله لأول مرة.. وهو أنها كانت موجـودة فـي منزلنا للمشاركة في احتفال عيد ميلاد شقيقي عبد الحميد في عام ١٩٥٦، وتلقى عبد الناصر أثناء ذلك خبر بدء العـدوان الثلاثى على مصر، وترك الاحتفال وخرج.. يضيف خالـد: كان للوالد طقوسا خاصـة كـل صـباح.. أهمهـا سـماعه لإسطواناتها حين يقف أمام المرآة لحلاقة ذقنه.. كان يدنـدن

بصوته بالأغنية التى يسمعها عبر الأسطوانة، ويتصور مثلا أننا لا نسمعه، بينما كنا جميعـاً ننصـت إليـه.. ونتبـادل الضحكات.. خاصة حين يندمج في مقطع معين من الأغنية.. كان حريصاً على دوام الحضور لحفلاتهـا.. إنمـا العلاقـة الخاصة، والتزاور كان يتم باستمرار مع الوالدة، تحية كاظم.

كان خبر العدوان الثلاثي الذى تلقـاه جمـال عبـد الناصر أثناء الاحتفال بعيد ميلاد ابنه عبد الحميد، وبحضور أم كلثوم.. هو تتويج لأربع سنوات حاسمة مضت في عمـر ثورة يوليو.. كان العالم الخارجي يترقـب خطـوات القـادة الجدد.. والقادة من جانبهم يحاولون تثبيت الخطى.. كان كـل شئ يبشر بأن هناك شيئاً جديداً.. شيئا ليس كما سبق..

على الصعيد الداخلي بـدأت الملامـح الاجتماعيـة لمشروع الثورة بإلغاء الألقاب وإصـدار قـانون الإصـلاح الزراعي، وتحديد ساعات العمل، وتشـكيل هيكـل إنتاجيـة متعددة..كان هذا يتم بسواعد شـابة فتيـة.. علـى الصـعيد الديمقراطي كانت الرؤي موزعة بين عـودة الجـيش إلـى ثكناته، واستدعاء الأحزاب السياسية القديمة للممارسة دورها، وبين ضرورة استمرار الضباط في مسيرتهم، وكاد الخـلاف

حول ذلك أن يؤدي بالحدث الذى تفجر يوم ٢٣ يوليو، وتـم حسمه فيما عرف بأزمة مارس ١٩٥٤.. أما دعائم الاستقلال الوطني فكانت خطوته الأولى خروج الانجليز من مصـر.. كانت المفاوضات تتم حول هذا بينما الأعمال الفدائية تشـتغل ضد المعسكرات الإنجليزية على خط القناة.. وعلـى صـعيد الفن.. بدأت الأغنية في العثور علـى مسـارها الـوطنى.. المسار الذى يعنى ارتباطها بمعارك الوطن.

أدارت الثورة هذه المعركة بمنحى استقلالي، أكد منذ البداية الحساسية المفرطة ضد أى تدخلات خارجية.. وكـان مشروع بناء السد العالي هو النقطة الحاسمة فـي مشـروع الثورة، وما أعقبه بتأميم القناة فالعدوان الثلاثي عام ١٩٥٦.

في فرنسا يوم ٢٢ أكتوبر تم الاتفـاق بـين فرنسـا وبريطانيا وإسرائيل على توزيع الأدوار في العـدوان علـى مصر، وذلك في اتفاق مكتوب عرف باتفاقية "سيفر".

ويقول محمد حسنين هيكل: "في ٢٩ أكتـوبر تلقـى جمال عبد الناصر وهو في بيته حيث كان يشارك في احتفال عيد ميلاد ابنه عبد الحميـد أول أنبـاء العـدوان بـالهجوم الإسرائيلى على سيناء.. وفي مساء يوم ٣٠ أكتـوبر طلـب

جمال عبد الناصر " إعداد حقيبة له، وذهب إلى مقر مجلـس قيادة الثورة في "الجزيرة" ليعمل ويعيش فيها، وكانت وجهـة نظره أن جميع المحاربين الآن بعيدون عن أسرهم وهو واحد منهم، ومن ناحية أخرى لم يكن يريد أن يكـون فـي هـذه اللحظات مع زوجته وأبناءه، وأن تتأثر قراراته ولو من بعيد بأية مشاعر قرب عائلي بما يحمله من عواطف وانفعالات".

وعلى الرغم من إعداد عبد الناصر لحقيبته والذهاب إلى مقر مجلس الثورة بعيداً عن انفعالات الأسـرة، وأسـوة بباقي جميع المحاربين..، إلا أنه وبعـد سـنوات مـن هـذا الحدث، حاول البعض الإصطياد في "الماء العكر" والقصد بـ "الماء العكر" هنا هو الحملة المغرضة علـى جمـال عبـد الناصر.. حيث قال البعض: أن أم كلثوم خبأت أبنـاء عبـد الناصر في منزلها بالزمالك أثناء الأزمـة..وذهـب هـؤلاء باستخفاف وسطحية إلى أن هذا كان نوعاً من اختبار أم كلثوم من زاوية الولاء للعهد الجديد!

ويكشف د. خالد عبد الناصر أصل هذه الواقعة قائلاً:
لا.. لا.. لم نذهب إلى بيت أم كلثوم بقصد العيش فيه طـوال فترة أزمة ٥٦..والحكاية بالضبط أننا كنا متواجدين أنا وباقى

إخوتي لدى خالتنا في الزمالك وحين علمت أم كلثوم وكانـت جارة لخالتي.. حضرت إلينا، وطلبت منا أن نـذهب معهـا كنوع من الزيارة إلى منزلها، وأتـذكر مـا قالتـه لخـالتى بالضبط: "هاتوا الأولاد يلعبوا عندنا شوية"..كما أذكر أننـي سألتها بتلقائية الطفولة: "عندك طبلة.. وعود.. نلعـب بهـم" فأجابت: "آه يا حبيبى عندى كل حاجة تحبوها.. وإن ما كانش موجود أجيبها لكم"... وبالفعل ذهبنـا معهـا إلـى منزلهـا، وقضينا، ما يقرب من ساعتين نلعب على العود والطبلة ثـم عدنا إلى منزل الخالة. وبعد ذلك كانت تمر يوميا على بيـت خالتى للاطمئنان أو تتصل تليفونياً وتلك هى القصة بالضبط".

تلقت مصر الإنذار البريطاني - الفرنسي - ومنـذ اللحظة التى بدأ فيها القصف الجوى.. كما يقول هيكل: "بدأت أعصاب بعض القيادات تتوتر.. وتعالت صـيحات تطالـب بالقتال إلى آخر طلقة، وإلى آخر رجل - كان رأي "جمـال عبد الناصر"، أن أخطر المشاعر التى يجب أن تقاومها فـي هذا الساعة هو " الأنفعال"، وأن الأمة لا تحتـاج الآن إلـى شهداء قدر حاجتها إلى أبطال، وأن فهمه للتاريخ قد علمه أن الأمم لا تستشهد، وإنما يمكن أن يستشهد بعض الأفراد منها،

أما الأمة، فإن عليها أن تقاتـل، وأن تـوفر لنفسـها أكبـر ضمانات ممكنة لتحقيق النصر، ولهذا فإنه لا يريد من حولـه عصبية تؤدي الى ضياع القدرة على التفكير المتزن.

في يوم الجمعة أول نوفمبر ذهب جمال عبد الناصر في سيارة جيب مكشوفة لأداء صلاة الجمعة وسـط النـاس، ووقف على منبر الأزهر مشـحونا بكـل تـراث الوطنيـة المصرية وبعمق إرادة التحدي حين تأتي في لحظة لا يمكـن الفكاك من التعامل معها بمسئولية.. خطب على المنبر!!!

"إننا جميعاً سوف نقاتل، ولن نستسلم وسوف أقاتـل معكم إلى آخر قطرة من دمي، وسوف يقاتل كل الشعب الذى أصبح السلاح في يده جنباً إلى جنب مع الجيش"، ولما خرج من الأزهر، تدفقت القاهرة كلها إلى طريق موكبه في صيحة واحدة مدوية "حنحارب.. حنحارب".

كانت الأحداث متسارعة، وشحذ الهمم يتم على قـدم وساق وعبد الناصر يوجه ببراعة بوصلته إلى الجماهير حتى تكون طرفاً أصيلاً في قضيتها... ووجد الفن نفسه في محطة الأحداث ويصفها الموسيقار كمال الطويـل بقولـه: "كانـت

الأحداث تمر كالحلم، وشعرنا جميعـاً أنهـا معاركنـا، وأن الرجل الذى يقودنا هو من لحمنا ودمنا، ولهذا بحثنا جميعـاً عن بعض.. عبد الحليم حـافظ، محمـد المـوجى، صـلاح جاهين، أحمد شفيق كامل، أم كلثوم، الكل جاء إلى الميـدان دون توجيه من أحد... بدأت الأغنية تأخذ طريقاً آخر جديـداً بمعنى تشكيل تيار غنائى يلتحم مع معارك الوطن".

كانت أم كلثوم واحدة من كتيبة الأبطال الذى احتاجهم عبد الناصر في هذه اللحظات وكان قد سبق لها حتـى عـام ١٩٥٦، أن قدمت أغانى وطنية مواكبة لأحداث الثورة مثـل قصيدة "صوت الوطن" وغنوة "الجلاء" مع محمد الموجي عام ١٩٥٤.. غير أن انفعالها بالعدوان الثلاثى ولد نشيداً وطينـاً رائعاً هو "والله زمان يا سلاحي" أشعار صلاح جاهين وألحان كمال الطويل، واتخذته مصر سلاماً وطنيا حتى توقيع إتفاقـة كامب ديفيد عام ١٩٧٨.

يظل هذا النشيد علامة فارقة في تاريخ الغناء الوطني عامة، وأم كلثوم خاصة، بالإضافة إلـى أن قصـة ولادتـه، والظروف التى مر بها علامة مضيئة في كيفيـة التعـاطي الشخصي من أم كلثوم لقضايا الوطن.

يحكي كمال الطويل قصة هذه الساعات العصيبة التي اقترب فيها من أم كلثوم:

كان العدوان الثلاثى يواصل هجماته البربرية علـى مصر، والنار تشتعل بداخلي. كنت في حيرة ماذا أعمل فـي هذه الظروف العصيبة، أخى في الجبهة يحارب. وأنا أجلـس في المنزل اتصلت بصلاح جاهين الـذى أعتبـره "جبرتـي الثورة".. قلت لصلاح: "أنا في دماغي مزيكة هأقولك شكلها" كان شكل المزيكة هو مقدمة "والله زمان يـا سـلاحي" قـال صلاح: "اقفل التليفون يا كمال".. وبعد فترة قليلة اتصل بـي ليقول لي اسمع: "والله زمان يا سلاحي / اشـتقت لـك فـي كفاحي"..

اتصلت بى أم كلثوم في نفس الوقت.. وكانت علـى نفس حالتي... سألتني: ماذا تفعل؟.. قرأت لها كلمات جاهين، فطلبت منى الذهاب إلى منزلها فوراً...وهناك وجدت عازف الكمـان أحمـد الحفنـاوي..وعـازف القـانون عبـده صالح...وعازف الإيقاع إبراهيم عفيفي.. كانت علـى أتـم الاستعداد في كل شئ.. فرقتها موجودة ولياقتها الحماسية في قمتها.. والحالة العامة للبلاد تضفي علينا جميعا هذا الحماس،

وأذكر وقتها أن صفارات الإنذار انطلقت تنذر بغارة جوية، وجلسنا جميعاً على ضوء الشموع بينما الغارة الجوية مستمرة. خرجت أم كلثوم فجأة من الصالون إلى " البلكونة ".. قمت وراءها مسرعاً.. قلت لها: "ادخلى بدل ما شظية تصيبك"، فردت بتأثر وحماس: "شظية إيه يا كمال.. أنا نفسى أمسك طيارة أفعصها بصوابعى!".

بهذه الحالة أقدمت أم كلثوم على اللحن وغنته.. يقول الطويل: غنت أم كلثوم "والله زمان يا سلاحي".. بإحساس فاق تخيلي، وبعد الانتهاء من إعداد اللحن طلبنا التسجيل في الإذاعة فنصحونا بالتسجيل في استديو مصر خوفاً من ضرب الإذاعة، لأنها في العادة تكون هدفاً أوقات الحروب، كما أن شهية الأعداء قد تزداد لضربها، في حالة معرفتهم أن أم كلثوم متواجدة فيها.. لكن أم كلثوم رفضت النصيحة وقالت، في حسم "أموت في الإذاعة أحسن ما يقول حد أن أم كلثوم هربت".

يضيف الطويل: كان اللحن نوعية جديدة أقدمها كملحن شاب، والسبب أننى تخيلت أم كلثوم وهى تعبر عن الجندي المصري، والمفروض أن الإيقاع المناسب لذلك هو

إيقاع ٤/٢/ المعبر عن الحماس والتوهج في نقـل خطـوات الجنود.. غير أنني وضعت اللحن بإيقـاع ثلاثـي.. لدرجـة أخافت أم كلثوم في البداية.

سألتني: أنا أعرف أقول ده يا كمال!!؟

قلت لها: تقولي طبعاً.

وبعد انتهاء التسجيل لا أنسى تعليقها: "أنت أرهقتنـي قوي يا كمال".

يضيف الطويل:

بعد العدوان الثلاثي تصادف أن أعلنت الحكومة عن مسابقة لوضع نشيد وطني، فتقدم ٦٧ متسابقاً.... ولم أتقدم أنا للمسابقة وبالرغم من ذلك، أخبرنى الكاتب الصـحفي محمـد حسنين هيكل باختيار والله زمان يا سلاحي سلاما وطنيـاً.. واستمر كذلك حتى توقيع اتفاق كامب ديفيد، وتم تغييره بنـاء على طلب من مناحم بيجن رئيس الوزراء الإسرائيلى للرئيس أنور السادات.

ثلاثة أشياء يمكن التوقف عندها في روايـة كمـال الطويل حول نشيد "والله زمان يا سلاحي" أولها... الانغماس المباشر من هذه الكتيبة الفنية في الحدث دون أى حسـابات..

وعلينا أن نتخيل قيمة ذلك في الوقت الذى كان فيه أسـاطين السياسة من العهد البائد يواصلون اجتماعاتهم السرية استعدادا للعودة إلى الحكم بيقين منهم أن العدوان الثلاثي سوف يـنجح في خلع عبد الناصر من الحكم والقضاء على ثورتـه... لـم تترك أم كلثوم نفسها لحسابات التأني والتروي فيما ستسـفر عنه الأحداث، والقيمة الأصلية عندها في ذلـك هـى البلـد والوطن، وليس شخص عبد الناصر، فالاعتداء كـان علـى مصر وليس اعتداء على عبد الناصر.

ثانيها... يقول الشاعر أحمد شفيق كامـل: كانـت أم كلثوم في كل الأحداث السياسة التى تمر بها مصر، لا تمـل من الاتصال بكل الناس.. تسألهم... تستفسر منهم... تبـادر بالعمل.. على هذه القاعدة كان اتصالها بكمال الطويل، وإبداع نشيد.. "والله زمان يا سلاحي".

ثالثها... التلقائية الوطنية المدهشة من أم كلثوم فـي التعاطي مع قضايا الوطن خاصة إذا كانـت قضـية بحجـم العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦.. غير مبالية بأى مخاطر قد تحل عليها.. فأي عظمة في تعبيرها لكمال الطويل في " بلكونـة " منزلها: "شظية إيه... أنا نفسي أمسـك طيـارة، وأفعصـها

بصوابعي"... وأى عظمة.. حين رفضت التسجيل في استديو مصر، ورأت بعفويتها... ماذا سيكون حكم التاريخ لو فعلت ذلك.. فقالت: "أموت في الإذاعة أحسن ما يقـول حـد إن أم كلثوم هربت ".

انتهت الحرب.. وحمل العـدوان الثلاثـى عصـاه ورحل.. ولم يكن الانتصار لمصر فحسب بل لكـل شـعوب العالم الثالث.. غربت الشمس عن الامبراطورية البريطانيـة التى لم تغب عنها عشرات الأعوام... التهبت مشاعر الثـوار في كل مكان من كوبا إلى أفريقيا.. وكانـت آلـة الإعـلام المصري أثناء الحرب تمارس دورها لمقاومة مفاهيم الغرب الخاطئة بتصوير عبد الناصر على أنه هتلر جديـد، وكـذلك إضعاف الروح المعنوية لبقايا الاستعمار في مصر، واستخدم الإعلام في معركته موجة إذاعية عرفت فيما بعد بإذاعـة أم كلثوم.. وتكشف قصتها التى أحيطت بسرية تامة مدى تقدير عبد الناصر لأم كلثوم.

يروي عبد القادر حـاتم وزيـر الإعـلام الأسـبق، والمسئول عن الآلة الإعلامية لمصر أثناء مفاوضات الجلاء ثم العدوان الثلاثي على مصر، قصة هذه الإذاعة قائلاً:

- أنشأ الملك فاروق في سنواته الأخيرة، ومع ازدياد الاضطرابات والقلاقل محطة إذاعية كانت عبارة عن عربة كبيرة، أى إذاعة متنقلة، وكان يستهدف بذلك استخدامها في الطوارئ حال حدوث أى اضطرابات تهدد الملكية.. وظلت الإذاعة المتنقلة دون استخدام حتى قامت الثورة، وعرفنا بأمرها، وفكرنا في تحويلها إلى استديو، ولم يكن يعلم بأمر هذا الموضوع سوى عبد الناصر وزكريا محيي الدين، وأحمد باشا كامل (قريب صدقي باشا) وأخته جيهان، وأحمد كمال محمود، ومحمود عمر مدير جريدة الإيجيبشيان، وأنا، ولما بدأت الثورة الدخول في مفاوضات الجلاء مع الإنجليز، رأى عبد الناصر أن المفاوضات لن تنجح إلا بممارسة أساليب ضغط قوية عليهم، على أن يتم ذلك في سرية وتكتم، وتمثلت هذه الأساليب في إشعال وتنشيط العمليات الفدائية في مدن القناة، وكذلك استخدام الإعلام.

يضيف حاتم: أسند عبد الناصر لى أمر توظيف هذه الإذاعة، واستثمارها كأداة إعلامية سرية ضاغطة على الإنجليز، وبدأ بثها الإذاعى دون أن يعلم أحد بمكانها، بعد نقلها إلى مكان ما في الصحراء.. وضعنا على خريطة البث

الإذاعى برامج باللغة الإنجليزية تستهدف إضعاف الروح المعنوية لجنود الاحتلال.. منها مثلا، تمثيلية تقوم فكرتها على وجود جندي بريطاني في الصحراء، دون أن يعرف سببا لوجوده، في نفس الوقت يوجد جندي أمريكي تابع لحلف الأطلنطي في بريطانيا، ويتعرف هذا الجندي على زوجة نظيره الإنجليزي الموجود في صحراء مصر، ويقضي وقته معها، في إشارة إلى أن هذا الإنجليزي ترك بيته وأسرته لآخرين يعبثون به، دون أن يكون قادراً على الدفاع عن البيت حيث المسافات الطويلة.

ويوضح حاتم أن الهدف من بث هذا النمط من البرامج كان إخماد الروح المعنوية للضباط والجنود الإنجليز بوصفهم احتلال، وإشعارهم أنهم يحاربون لهدف غير شريف، والثمن الحقيقي الذي يتقاضاه هو ضياع أسرته.. وفي سياق ترغيب هؤلاء الضباط والجنود لسماع الإذاعة كنا نبث موسيقى عالمية هادئة بين برنامج وآخر، ثم نقطع البث فجأة لإذاعة أخبار عن احتمالات انفجارات تحدث في بعض المعسكرات الإنجليزية، ويتم تحديدها بالاسم، مما يؤدى إلى

اضطراب نفسي بالغ لجنود الحراسة عليها حتى لو لـم يقـع الانفجار.

أدت هذه السياسـة الإعلاميـة إلـى إزعـاج بـالغ ومتواصل للاحتلال وصل إلى درجة أن السفارة الإنجليزيـة اشتكت مر الشكوى لقيادة الثورة منها، في الوقت الذى أنكرت القيادة معرفتها بمكان أو هوية الإذاعة، مثلما كانـت تنكـر معرفتها بالعمليات الفدائية الدائرة على خط القنـاة، واسـتمر الأمر على هذا النحو حتى عدوان ٥٦.

يضيف حاتم: بعد جلاء الإنجليز، وفشـل العـدوان الثلاثي، وكنت مديراً لمكتب جمال عبـد الناصـر لشـئون الصحافة والإعلام.. تدارسنا أمر مصير هذه الإذاعة بعد أن أدت مهمتها بنجاح، وانتهى الوضع على أن نخصصـها لأم كلثوم على أن يتم بث أغانيها عليها لمدة خمس ساعات يوميا تبدأ من الساعة الخامسة مساء حتى العاشرة.. وأذكـر أن أم كلثوم سألتني أكثر من مرة عن حكايتها ولم أقدم لها إجابـة، نفس الأمر فعلته هي مع عبد الناصر، وكان يكتفي بابتسـامة فقط والحقيقة أنها كانت قلقة في البداية من هذه الخطوة خوفاً من إصابة الناس بالملل من كثرة أو دوام إذاعة أغانيها، وفي

أكثر من مرة عبر لي عبد الناصر عن سعادته بالإذاعة لأنها كما يقول نالت إعجاب الناس، وأصـبح لهـا مسـتمعوها.. يضيف حاتم: أذكر أيضاً أن عبد الوهاب غضب مـن هـذه الخطوة، وكان يقول لي: "ما دام عملتم محطة باسم أم كلثوم.. أنا عايز محطة باسمي، وكنت أنكر له معرفتي بأمرها".

ويضيف حاتم: "أخذنا موجة مختلفة لتشغيل إذاعة أم كلثوم عن الموجات التابعة لمنظمة الإذاعات العالمية... وهى المنظمة التى تنضوي تحتها كل إذاعات العالم".

الاعلامي أحمد سعيد يروي قصة مختلفة عـن هـذه الإذاعة قائلا: الحكاية بدأت بحدوته بسيطة جدا، وتطـورت إلى إذاعة عليها تريد بث الإرسال الإذاعي ثم توقيع اتفاقيات دولية لقيام الإتحاد الدولي للإذاعات، ومهمته هندسية لتنظـيم البث الإذاعي الفضائي، ومن يريد أن يحصل على حصته من الأثير يذهب لهذا الإتحاد للحصول على حاجته من الإرسـال الإذاعي الداخلي والخارجي، علـى الموجـات القصـيرة أو المتوسطة أو الطويلة، وتحديد الذبـذبات المناسـبة حتـى لا يحدث تداخل مع بث إرسال إذاعات أخرى، لذلك عندما انتبه عبد الناصر لأهمية الإذاعة، كان مطلوبا الحصول على أكبر

حصة من الإتحاد الدولي للإذاعات، فحصلنا علـى موجـات ولابد من تشغيلها خلال مدة معينة وتبدأ إرسالها، في نفـس الوقت كانت المخابرات المصـرية تريـد محطـة إرسـال لتستخدمها بشفرتها مع أعوانها في السفارات المختلفة، ولكن كيف يمكن إستخدام البث الإذاعي لهذا الغرض، وجاء اقتراح محمد أمين حماد مدير الإذاعة بتخصـيص نصـف إرسـال الإذاعة المقترحة لإذاعة أغاني أم كلثوم، وبـذلك أصـبحت الإذاعة المطلوبة هي إذاعة أم كلثوم في الظاهر لتغطي على العملية الرئيسية، يضيف سعيد : رغم أن الجهات الأمنية لـم تعد بحاجة اليها لتحقيق أهدافها في ظل التقـدم التكنولـوجي الذي أتاح لها وسائل أخرى أكثر تقدما، إلا أن الإذاعة أخذت شهرة أم كلثوم، حتى جاء عهد السادات وتغيرت خريطتهـا، فإفتتحت بأم كلثوم، وختمت بها، وفي وسط الإرسـال تـذاع أغاني أخرى لمطربين آخرين، وقيل في هذا التعديل شائعات منها غضب السادات من مخاطبة أم كلثوم له "يا أبو الأنوار" بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية في حضور جيهان السادات.

رغم الاختلاف بين روايتي عبد القادر حاتم وأحمـد سعيد حول أصل نشأة إذاعة أم كلثوم إلا أن قـرار الإنشـاء

يبقى تتويجا من عبد الناصر لها لما قدمته.. واعترافـا منـه بقيمتها الفنية.. ليس هذا فحسب بل حرص الرجل على توفير الحماية الدائمة لها حتى فيما يتعلق بحياتها الشخصية، ويحكى الدكتور منصور فايز الطبيب الخاص لعبد الناصر ولأم كلثوم أيضاً في كتابه "مشواري مع عبد الناصر":

"نتيجة الضغط المستمر لم يكن لدى عبـد الناصـر الوقت لهوايات يروح بها عن نفسه، ولكنه كان حريصا على سماع السيدة أم كلثوم التى كان يقدرها، ويسألنى دائماً عـن صحتها، وحين بدأت السيدة أم كلثوم تشعر ببعض التعب في إحدى المراحل طلب منى أن أقترح عليها أن تكتفي بأغنيتين في الحفلة الواحدة بدلاً من ثلاث، ولما عرضت عليها وافقت وألغت الوصلة الثالثة، وكنت قد طلبت منها ذلك من قبل ولم تستجب لي".

عبرت العلاقة بين أم كلثوم وجمال عبد الناصر دائرة علاقة الفنان بالسلطة، تلك الدائرة التي تنكمش وتتمدد بفعـل القانون الذي يحدد هذه العلاقة.. القانون الذي ينص في أحـد بنوده على رضا السلطان، وخضوع الفنان، وفي بنـد آخـر على غلق الدائرة على أهداف تجمع الطرفين، وكـل منهمـا

يعمل لأجلها بأدواته الخاصة.. انتقلت علاقة أم كلثوم بجمال عبد الناصر إلى دائرة إنسانية أرحب وأرقى وأوسع.. كان في حجرة نوم عبد الناصر بمنزله بمنشية البكري قطعة موبيليا خشبية تضم تليفزيون وراديو وبيك آب وريكوردو واسطوانات موسيقي كلاسيكية وشرائط مسجلة لحفلات أم كلثوم.. وكانت أغانيها جسرا بين قلبي عبد الناصر وزوجته السيدة تحية كاظم التي إرتبطت بعلاقة وثيقة بأم كلثوم، وبدأت تلك العلاقة بمكالمة تليفونية من أم كلثوم تلقتها منها شغالة في بيت عبد الناصر اسمها خضرة، فقالت لها أم كلثوم بخفة ظلها المشهورة "يجعل ستتك خضره يا خضرة" ويقول الكاتب الصحفي عادل حمودة في حلقاته "الحب في زمن الحرب"، والذي كشف فيها عن مجموعة الخطابات الخاصة المتبادلة بين جمال عبد الناصر والسيدة تحية أثناء حرب فلسطين عام ١٩٤٨، "بعد مكالمة خضرة جاءت أم كلثوم إلى البيت لتتوطد علاقتها الإنسانية والشخصية بتحية.. وقد حرصت أن تحضر أعياد ميلاد بناتها وأولادها، لكنها لم تكن تغني فيها.. وفي الاسكندرية كانت أم كلثوم كثيرا ما تلغي حجز اقامتها في فندق سيسيل لتنزل في كابينة تحية في

المعمورة.. ومن جانبها كانت تحية حريصة علـى حضـور حفلاتها، الخميس الأول من كل شهر.

كانت في البداية تغني في مسرح الأزبكية.. ثم انتقلت إلى سينما قصر النيل، وفي مسرح الأزبكية كان أول بنـوار مخصص للملك.. سواء حضر الحفل أو لـم يحضـر، وقـد أصبح ذلك البنوار متاحا للشخصيات السياسية المهمـة فيمـا بعد.. وكانت تحية تجلس فيه عادة عنـدما كانـت تحضـر حفلات أم كلثوم التي كانت تسألها عما تحب أن تسمع منها.. وذات مرة كان جمال عبد الناصر بعيدا عنهـا فـي زيـارة ليوغسلافيا فطلبت منها أغنية " عودت عيني على رؤيـاك " ومرة أخرى كان مسافرا للإتحاد السوفيتي (روسيا والـدول المجاورة). فكانت الأغنية " إنما للصبر حدود يا حبيبي ".

ويروي الشاعر والكاتب الصحفي فاروق جويدة فـي مقال له بالأهرام (١٦ ينـاير ٢٠٠٠): "قـال لـى ريـاض السنباطي يوماً.. ذهبت إلى فيللا أم كلثوم لإجـراء بروفـات أحـد أغانيهـا، وكانـت تحتـرم مواعيـدها إلـى أبعـد الحدود..وعندما دخلت الفيلا علمت أن أم كلثوم مـا زالـت نائمة.. وسألت مديرة المنزل فقالت: إن سيدتي ظلـت حتـى

طلوع الشمس بلا نوم، فسألها السـنباطي، لمـاذا؟..قالـت: تشاجرت مع زوجها د. حسن الحفناوى ليلة أمس..واتصـلت بالرئيس عبد الناصر في الخامسة صباحاً، وأيقظته من النوم وجاء بنفسه إلى هنا ولم يخرج إلا في السابعة صباحاً بعد أن تصالح الزوجان د. الحفناوى وأم كلثوم".

حميمية العلاقة بين الطرفين جعلت من عبد الناصـر طرفا فيما تردد عن زواجها بالكاتب الصحفي مصطفى أمين، وهي القصة التي فجرها الناقد والكاتب رجاء النقاش وأثارت جدلا واسعا حين أعادت الحديث عنها الأوبراليـة د. رتيبـة حفني في ندوة بمكتبة الاسكندرية في فبراير عـام ٢٠٠٥.. قال النقاش أنه علم بأمر الزواج من مصطفى أمين من أحـد كبار المسؤولين في عصر عبد الناصر لم يأذن بذكر اسـمه في حياته وهو كمال الدين رفعت (خـال زوجـة النقـاش) ويضيف النقاش: أن الضابط على إسـماعيل زوج المذيعـة المعروفة درية شرف الدين، كان يقوم بجرد مكتب مصطفي أمين عند تأميم مؤسسة أخبار اليوم عام ١٩٦١، فوقعت فـي يده أوراق خاصة بأمين كان من بينها عقـد زواج رسـمي وليس عرفيا، بين أمين وأم كلثوم، وخطابات بخط يدها إلـى

مصطفى أمين تبدؤها بقولها (زوجي العزيـز).. ويضـيف النقاش: أعطي علي اسماعيل عقد الزواج إلى جمـال عبـد الناصر، وكان موجودا بالأسكندرية، وقدم إليه العقد، فأمسك به عبد الناصر، ونظر إليه، وابتسم دون أن يعلق بشـئ ثـم وضعه في جيبه، ومن يومها لم تظهر هـذه الأوراق علـى الإطلاق ولم يطلع عليها أحد ويقول النقاش متوقعا: "لأن عبد الناصر كان يحب أم كلثوم ويحترمها ويعتبرها قيمة وطنيـة فإن عبد الناصر ربما يكون قد طوى هذا الموضوع نهائيا من تفكيره، ولم يسمح بتسريبه إلى أحد، ما دامت أم كلثوم نفسها كانت لا تحب الاعلان عنه، ولعل هذه الأوراق الخاصة قـد أعيدت إلى صاحبها فيما بعد أي إلى مصطفي أمين".

ويعلل النقاش الذي لا يعرف المدة التي استغرقها هذا الزواج إخفاء أم كلثوم لهذا الزواج طالما كان شرعيا، بـأن مصطفى أمين كان يصغرها بحوالي ١٦ عاما، وربما كـان الفارق في العمر من بين الأسباب الرئيسية في ميل أم كلثوم إلى إخفاء هذا الزواج، كما أنها أرادت أن تكون لمصر كلها وللعرب جميعا، ويقول: أظن أن هذا السبب القوي كان كافيا ليجعل أم كلثوم تفضل أن يكـون الـزواج سـريا، كمـا أن

مصطفى أمين كان يخوض معارك عنيفة خلقت له عـداوات كثيرة قبل ثورة يوليو، وبعدها وكانت أم كلثوم تحرص على أن تكون بعيدة عن كل هذه الصراعات.

النفي القاطع لهذه القصة يأتي من الـدكتور ممـدوح الدسوقي ابن شقيقة أم كلثوم ومن الكاتب الصـحفي محمـود عوض صديق الطرفين الذي تساءل: "إذا كان مصطفي أمين قد كتم سر زواجه من أم كلثوم في حياتها فلماذا لم يعلنه بعد رحيلها؟.. وكيف يكون زواجهما سريا وهما علـى مسـتوى الأصدقاء لديهما صداقات بصحفيين مثـل محمـد التـابعي والصحفي اللبناني سعيد فريحة، وغيرهما، وكـل هـؤلاء لا يمكن اخفاء أمر بهـذا الحجـم علـى علمهـم ؟.. ويشـير السيناريست محفوظ عبدالرحمن مؤلف مسلسل أم كلثوم الـى أنه وأثناء تصديه لكتابة المسلسل صادفه ما يقرب مـن ١٤ شائعة عن زواج أم كلثوم، من بينها واحدة وهي في قريتهـا وقبل إنتقالها الى القاهرة، بالإضافة الى شائعة زواجها مـن مصطفى أمين لكن لم يكن هناك دليل عليها ويشير محفـوظ الى أن مصطفى أمين كتب عنها رواية بعنوان "الآنسة هيام" نشرت بعد خروجه من السجن، وصفها فيها بأقبح الأوصاف

ورغم هذا النفي إلا أن مجلة المصور في عدد ٤ مايو عـام ٢٠٠٥ ذهبت في تحقيق موسع لها حول هذه القضية اجـراه الصحفي محمد دياب إلى الاعتقاد بصحته وقالت: "تعرفـت ثومة إلى مصطفي أمين فـي أواسـط الثلاثينـات (القـرن العشرين) لكـن علاقتهمـا لـم تتوطـد إلا فـي منتصـف الاربعينات، ولا يعقل أن تكون أم كلثوم قد استأذنت شـقيقها في السماح لها بالزواج من مصطفي أمين دون أن ترجع في ذلك إلى والدها إلا إذا كان والدها كان قد توفي، والوالد رحل عام ١٩٣٦، ولا يعقل أن تكون قد تزوجته في الفترة من عام ١٩٣٦، وحتى ١٩٤٦ أو ١٩٤٧، لسبب بسـيط هـو أنهـا تزوجت من الموسيقار محمود الشريف العام ١٩٤٦، كما أنها إرتبطت لسنوات قبل زواجها من الشريف بقصة حـب مـع شريف باشا صبري (خال الملك فاروق)، فليس من المنطـق أن تكون أم كلثوم أحبت وتزوجت وهي على ذمة مصـطفي أمين، كما لا يعقل أن تكون قد طلقت العام ١٩٤٦ لتزوج من فورها بالشريف، إذن المنطق يحتم أن تكون أم كلثـوم قـد تزوجت مصطفى أمين في الفتـرة التـي شـهدت تصـاعدا لعلاقتهما سويا وهي منتصف الأربعينات، وهي الفترة التـي

ساعدته فيها بأموالها على تأسيس جريدة "أخبار اليوم"، وسعى لها فيها للحصول على وسام الكمال من الملك فاروق، وساندها في أزمتها الإعلامية عند زواجها وانفصالها من محمود الشريف، والمنطق يقضي أن يكون هذا الزواج قد وقع بالفعل في الفترة من عام ١٩٤٧، إلى مطلع الخمسينات لأن أم كلثوم إرتبطت بالزواج في العام ١٩٥٣ من الدكتور حسن الحفناوي، وهو الزواج الذي استمر إلى رحيلها، وعلى الأرجح تم ذلك في الفترة التي كان يتم فيها التحضير لتصوير فيلم "فاطمة" الذي كتب قصته مصطفى أمين لأم كلثوم في العام ١٩٤٧، وهو ما يعني أن الزواج لم يستمر سوى حوالي ٥ أعوام على الأكثر ففي مطلع الخمسينات وتحديدا عامي ١٩٥١ و١٩٥٣، سافرت أم كلثوم في رحلات علاجية إلى الولايات المتحدة طالت لأشهر لمعالجتها من الغدة الدرقية، وكان أنور السادات أحد ضباط مجلس قيادة ثورة يوليو في وداعها بالمطار كمندوب رسمي عن القيادة الجديدة ويقال أنه عندما اشتد عليها المرض نصحها الأطباء بالزواج لأنه أحد العوامل التي ستساعدها على الشفاء.

# ٤

# جيل مختلف

فتح انتصار مصر على العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ صفحات للنضال الوطني للثـورة.. وبـدأ الفعـل الـوطني المصحوب بالزخم الشعبي بقيادة شبابية يؤتي ثمـاره علـى الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنيـة.. كـان تعاون أم كلثوم مع جاهين والطويـل فـي "والله زمـان يـا سلاحي" ومن قبله تعاونها مع الموجي فـي غنـوة الجـلاء، نتيجة طبيعية لهذه الموجة في جانبها الفني، تعاملت أم كلثوم مع الثورة بمفهوم شامل، مفهوم يخرج من نطـاق الالتفـات والاكتفاء بالنظر إلى السلطة السياسية.. إلى رحـاب أوسـع يشمل فهم طبيعة المرحلة.. المرحلة التي يمكن القـول أنهـا كانت مرحلة الشباب بامتيـاز.. جـاءت الثـورة بـوزراء ومسئولين في عمر العشرينات ومطلـع الثلاثينيـات...مثـل الدكتور عزيز صدقي والدكتور مصطفى خليل.. والـدكتور عبد المنعم القيسوني.. وقبلهم كان ضباط الثورة فـي نفـس الحلقة من العمر...كان عبد الناصر ابن الـ ٣٤ عاماً وقـت قيام الثورة.. في نفس السياق وعلى صعيد الفن جاء ما درج

على تسميه بجيل الثورة أو جيل عبد الناصر مـن الفنـانين الشبان: عبد الحليم حافظ، كمال الطويل، محمد الموجي، بليغ حمدي، صلاح جاهين، شادية، محمد رشدي، فـايز أحمـد، نجاة، عبد الرحمن الأبنودي، أحمد شفيق كامل وغيرهم، عبر هؤلاء عن المرحلة الجديدة بما حملته من تحولات.

وعت أم كلثوم طبيعة المرحلة وكان لقاؤها بالموجي والطويل وجاهين بمثابة بدء امتزاج الأهداف والتوجهات منها بجيل يحمل فكراً مختلفاً..جيل يقول عنه كمال الطويل: "جاء بفكر يقوم على دراية بالظروف السياسية والاجتماعية، وكل التحولات نحو المستقبل الوطني لمصر، وانعكس هذا علـى الفن عموماً وفي القلب منه الأغنية. كانت أم كلثوم على وعي بهذا، فعلى الرغم من أن أساطين الموسيقى بجوارها.. زكريا أحمد.. القصبجي.. السنباطي.. إلا أنها التفتت إلـى الجيـل الطالع، عكس عبد الوهاب الذى تأخر مثلا في التلحين لعبـد الحليم.. فعبد الوهاب كان رجل التجربة الثانيـة فـي كـل شئ..لا يتزوج أول زواج ولا يلحن لمطرب اللحن الأول"!

وقبل البحث في خصوصية علاقتها بالجيل الطالع مع الثورة بملحنيه ومؤلفيه.. والعثور على إجابة لسؤال.. مـاذا

قدم لها هذا الجيل؟..وماذا قدمت له؟ قبل هذا يجدر التنويـه إلى أمرين..الأول.. أنها بدأت في تواصلها مع هـذا الجيـل وهي متوقفة عن التعاون مع اثنين مـن أسـاطين التلحـين العربي عامة..والكلثومي خاصة.. توقفت عن التعـاون مـع محمد القصبجي ملحنا...واكتفت به عازفاً للعود في فرقتها.. بالإضافة إلى قيادته للفرقة.. كما توقف تعاونها مـع الشـيخ زكريا أحمد كملحن، وبيرم التونسي كمؤلـف.. حيـث رأى زكريا وبيرم التونسي أنها لا تفيهما حقهما المالي لقاء التلحين والتأليف، وأختار زكريا طريق القضاء، حيث رفـع دعـوى قضائية أمام المحاكم، ظلت من عام ١٩٤٨حتى عام ١٩٦٠، يطالب فيها أم كلثوم بدفع مستحقات مالية له تصل إلى نحـو ٤٠ ألف جنيه.

أما الأمر الثانى فيتمثل في أنه مع خلافها مع زكريا، وتوقف القصبجي الذى رآه البعض نوعاً من إحالته للاستيداع من أم كلثوم.. في ظل هذا انفرد السنباطي انفراداً شبه تـام بصوتها من سنة ١٩٤٩ حتى سنة ١٩٦٠، واختـرق هـذا الانفراد ألحان قليلة قدمها محمد الموجي، وكمـال الطويـل كنموذجين من الجيل الجديد.. قدم لها محمد المـوجي عـام

١٩٥٤ نشيد الجلاء بمناسبة توقيع اتفاق الجلاء مع الإنجليز، وهو اللحن الذى قال عنه عبد الوهاب "لحن قصبجي طـراز ٥٤"، وفي عام ١٩٥٥ قدم الموجي لحنيه الدينيين الـرائعين "أوقدوا الشموع" و"حانة الأقدار" وفـي عـام ١٩٥٧ غنـت للموجى أيضاً "محلاك يا مصري وأنـت عالدفـة" لصـلاح جاهين بمناسبة تأميم قناة السويس.. أما كمال الطويل فقدم لها رائعتيه: "لغيرك مامددت يدا" ثم.... "والله زمان يا سـلاحي" عام ١٩٥٦.

والمؤكد أن حيرة بالغة تتملك أى محـب للموسـيقى ولفن أم كلثوم والقصبجي، حول سبب توقف التعاون بينهما، والوقوف بهذه المحطة عند قنبلة "رق الحبيب" عـام ١٩٤٤، ثم مجموعة أغاني أخرى عام ١٩٤٨، هى "يا صباح الخير" "نورك ياست الكل".. "ياللى انحرمت الحنان".. بعدها توقفـت أم كلثوم عن الغناء له بعد أن قدمت ٦٩ أغنية من ألحانه.

كان القصبجي هو الأب الفني الذى تلقفها منذ انتقالها من قريتها إلى القاهرة، كما يظل حسب وصـف الموسـيقي اللبناني توفيق الباشا: "أستاذ النغم بكل تعقيداته".. وفـي رأي كمال الطويل: "المجدد الأعظم للموسيقى العربية " كما أنه في

نظر المؤرخ والناقد الموسيقي اللبناني فيكتور سحاب "المؤلف الكبير المكتمل الشروط".... كانت أم كلثوم كما يقول المؤرخ الموسيقي محمود كامل تعتقد أن إلهامه نضب، ولم تكف فـي الظاهر عن تشجعيه على معاودة التلحين لها، لكنها في كـل مرة كانت تعيد إليه الأمل، ثم تعرب بعد الاستماع إلى ألحانه الجديدة عن عدم اقتناعها بها، ومن مفارقات ذلك أنـه لحـن أغنية في تكريمها سنة ١٩٤٩ في معهد الموسـيقى العربيـة قدمتها سعاد محمد.. ويقول فكتور سحاب في مؤلفـه الهـام "السبعة الكبار في الموسيقى العربية المعاصرة": فـي سـنة ١٩٥٥ جالت أم كلثـوم فـي بيـروت (غنـت فـي قاعـة الأونسكو).. وفي دمشق، وفي هذه الجولة صـرح "القصـب" (بهذا كانت تسميه) بأنه لو أتاحت له الفرصة لأثبت لهـا أن ألحانه أفضل من ألحان السنباطي، لكنه عاد عن كلامه وأنكر تصريحاته عندما غضبت الست... ويرى سـحاب بصـيغة جزم: "لا شك في أن القصبجي كان يفوق السنباطي في القدرة على التفكير الموسيقي، وعلى صياغة لوازم قوية متماسـكة، وعلى تطوير اللحن، وعلى التجديد في الموسيقى، وإن كـان بعض النقاد يرون أن جملة السنباطي اللحنيـة أجمـل فـي

الغالب".. ويدلل على ذلك بقوله: معظـم اسـطوانات عبـد الوهاب وأسمهان وليلى مراد في ذلك الزمن (وكانت أم كلثوم تطبع أسطوانتها عن شركة "أوديون المنافسة التي كان يديرها ألبير ليفي".. رووا أنهم أخذوا من صديقهم الأخطل الصغير، بشارة الخوري، قصيدة "اسقينها"، وطلبوا من عبد الوهاب أن يلحنها، فلحنها، لكنه تردد في تسجيلها لعدم رضاه عن اللحن، واستأذن آل بيضا إسناد لحن القصيدة إلى القصبجي، فلحنهـا لأسمهان، ويقول آل بيضا أن لحن القصبجي للقصـيدة كـان "بصراحة"... أجمل من لحن عبد الوهاب الذى لم يسـجل.. ويضيف سحاب: "ليس في هذا قطعا انتقاص من سيد اللحـن العربي (عبد الوهاب) بل فيه شهادة للقصبجي، الذى أصـابه على ما يبدو، عزوف أم كلثوم عن ألحانه، بجفـاف حقيقـي حتى مماته"، ويقول سحاب: "ليس من وسيلة إذن للتيقن بأيهما السبب وأيهما النتيجة: أهو النضوب في إلهامـه، أدى إلـى عزوف أم كلثوم، أم عزوفها أدى إلى نضوبه حقا؟".

والمؤكد أن سحاب على حق فـي طـرح تسـاؤله، خاصة أن معظم ما يقال في هذا الصوب هـو أقـرب إلـى التحليلات منه إلى الوقائع.. فمحمود شريف يذهب إلى أن أم

كلثوم عاقبت القصبجي بعدم أخذ ألحان منه منذ الليلـة التـي حمل فيها المسدس وذهب إلى فيلتها يريـد قتـل الشـريف احتجاجاً وغضباً على خطوبتها له، لأن القصبجي كان يحبها وكانت هى تعرف ذلك، وربما يرى البعض أن هـذا لـيس ملائماً من سيدة كان صوت الفن عندها أعلى الأصوات، وهو السيد في كل شئ ولا يمكن أن تغلق بالضبة والمفتاح علـى من يعطيها لحنا يرفع من رصيدها.. ويذكر الموسيقار كمال الطويل: "أنا شخصياً سألت ذات مرة للقصبجى.. "إزاى يـا أستاذنا تبقى المجدد الأعظم في تاريخ الموسـيقى العربيـة، وتكتفي بدور عازف عود في فرقة أم كلثوم.... فين ألحانـك العظيمة؟"... فرد القصبجي على الطويل: مش عارف كل ما أنوي أعمل لحن.. ألاقي العفاريت بتطلع لي" ويـرى كمـال الطويل أن أسباباً ممتزجة لدى القصبجي هى التي خلقت عنده هذه الحالة، منها ما هو شخصي في طبيعة علاقته المعقدة بأم كلثوم، وقدر من الغيرة من ملحنين آخرين.

ويروي محمود كامل، وكان من المقربين للقصبجي: "عهدت أم كلثوم إلى القصبجي بتلحين بعض أغانيها بعد "رق الحبيب" ولكن هذه الألحان لم تغنيها ، فقد حـدث فـي عـام

١٩٥٤ أن اختارت أم كلثوم أغنية وطنية من شـعر أحمـد رامي مطلعها، "يا دعاة الحق هذا يومنا" لكى تسجل بالإذاعة بمناسبة أعياد الثورة، وطلبت من القصبجي تلحينهـا، فعـاد الأمل من جديد إلى قلبه، أحس بأن أبواب السماء بدأت تتفتح له مرة أخرى، وتوجه إلى الله أن يلهمه التوفيق والسداد، وأن ترضى أم كلثوم عن هذا اللحن وتقبل غناءه.

وبدأ يلحن كلمات الأغنية، وكان من فـرط فرحتـه ونشوته، كلما انتهى من تلحين مقطع منهـا، يحمـل عـوده مسرعاً إلى فيللا أم كلثوم بالزمالك، يسمعها ما لحنه، وكانت تبدي له علامات الرضا، فيعود إلى منزله منشرح الصـدر، قرير العين، وظل هكذا إلى ان انتهى مـن تلحـين نصـف الإغنية، وجاءت أم كلثوم إلى منزل القصبجي لسماع اللحن، ومعها الشاعر أحمد رامي، وكنت رابعهم، وأمسك القصبجي بعوده، وراح يغني اللحن، وهو يدعو الله في قرارة نفسه، أن يلقي إعجاب أم كلثوم ورضاءها، ولكن أمله خاب، لم تقتنع أم كلثوم بلحن الأغنية، وأشارت عليه بأن يعيـد تلحينهـا مـن جديد، ولكن دون جدوى، ورفضت أن تغنى الأغنية... ولـم تعهد بها إلى ملحن آخر، وإنما اعتذرت عن غنائها، واكتفت

بأغنيتها المعروفة "مصر التي في خاطري وفي دمي" التـي سجلتها في العام السابق، وسافرت إلى الأسـكندرية لتقضـى فترة الصيف، وشاء القدر أن تكون أغنية "يا دعاة الحق هـذا يومنا" من نصيب المطربة فايدة كامل.

جددت أم كلثوم نفس الموقف مـع أغنيـة سـهران لوحدى، فبعد أن بدأ القصبجي تلحين الكلمات من نغمة جديدة أطلق عليها "ما وراء النهرين" لم ترض عن اللحن، وسـحبته لتعطيه إلى رياض السنباطي.. وعلى الرغم من أن القصبجي كما يقول كامل لم يكن يدر سر هـذا الفتـور، إلا أن كامـل يرجعه إلى ثلاثة أسباب هى:

سوء الحالة الصحية للقصبجي في السنوات الأخيرة، وعدم استطاعته حفظ الألحان التي تقـدمها أم كلثـوم علـى المسرح، والتي كان قد قام بعزفها من قبل.

كثرة شكواه لزملائه من سواء معاملة أم كلثوم لـه، ويبدو أن واحدا من هؤلاء حمل إلى أم كلثوم صـورا غيـر حقيقة، فصعب عليها أن تسمع مثل هذه العبارات وهى التـي كانت تكن له كل تقدير.

إصرار القصبجي على الحصول على أجـره كـاملاً عن الحفلات التي كانت تتبرع أم كلثوم بإحيائها، والتي كانت تقوم بدفع أجور الفرقة من جيبها الخاص.

وعلى الرغم من كل هذه الوقائع التي تدخل فيما يشبه التعقيد في معرفة كل جوانبها الحقيقية.. إلا أنه فـي الوقـت الذى أقلعت أم كلثوم عن الغناء للقصبجى، لـم تكـف عـن إظهار تقدير شخصي له تمثل في عدد من التصرفات، حيث يروي محمود كامل: "كان لعدم غناء أم كلثوم ألحاناً جديـدة بعد "رق الحبيب" أثره المباشر على قيمته الفنية، فقد حـدث حينما أهدت أم كلثـوم إلـى الإذاعـة عـام ١٩٥٢ بعـض تسجيلاتها الغنائية لتذيعها بدون مقابل، كان من بينهـا لحـن "رق الحبيب" وأشارت أم كلثوم على الإذاعة أن تدفع نصيب المؤلفين والملحنين في هذه التسجيلات، فقررت الإذاعـة أن يصرف للقصبجى ٢٠٠ جنيه، ورفض القصبجي يومئذ هـذا التقدير، وأبرق إلى مدير الإذاعة محتجاً، على هذا التصرف، وطالب بمساواته بزميله رياض السنباطي الذى قـدرت لـه الإذاعة ٣٠٠ جنيه، بحجة أن قيمة الفنان لا تنخفض وترتفع لقلة وغزارة إنتاجه، وإن أم كلثوم لا تغني الآن مـن ألحـان

القصبجي، ولما سمعت بذلك أم كلثوم لم تـرض عـن هـذا التصرف الشاذ، ووعدت بالاتصال بالمسئولين لمنح القصبجي حقه المشروع، وفعلا، كان لتدخلها نتيجـة طيبـة، وقـبض القصبجي أجره كاملاً غير منقوص... يأتي هذا إلى جانب أن القصبجي ولسنوات كان يخيل إليه أن أم كلثوم سوف تستغنى عنه كعازف للعود في الفرقة بعد أن أسندت قيادتهـا لمحمـد عبده صالح عازف القانون، وأصـبح بـذلك عضـواً مثـل الآخرين، وظل هذا الاعتقاد لديه إلا أنها لم تفكر حتى بعـد وفاته بإحلال عازف آخر مكانه، واسـتمرت الفرقـة تقـدم حفلاتها مدة ثلاث سنوات دون إدخال آلة العود.

وتقدم الدكتورة رتيبة الحفني اجتهاداً آخر فـي هـذ القضية، تُدخل من خلاله بأسمهان على الخط.. تقول:

"يعتبر القصبجي الملحن الوحيد الذى تفهم إمكانيـات صوت أسمهان، فلحن لها ما يتمشـى مـع لـون صـوتها وعذوبته، كما يعتبر الملحن الثاني بالنسبة لعدد الألحان التـي قدمها لهذا الصوت بعد فريد الأطرش، وأحسـت أم كلثـوم بخطورة هذا الصوت عليها، فعملت علـى حصـر ألحـان القصبجي بها، إلا أن القصبجي تعلق بأسمهان، واستمر فـي

التلحين لها، مما أدى إلى أول جفاء بين أم كلثوم والقصبجي كاد يصل إلى إبعاده عن تختها لولا تضامن أعضاء الفرقـة معه.

وتضيف الحفني: ذات يوم جاء رياض السنباطي إلى أم كلثوم بقصيدة "حديث عين" للشاعر أحمد فتحي، رفضت أم كلثوم القصيدة معللة بأنها حديثة الاتجـاه، بعيـدة عـن ذوق مستمعيها، بينما أعجب القصبجي بهذه القصيدة، فعرض على السنباطي إعطاءها لأسمهان، فكانت أول لحـن تغنـت بـه أسمهان للسنباطي، وغضبت أم كلثوم من هـذا التصـرف، وبدأت العلاقة تسوء بينها وبـين السـنباطي أيضـاً، إلا أن السنباطي: أعاد استرضاء أم كلثوم بألحانه لها.

وتضيف رتيبة: "أراد القصبجي التجديد في ألحانه لأم كلثوم إلا أنها كانت ترفض هذا اللون واتجهت إلـى ألحـان زكريا أحمد التي كانت تعتمد على الطرب، والمعـروف أن القصبجي كان بطبعه مجدداً، يسعى إلى الخروج من الحـدود التقليدية، دون أن يفقدها طابعها، ومن هذه المحاولات الجديدة كانت أغنية "منيت شبابي"، وفيها حاول القصبجي أن يجعل أم كلثوم تغنى سلما صولفائيا يبدأ من قـرار المقـام وينتهـى

بالجواب، وعندما تجاوب صوتها مع هذه الحركة الفنية، مهد إلى الأوركسترا بأداء هذا الجزء من أغنية، وتقـول رتيبـة الحفني: "المعروف أن صوت أسمهان يختلـف فـي معدنـه وإمكانياته عن صوت أم كلثوم، فأغنيـة "الطيـور" لا تتفـق وصوت أم كلثوم بينما أدتها أسمهان ببراعة وتمكن".

ويحتاج رأى رتيبة الحفني إلى الكثير من المراجعـة والتدقيق لأنه يقفز على حقائق وتواريخ يشكك في كلامهـا، فرأيها، يشير بصراحة إلى أن أسمهان كانت هـى الخلفيـة الحقيقية لأسباب الجفاء بين أم كلثوم والقصبجي، والمراجعـة تأتى في أن ما قدمه القصبجي لأسمهان ينقسم تاريخياً علـى مرحلتين.. الأولى.. أنها غنت له ألحانا قبل زواجها من حسن الأطرش عام ١٩٣٣، أي في عز تعاون القصبجي وأم كلثوم، ويقول فيكتور سحاب: من يسمع هذه الأغنيـات لأسـمهان، وبخاصة لحن القصبجي لكلمات يوسـف بـدروس: "كانـت الأماني" يحس بعدم نضوج هذا الصوت، إذا ما قورن بصوت أسمهان الذى يعرفه العامة، على الرغم من البشائر الواضحة فيه، أما المرحلة الثانية فهى التالية لعام ١٩٣٧ بعد عودتهـا إلى القاهرة سنة ١٩٣٧ للقصبجى، لحنه الأصـولى الكبيـر

"ليت للبراق عينا" (١٩٣٨) وهو لحن غنـاه قبلهـا إبـراهيم حمودة، ثم حياة محمد في فيلمهما "ليلـى بنـت الصـحراء" (١٩٣٦)، وارتجعت حياة محمد أمرها إلى المحاكم في هذا، وكانت أول قضية فنية يفصل في شأنها في مصر، وأول عهد الحقوق الفنية، لكن القصبجي أعطاها طائفة أخرى من أجمل أغنياتها تراوحت من القصيدة "اسقنيها بأبى" (١٩٤٠) قصيدة الأخطل الصغير الشهيرة، و "يا طيـور" (١٩٤٠)، ونظمهـا يوسف بدروس، فخلدت في الغناء العربى نموذجاً للتطوير في اللحن والغناء، وقصيدة أحمد شوقى "هل تـيم البـان"، إلـى أغنيات زجلية باللهجة العربية، لـم تصـل علـى اشـتهار الأوليات، مثل طقطوقة "فرق ما بينا ليه الزمان" التي ألفهـا أولا يوسف بدروس ثم ضاعت كلماتها بعد لحن القصـبجي للمطلع، فعاود على شكرى تأليفها محتفظاً بالمطلع المعروف: "فرق ما بينا الزمان، ده العمر كله بعدك هوان" ثم مثل "أنـا اللى استاهل" ( ١٩٤٤)، و "امتى حاتعرف" الرائعـة ١٩٤٤، والأخيرتان من فليم "غرام وانتقام"، الذى غرقت قبل أن تكمل مشهده الأخير، ويقول سحاب "اغنية امتى حـاتعرف" ألفهـا مأمون الشناوى لما رغبت إليه وإلى القصبجي أن يضعا لهـا

أغنية على نمط أغنية محمد عبد الوهـاب "أنـت وعزولـى وزمانى" للمؤلف نفسه.

والعرض الذى يأتى به فيكتور سحاب يوضح أن مـا قدمه القصبجي لأسمهان جاء في نفس التوقيت الذى كان يقدم فيه لأم كلثوم ليس هذا فحسب، بل إن قنبلـة "رق الحبيـب" جاءت في عام ١٩٤٤، وهو نفس العام الـذى غرقـت فيـه أسمهان ولقيت حتفها، كما قدم القصبجي فيما بعد مجموعـة أخرى من الألحان لأم كلثوم كانت في عام ١٩٤٨ وهي: "يا صباح الخير" و "نورك يا ست الكل" و "ياللى اتحرمت مـن الحنان".. كما أن من يؤرخ لتـاريخ الهجـر اللحنـي بـين القصبجي وأم كلثوم، يؤرخه بعد مرحلة "رق الحبيـب" ثـم الألحان الثلاثة التالية المشار إليها سابقاً.. والمفارقة أيضاً ان الشيخ زكريا أحمد الذى اتجهت إليه أم كلثوم بعد القصـبجي كما تقول رتيبة الحفني قدم أيضاً لأسمهان كما يقول فيكتـور سحاب ثلاث أغنيات على الأقل هى "هديتك قلبى"، وقصـيدة أبي العلاء المعري "غير مجد في ملتي واعتقادي" و"عـذابي في هواك أرضاه".

ويدخل في هذا السياق أيضاً ما أوردته رتيبة الحفنى حول سوء العلاقة بين أم كلثوم والسنباطي بسبب لحن قدمـه لأسمهان بنصحية من القصـبجي، إلا أن السـنباطي أعـاد استرضاء أم كلثوم بألحانه لها.. حيث يتبين أن أسمهان قدمت أكثر من لحن أيضاً للسنباطي في ذروة تقديمه أيضاً ألحانا لأم كلثوم، حيث قدم كما يقول فيكتور سحاب، قصـيدة لأحمـد رامي "أيها النائم" (١٩٤٤) ويعتبرها سـحاب واحـدة مـن روائعه الخالدة و"نشيد الأسرة العلوية" (١٩٤٤)، وكلتاهما في فليم غرام وانتقام، وحظرت إذاعة الثانية بعد ثـورة ١٩٥٢ لإشادتها بأسرة الملك فاروق، ويضيف سحاب: "غنت أسمهان للسنباطي قصيدة لأحمد فتحي هى أغنية جميلة جداً على مقام جهاركاه تستحق شهرة لم تنلها "ياالعينـك ويـإلى".. وأعلـن السنباطي في فترة لاحقة أنه فقد تسجيلها، فأرسل إليـه أحـد المواظبين على الهواية الموسيقية في لبنان تسجيلاً، ما لبـث أن أذيع في إذاعة القاهرة، وغنـت أسـمهان مـن ألحـان السنباطي أيضاً أغنيتين أخريين على الأقـل: قصـيدة ابـن زيدون "أقرطبة الغراء" وأغنية "الدنيا في إيدي والكل عبيدي" (١٩٤٠)".

وتشير كل هذه الحكايات الى أن الذي باعد بين القصبجي وأم كلثوم، هو عامل إنساني يتداخل فيه التكوين الشخصي للقصبجي الذي يبدو منه أنه لخص الدنيا والوجود والحياة في شخص أم كلثوم ولم يشفي من غرامها أبدا. ولم يستطع أن يصيغ معادلة معها كتلك التي صاغها أحمد رامي الذي أحبها بعمق أيضا لكنه جعلها مصدر إلهام لا ينضب.

ومن القصبجي إلى زكريا أحمد يأتى الابتعاد الآخر لأم كلثوم عن واحد من أساطين الموسيقى العربية، وواحد أيضاً من الذين كان لهم الفضل مبكراً في إقناعها بالانتقال من طماي الزهايرة إلى القاهرة.. كان زكريا كما يقول صبري أبو المجد "من الفنانين القلائل الذين يعتزون بأنفسهم ويحافظون على كرامتهم، رغم تواضعهم الجم، كريم إلى أبعد حد ومحب للغير، ومعروف بصراحته اللامتناهية فهو يقول للأعور أعور في عينه"، ويقول عنه نجيب محفوظ الذى اقترب منه سنوات: في مذكراته مع رجاء النقاش: "تعود معرفتى بالشيخ زكريا أحمد إلى صديق مشترك وهو "صلاح زيان"، وهو من الأعيان، كان صلاح زيان من سكان العباسية، وقد تعود على إقامة سهرة يومية في منزله

يحضرها الشيخ زكريا أحمد وكنت أسال نفسى: متى يعمـل الشيخ زكريا ويتم ألحانه وهو يداوم علـى تلـك السـهرات اليومية؟، واكتشف أن لديه القدرة على أن يلحن في أى وقت، وأذكر أنه لحن أغنية "حبيبى يسعد أوقاته" لأم كلثـوم وهـو يجلس معنا، وفي مرات عديدة كان يضع لحنـين مختلفـين لأغنية واحدة وهو يعرضهما علينا لنختار الأفضل".

ويضيف نجيب محفوظ: "عندما كان الشـيخ زكريـا يتحدث لا تشعر أبداً في كلامه بـأى محاولـة مـن جانبـه لاستخدام مصطلحات ثقافية أو فكرية، ولكنك تشعر أنك أمام رجل شعبى وابن بلد، رأسه ملئ بالموسيقى، أما شخصـيته فكانت في غاية الطيبة والإحساس بالمودة الدافئة نحو الناس، وما كنت أظن أن يمتلك كل هذا القدر من الكبرياء الذى جعله يختلف مع أم كلثوم".. وعن فنه يقول فيكتـور سـحاب: "إن زكريا أحمد يمتاز دون غيره من الموسيقين العـرب الكبـار بمزاجه الخاص ذى المقومات المركبة، وأول ما يخطر ببـال معتنقيه، أنه محافظ يعاند التطوير والتبديل، وهذا في الواقـع تصنيف غير دقيق، فالشيخ زكريا طور شكلين من أهم أشكال الغناء العربى (الدور والطقطوقة) وأسهم في تطوير أشـكال

أخرى، لكن تطويره لم يمس آلات الموسيقى العربية أو المقامات العربية أو الإيقاعات، فأسس تطويره على ملامح عربية أصيلة، فحفظ المضمون، وبدل في الأشكال، منطلقاً من الأشكال الأصيلة، ولذا قد يهم الناس في جعله رجعياً في الفن، وهو خلاف ذلك، ويضيف سحاب: يحلو لمتفرنجين في الموسيقى أن يسموه بالجهل لأنه لم يكن عالماً بالأساليب الغربية في الموسيقى، لكن الشيخ زكريا كان مثقفاً كبيراً في ثقافتنا العربية، وكان لا يفوت لحن إلا حفظه، حتى سماه كامل الخلعي: "الملقاط" وفي الآداب كان يؤثر كتابي أبي حيان التوحيد "الامتاع والمؤانسة" والجاحظ "البخلاء".. ولا يخضع ابتعاد زكريا عن التلحين لأم كلثوم إلى أي نوع من التخمين أو الاجتهاد كما هو الشأن مع القصبجي، حيث أن أسباب زكريا معلنة وتمثلت في مقاضاته لها أمام المحاكم عام ١٩٤٨ استمر حتى الشهور الأخيرة في حياته، ودفع الفن العربي ثمن ذلك من ٤٨ حتى عام ١٩٦٠ ليس هذا فحسب بل إن زكريا اقلع عن التلحين تماماً سنتين.. وفي الثالث عشر من يونيو ١٩٥٠ نشرت مجلة "روز اليوسف" خبرا نصه:

"قبل الشيخ زكريا أحمـد أن يقـوم بتلحـين بعـض الأغانى للمطربة أحلام، لتقوم بغنائها في الموسـم الصـيفي الحاضر على مسارح الإسكندرية، وهذا أول مرة يلحن فيهـا الشيخ زكريا أحمد أغاني خاصة للمطربات.. منذ مدة طويلة انقطع فيها لتلحين أغاني أم كلثوم وأغانى الأفلام، وسيسـافر إلى الإسكندرية ليوالي تزويدها بألحانه".

ويبدو أن محاولة مصالحة أحرزت نجاحاً في السـنة التالية، إلا أنها انتكست، فنشـرت "روز اليوسـف" فـي ١٩ حزيران / يونيو ١٩٥١ خبراً مطولاً نصه:

"نَشرتُ في الأسبوع الماضي حديثاً لأم كلثـوم عـن القرآن الكريم، وقد جاءني هذا الرد من الموسـيقار الشـيخ زكريا أحمد أنشره هنا دون تعليق:

"عندما التقيت أنا وأم كلثوم لأول مرة بعد خصـامنا الطويل.. خُيّل إلى أن أم كلثوم قد وصلت إلى السـن الـذى يتصوف فيه الإنسان ويتقرب إلى الله، فلم أحادثهـا بطبيعـة الحال عن موضوع الخلاف الذى كان قائماً بيننا والذى يرجع إلى سوء معاملتها المادية والمعنوية لي".

"ورأيت وقتها أن أسدل الستار على الماضي، وأوقفت حديثي معها على أنه من واجبنا، وقد تجاوزنا الخمسين مـن عمرنا، أن نختم حياتنا الفنية ختاماً رائعاً، بتسـجيل القـرآن الكريم كلّه، وكان قد شاع آنئذ أننى لحنّت القرآن كمـا هـو الحال في الأغاني، بل إنني لحنته بطريقة تعبيرية في الإلقاء، كما هو الحال في الآيتين اللتين حفّظتها لها في فليم "سلامة".

"وقصصتُ علي أم كلثوم كيف أننـي حاولـت منـذ عشرين عاماً تسجيل القرآن كله على اسـطوانات أوديـون بالطريقة التعبيرية لا طريقة التطريـب والتنغـيم المعروفـة الآن.ولكن فضيلة المفتي في ذلك الوقت أفتى بعدم شـرعية تسجيل القرآن على الأقراص المتكلمة.

وبدأت أم كلثوم تنصت إلى في دهشة.. ثـم اقتنعـت بعد ذلك بأن نسجل السور الصغيرة لا القرآن كله.. فوافقتهـا على أساس أن نتنازل عن حقوقنا كافةً لإحـدى الجمعيـات الخيرية، ولم توافق أم كلثوم طبعاً إلا بعدما أقنعتها بأن عملنا هذا هو خير ختام لحياتنا الفنية، وهكذا اتفقنا منذ شهرين على أن نتكتّم على هذا الأمر حتى نشرع في تنفيذه".

"ولكنني فوجئت هذا الأسبوع بحديثها في "روز اليوسف" الذى قالت فيه أنها على استعداد لتسجيل القرآن كله بلا مقابل، هدية منها لمسلمي الأرض جميعاً.... ومع كل فبالرغم من أنها أخّلت باتفاقنا فإنني أتمنى لها التوفيق في تنفيذ فكرتي هذه، وأرجو من الله أن يكتب لها النجاح، كما نجحت في فيلم "سلامة".

"وأخيراً أحب أن أهمس لأم كلثوم بكلمة صغيرة، وهى أنها أرادت أن تعود عليها بركة القرآن وحدها، ولكن عليها ان تتذكّر ان وراءها تعهدات والتزامات أخلّت بها نحوي ونحو غيري، وأن عليها أن تفي بكل ذلك، ما دامت تريد أن تتقرب إلى الله، بتسجيل آيات كتابه الكريم.

# " زكريا أحمد "

وبعد ثلاثة عشر عاماً جاء الصلح بين الطرفين، بعد أن قام القاضي عبد الغفار حسين رئـيس محكمـة القـاهرة مستهل عام ١٩٦٠ بتلطيف الخلاف، وقال في نداء مؤثر أن المجتمع العربي يود من كل قلبه سماع أم كلثوم تتغنى بألحان زكريا، ورد زكرياً متأثراً كما تقول الدكتورة نعمات أحمـد فؤاد، بأنه ينظر إليها على أنهـا سـيدة مطربـات الشـرق وغرضه خدمة الفن بشخصها، فلم تتمالك أم كلثوم، وقالـت أنها تقدر زكريا وترتاح إليه فعلا، وقال محـامي الحكومـة وكان من طرف الإذاعة على اعتبار أن زكريا رفع القضـية ضدها كطرف مع أم كلثوم.. قـال المحـامي: أن الإذاعـة ترحب باتفاق الطرفين، وإنهاء النزاع على مـا يرضـيهما، فتهلل القاضي وعرض الصلح، فتصافحا، ثم اتفقا علـى أن يلحن لها ثلاث أغنيات في السنة لقاء سبعمائة جنيه في كـل لحن... وكان مسك الختام أغنية "هو صحيح الهوى غلاب"... كلمات بيرم التونسى وفي يوم ١٤ فبراير ١٩٦١ مات زكريا أحمد بعد أن كتب في مذكراته اليوميـة يـوم ١٣ فبرايـر: "ذهبت إلى ملجأ العميان في الزيتون لأسمع صوتاً جديداً قيل

أنه معجزة.. كان الليلة ليلة الأربعين للمرحوم بيرم التونسى رحمه الله وغفر له ولنا جميعاً".

الأمر الثاني فيما يتعلق بقضية علاقة أم كلثوم بالجيل القديم وذلك قبل الدخول إلى علاقتها بالجيل الجديد الطالع مع ثورة يوليو ١٩٥٢.. هو انفراد السنباطي بشكل شبه تام بصوتها بعد خروج القصبجي وزكريا أحمد للأسباب المشار إليها سابقاً، وظل هذا الانفراد من سنة ١٩٤٩ حتى عام ١٩٦٠ ويرى فيكتور سحاب أن السنباطي في هذه المرحلة أنكب يصوغ ملامح أسلوبه الخاص في التلحين، غير متأثر بمن رافقوه، ويرى سحاب أن قبل عام ١٩٤٨ ظهرت ملامح التلحين بالأسلوب السنباطي المعتمد على الإيقاعات العربية الوقورة، والبحور الشعرية التقليدية الفسيحة، والكلمة الفصحى التي تقتضي في الإجمال لحنا مركزاً، والسكك المقامية الراسخة البعيدة عن المغامرة، فعلى هذا النمط ظهرت قصيدة رامي "اذكريني" (١٩٣٩)، ومجموعة من المخلدات: "نهج البردة" و"ولد الهدى" و "سلوا قلبي" و"سلوا كؤوس الطلا" وجميعها لشوقي وظهرت سنة ١٩٤٦.. "وسلوا كؤوس الطلا.. هل لامست فاها".. هى التي ألفها أمير

الشعراء في أم كلثوم، لما دعاها إلى الشراب في وليمة عامة، فاصطنعت الشراب تأدبا، ولم تجرع من الكأس، وفـي هـذه المرحلة السابقة لسنة ١٩٤٨، نسج السنباطي على منواله هذا قصائد أخرى: "كيف مدت علـى هـواك القلـوب" لرامـي (١٩٤٤)، و"وفي الأرض شر مقاديره" قصـيدة "السـودان" لشوقى، (١٩٤٦)، لكنه وضع بالنسق نفسه ألحانـاً لأزجـال منها: "فاكر لما كنت جنبي" رامي (١٩٤٩)، و"هلـت ليـالي القمر " رامي (١٩٤٩).

وكما يرى سحاب أن كثيراً من ألحان السنباطي قبـل ١٩٤٨ كانت تظهر منها أعراض التأثير المباشـر الصـريح بمن عملوا معه من عباقرة اللحن، إذ يبدوا أثر القصبجي في "النوم يداعب" لرامي، "وقضيت حياتى" لرامي في فيلم "نشيد الأمل" و"غلبت أصالح في روحـي" لرامـي فـي (١٩٤٦)، ويبدو أثر الشيخ زكريا أحمد في أغنيات كثيرة منها طقطوقة على "بلد المحبوب" لبيرم التونسى، ويقول سحاب "لما توقف زميلا السنباطي عن العمل في فريق "أم كلثوم"، انصرف هو إلى أسلوبه الخاص يعلى صراحه لبنة لبنـة، حيـث اخـتلط الأسلوب الكثلومي في الغناء بالأسلوب السنباطي في التلحين،

وأمكن لرياض أن يقول في حديث لتليفزيون الكويت "قصـة حياتى هى أم كلثوم"، وبدأت هذه المرحلة المنفردة برباعيات الخيام عام ١٩٤٩، تلاها روائع أخرى حتى كانت الذروة في قصيدة الأطلال عام ١٩٦٦ أشعار إبـراهيم نـاجي، وهـي القصيدة التي تحوز على إعجاب كامل يصل الى حد وصفها بالأغنية مكتملة الشروط، ويروي الشاعر فاروق شوشـة أن دموع محمد عبدالوهاب سالت في صمت أثناء نقاش إحتـدم في منزله حول أفضل ما قدمته أم كلثوم فتبارى الكل بتلقائية نحو قصيدة الأطلال، متناسين أنهم في حضـرة عبـدالوهاب الذي قدم لأم كلثوم ألحان جميلة أيضا، وعندما انتبهوا لـذلك أبدوا تأسفهم حرصا على مشاعره لكن الرجل قال لهم ودموع تغالبه: "معكم حق.. هي الأطلال" ( • ).

ومن المرحلة التي بدأت برباعيات الخيام عام ١٩٤٩ حتى الأطلال عام ١٩٦٦ يختـار فيكتـور سـحاب.. سـنة ١٩٥٨، حيث ظهرت مجموعة من الكلثوميات المشهودة التي أرست طابع الأغنية السنباطية المسرحية "أروح لمين" لعبـد المنعم السباعي، و"أنا لن أعود إليك" لأحمد فتحي، و"شـمس

---

• - سهرة بالقناة الأولى في التليفزيون المصري عن رياض السنباطي تقديم فريال صالح عام ١٩٩٨.

الأصيل" لبيرم، التي امتزج فيها زجل بيرم التونسى، ولحـن السنباطي في أداء تعبيري موحد نادراً ما تضاهيه وحدة فـي التعبير، و "دليلي احتار" لرامي.. و"عودت عينـي" لرامـي ٥٨".. يقول سحاب: "في هذه السنة ربما تقدم السنباطي بهذه الإغنيات خطوة أخرى نحو تثبيـت المـزاج الـذى وضـع مواصفاته لحفلات أم كلثوم، فلازمها حتى الممات، في معظم أعمالها الأخرى".

والأمر اللافت للنظر في مسيرة السـنباطي مـع أم كلثوم، أنه هو أكثر من قدم لها ألحانا سياسية ووطنية وبلغت ثلاثة وثلاثين أشهرها حسب سحاب "نشـيد الجامعـة" لعبـد الفتاح مصطفى (١٩٣٦)، و"نشيد بغـداد" لرامـي (١٩٣٩)، وقصيدة "النيل من أى عهد" لشوقي (١٩٤٩)، وقصيدة "مصر تتحدث عن نفسها" لحافظ إبراهيم (١٩٥١). ويعـد خبـراء الموسيقى أن هذا اللحن من أقوى ما وضعه السنباطي حبكـا وصياغة، ولما قدمت ثورة يوليـو ١٩٥٢، غنـت "صـوت الوطن" لرامي (١٩٥٢).. ولما نجا جمال عبد الناصر مـن الاغتيال سنة ١٩٥٤، غنت له: "يا جمال يا مثال الوطنيـة، أحسن أعيادنا المصرية، بنجاتك يـوم المنشـية"، وأعـادت

غناءها عندما تجدد انتخابه رئيساً سنة ١٩٦٣ بكلام بدله بيرم التونسي قبل وفاته "يا جمال يا مثال الوطنية، أجمل أعيادنـا المصرية برئاستك للجمهورية"، وفي ثـورة العـراق يوليـو ١٩٥٨، قدمت "بغداد يا قلعة الأسود" لمحمود حسن إسماعيل (١٩٥٨)، وأنشودة "منصورة ياثورة أحـرار" لعبـد التفـاح مصطفى ()١٩٥٨، وغنت في قيام وحدة مصر وسوريا فـي ٢٢ فبراير "بعد الصبر ما طال" لبيرم (١٩٥٨)، وكذلك "وفق الله خطانا" لمحمود حسن إسماعيل (١٩٥٨)، ثم غنت للسـد العالي "قصة السد" لعزيز أباظة (١٩٦٠)، و"ثوار" لعبد الفتاح مصطفى (١٩٦٠)، ثم أغنية وطنية شعبية "طوف وشـوف" وهى الأغنية الوحيدة التي حضرها السنباطي بشخصه، إذ قاد الفرقة الموسيقية وهى تعزفها وأم كلثوم تغنيهـا فـي نـادى الزمالك أمام الرئيس عبد الناصر في احتفال الثـورة ١٩٦٣، ثم غنت "يا حبنا الكبير" لعبد الفتاح مصطفى (١٩٦٥)، وفي احتفالات عيد الكويت الوطني "أرض الجدود" لأحمد العدواني (١٩٦٦)، وفي السنة ذاتها غنت قصيدة لم تذع بعـد ١٩٦٧ هى: "من أطلع الفجر الجديد" لمحمد الماضى.

وقبيل النكسة "راجعين بقوة السلاح" لصلاح جـاهين (١٩٦٧)، وبعدها "قوم بإيمان وبروح وبضمير" لعبد الوهاب محمد (١٩٦٧)، و"قم وأسمعها من أعماقي" صـالح جـودت (١٩٦٧).. وغنت أم كلثوم عندما تنحى عبد الناصر تناشـده البقاء في الحكم وأذيعت يومين، ولم تذع بعد عودتـه عـن الاستقالة، وبعد رحيل عبد الناصر قدمت قصيدة نزار قبـاني "رسالة إلى عبد الناصر" (١٩٧٠).. ولا تشمل قائمة سحاب.. أغنية لأحمد شفيق كامل سيأتى الحديث عنها فيما بعد، وكانت مواكبة لقرار الانفصال بين مصر وسوريا عـام (١٩٦١).. "باسم مين يا خارجين ع الشعب".

الخلفية التاريخيـة السـابقة فـي علاقـة أم كلثـوم بالقصبجي، وزكريا والسنباطي، مقدمة لفهم تعامل أم كلثـوم مع الجيل الجديد من الملحنين (محمـد المـوجي – كمـال الطويل – بليغ حمدي)، ليس هذا فحسب بل علاقتها أيضاً مع عبد الحليم حافظ كنموذج جاء مع الثورة واقترن اسمه بهـا.. أضف إلى هذا العوامل السياسية والاجتماعية الجديـدة التـي ساهمت في نوع آخر من الغناء لديها قدمـه واحـد بقامـة السنباطي المحسوب على الجيل القديم.. تلك المتمثلـة فـي

الأغنيات الوطنية وكانت هى تتابع الألحان الجديدة لهذا الجيل إلى درجة أن محمد الموجي يروى أن لحن "صافيني مـرة" ولحن "وأنا قلبى إليك ميال" كان عامل لها حالة ما حسب مـا قالت له وقد يرى البعض أن نوعا من تعاملهـا مـع الجيـل الجديد جاء بنتائج سلبية ولم يكن موفقاً، وتحديداً فيمـا قدمـه بليغ حمدي، ويشير فيكتور سحاب بطرف خفي إلـى ذلـك بقوله: "يختلف النقاد في أسوأ ما غنت مـن ألحـان، فيقـول بعضهم أنه: "حب إيه".... أول أغنيات بليغ لهـا.. ويقـول بعض آخر، بل إنه "حكم علينا الهوى" آخر أغنياته لها...

على النقيض من هذه الرؤية يقول الملحن والمـوزع الموسيقي ميشيل المصري: أفاد بليغ أم كلثوم إفـادة بالغـة واستطاع أن يجدد دماءها لأنها التقت معه في أواسط عمرها الفني، وكانت تحتاج إلى هذا التجديد بعد مرحلة من الغنـاء الصعب الذى يعتمد على مقدرة الملحن وتمكن المطربة.. فإذا ببليغ ينزل بأم كلثوم من برجها العاجي ويجعلها تغنـي مـع البسطاء.. أو يجعل البسطاء يغنون معها قبل مرحلـة عبـد الوهاب الذى لابد أن أخذ في حسبانه سبق بليغ والموجي لها.

كما يرى البعض أيضاً في هذا السياق.. أن بليغ هـو الملحن الذى أخضع صوت أم كلثوم لتجارب ناجحة، حتى أنه جعلها كأميرة للغناء الكلاسيكي.. أن تغني الشـعبيات مثـل أغنية حكم علينا الهوى الذى لم تمكنها حالتهـا الصـحية أن تغنيها على المسرح فغنتها على أسطوانة.. وينقل الصـحفي محمد مرسي عن بليغ أنه أدخل الكـورال علـى موسـيقى الكوبليه الثالث، وكانت معضلة كيف سـيدخل الكـورال أو يخرج من المسرح بعد أداء هذه الفقرة، وكان الاقتراح أن يتم رفع ستاره عن الكورال خلال هذه الفقرة ثم يتم إسداله بعـد نهايتها.. وتلك واحدة من تجارب بليغ معهـا أو هـى آخـر تجاربه إليها.. ففي إغنية" ألف ليلة وليلة" أدخل تيمة "ميتـى أشوفك يا غايب عن عيني" على المقدمة، من لحن سـبق أن قدمه لمحمد رشدي، ولما سألته أم كلثوم عن السبب قال لها.. أنت أهم صوت عربى على الإطلاق، وأريد أن أستغل هـذا الصوت في توصيل الشعبيات والفولكلور المصري العربـي إلى العالم!.. كما احتوت مقدمات بليغ على نوع من التجريب بدءاً من إدخاله الأكورديون لأول مرة فـي أغنيـة "سـيرة الحب".. عندما عثر على فاروق سلامة يعزف "الربع تـون"

بمهارة وحلاوة غريبة في شارع محمد علي، واعتـراض أم كلثوم على هذا التطوير ثم إعجابها الشديد بعـزف فـاروق وموافقتها على إدخال هذا الآلة لأول مرة.. ثم إدخـال آلـة "الساكس" في مقدمة فات الميعاد، وهى مقدمة تعـد غريبـة للغاية بالنسبة لمقدمات أم كلثوم الموسيقية ( • ).

من محطة بليغ حمدي التي فرضـت نفسـها علـى اعتبار أنها موضع النقد الأكبر بين أبناء الجيل الجديد الـذى تعاملت معه أم كلثوم.. ومن قبله محمـد المـوجي وكمـال الطويل، ثم المحطة الأوسع التي يمكن تلخيصها في سـؤال: ماذا قدم لها الجيل الجديد؟.. وماذا قدمت له؟ كيف كان هـذا يتم في إطار لوحة تتشابك فيهـا خيـوط السياسـى بـالفني بالاجتماعى؟

يقول الشاعر الغنائي أحمد شفيق كامل: تجددت أغنية أم كلثوم بعد الثورة بفعـل الشـباب الجـدد مـن المـؤلفين والملحنين، بالإضافة إلى المناخ العام الذى أعطـى لهـؤلاء الإنطلاقة، وأعطى للأغنية معنى جديداً، ولو قمنـا برصـد

• - الاقتباس.. هنا من مجلة نصف الدنيا ملحق " ثومة " ( ٦ فبراير ٢٠٠٠).

الأغنية الكلثومية، سوف نجدها روتينية حتى قبل تعاونها مع كمال الطويل ومحمد الموجي في أغنيات رابعة العدوية، حيث انتقلت مع الاثنين إلى نوعية أخرى، كما تغيرت تماما مع بليغ حمدي في أغنية "حب إيه" ثم بدأت مع عبد الوهاب "أنت عمري" معرفة اللازم الموسيقية الطويلة.. كانت أغنية أم كلثوم قبل هذه المراحل عبارة عن لزم موسيقية واحدة، لكنها انتقلت إلى اللازمات المتعددة.

يرى عمار الشريعي أن الجيل الجديد أضاف نكهة مختلفة إلى الأغنية الكلثومية، والأهم من ذلك أن هذا الجيل قرب أم كلثوم من الزمن الذى تعيش فيه.. كانت قد وصلت إلى مرحلة شعرت فيها أنها تبتعد عن الأجيال الصغيرة، حتى بدأت مع كمال الطويل والموجي في الأغنية الوطنية، وأغانى رابعة العدوية.. غير أن بدايتها مع بليغ حمدي بتقديم لحنه "حب إيه" في الحفلات العامة، كان الانطلاقة الحقيقة نحو الجيل الأصغر، والجملة الأقصر، والعاطفة السهلة، بعد أن تعودت من السنباطي من قبل على العاطفة الحادة.. يضيف الشريعي: كان السنباطي صاحب تركيبة مركبة، وعواطف مركبة أيضاً، بمعنى أنك لا تستطيع قطعها بسكين كما تقطع

قالب الزيد.. كانت جملتـه اللحنيـة مزيـداً مـن الكبريـاء والرصانة، والعمق، والشجن العالي جداً.. جملـة صـعبة لا تستطيع ترديدها فورا انتهاء اللحن، وإنما تحتاج إلـى وقـت لترديدها، والدليل على هذا، أن أم كلثوم هى التـي أصـرت على إنجاح قصيدة الأطلال التي استقبلها الناس فـي الحفلـة الأولى بصمت وفي الثانية بصمت أقل وبهياج وفرقعـه فـي الثالثة، حتى تسربت إلى وجدان الناس في

النهاية، والخلاصة أن السنباطي جلس بأم كلثوم في صومعة فوق الناس، غير أن الجيل الجديد قام بإنزالها مـن هذه الصومعة، زاده صراع الأدمغة بين عبد الوهاب وبليـغ في محاولات جلب آلات موسيقية جديدة، والتعامل مع الكلمة والجملة الموسيقية التي نزلت بأم كلثوم إلى رجل الشارع.

يضيف الشريعي: أما تعاونها مع محمد الموجي، فلم يكن له حظ سعيد بألحانه الأولى لهـا، كمـا يقـول عمـار الشريعي، فلحن "إنما للصبر حدود"، جاء في توقيت ليس في صالحه تماما.. حيث نزل اللحن أمام قطـار اسـمه "انـت عمري" وأصرت أم كلثوم على أن تؤجل هذا اللحـن لينـزل إلى الجمهور مع "أنت عمري" مما أدى إلى دهسة على الرغم

من جماله.. أما أغنية "أسال روحك"، فجاءت في وقت فقدت فيه سيدة الغناء الكثير من قدراتها الخارقة... أذكر أنها بعـد تقديمها لأسال روحك كوصلة أولى في حفلتها، وحسـب مـا سمعت من زملائي الموسيقين الذين شاركوها هذا الحفل، أنها بكت خلف الكواليس، وسألاها أحمد الحفناوى، وعبد الفتـاح منسى عن السبب.. فقالت: "متعودة أن الهوى يملا صدري.. المرة دي مش لاقية الهوى على "طراطيف صوابعي".. حـظ الموجي معها مثل حظ سيد مكاوي.. ولو غنت للموجي أيـام عزها لأخذنا غناء غير عاديا فألحان مثل الرضـا والنـور وحانة الأقدار يقف وراءهما ملحن من الطراز الثقيـل.. لـو أعطت أم كلثوم بيدها له، واليـد الأخـرى لبليـغ حمـدي، لاستمعنا إلى أغنيات كلثومية غير عادية".

ويتذكر محمد الموجي أنه حينما طالعتـه أم كلثـوم بقصيدة حانة الأقدار: "وجدت أمامي ثلاث قصائد في قصيدة واحدة، ومختلفة في شكلها وإيقاعهـا، ومـن دون أن أدري أسرني هذا الشكل الذى أبدعه طاهر أبو فاشـا، فاسـتخدمت ثلاثة إيقاعات مختلفة، وعندما أرهفت السمع إلى مقطع "أيكة الأطيار" شعرت أنني في جو أندلسي، تخيلت أننى زريـاب،

ووجدت نفسي، أستعين بإيقاع الفالس، ولكى أوحى بأصوات الكورس خصوصاً أن اللحن سيغني في حانة - حسبما جـاء سيناريو الفيلم - استخدمت في الإيقاع النقر علـى الكمـان، وآلة المثلث لتعطي صوتاً بلورياً، وعندما فرغت من التلحين، وجدت نفسي أمام ثلاثة موشحات جميلة، متصـل بعضـها ببعض، لا ارتباك فيها ولا تفكك، لأننى كنت في كـل مـرة أختتم المقطع الغنائى بالمقام الذى سأبدأ فيه المقطع الذي يليه، ومع ذلك تملكني الرعب وراجعت نفسي كثيراً قبل أن أذهب إلى أم كلثوم، فاستخدام هذا التلوين في الشكل والإيقاع لم يكن مألوفاً فيما سبق...ولكنني توكلت على الله.

من محمد الموجي، وبليغ حمدي، إلى كمال الطويل، بوصفه قطبا رئيسياً من أقطاب الجيل الطالع مع ثورة يوليو.. يبقى السؤال.. إذا كانت التجربة الكلثومية مع الطويل كانـت مبشرة إلى حد كبير في البدء، فلماذا لم يتواصل التعاون معه؟

الإجابة يقدمها الطويل

يقول: هذه حكاية عاصرها الكاتب الصحفي مصطفى أمين.. كنا نلتقي أسبوعيا في منزله.. كامـل الشـناوي.. أم كلثوم.. مجدى العمروسي.. عبد الوهاب.. وآخرون، وفـي

أحيان أخرى كنت أذهب إلي أم كلثوم، مع الكاتب أحمد بهاء الدين والروائى فتحي غانم.. يتحدث بهاء في السياسة وغانم في الثقافة والأدب، وكانت هى تحب هذا المناخ.. وفي إحدى هذه الزيارات أعطتني ثلاثة نصوص غنائية، أذكر منها أغنية "لسه فاكر" التي لحنها السنباطي فيما بعد، وأخرى دينية لبيرم التونسي، وحسب طبعي حين أقدم لحنا جديداً لأى فنان، لابد من توافر شرط الاقتراب الإنساني بيني وبينه.. وكـان هـذا متواجداً مع أم كلثوم منذ بدء تعاوني معها في والله زمان يـا سلاحي وأغاني رابعة العدوية مـع المـوجي والسـنباطي.. أخذت منها النصوص الغنائية الثلاثة، ثم سافرت مع زوجتي إلى أوروبا دون أن أخبرها وبعد عـودتي جـاءني مجـدي العمروسي وقال لي: أريد أن أخبرك بشئ هام، وبدأ في سرد رواية كان هو طرفها كما أخبرنى. قال: كنت عند مصـطفى أمين منذ أسبوعين، وكان عنده أم كلثـوم وزوجهـا حسـن الحفناوي، وقالت أم كلثوم: "أنا نفسي أعرف... كمال الطويل في الوقت اللى الناس عنـدها ظـروف (...) بيسـافر هـو وزوجته إزاي"... فرد مجدى حسب روايته لى: "كمال سافر ياست زى لما بتسافري أنت وزوجك ".. اندهشت.. كيف لأم

كلثوم أن تقول هذا.. بينما أذهب إليها دائما أنا وبهاء وغانم، وعلى أثر هذا قررت الانقطاع عن زيارتها وتركت تعليمات في البيت بأن يكون الرد عليها في حالة اتصالها أنني غيـر موجود.. وحاول مصطفى أمين أن يعرف سـبب انقطـاعي المفاجئ للذهاب إلى منزله في حضور أم كلثوم كما كان من قبل، وأيضاً عدم تلحيني للأغاني التي بحوزتي.. وكان ردي عليه: "مفيش مزاج".

مرت سنوات طويلة حتى رحلت أم كلثوم، وخـرج مصطفى أمين من السجن، وفي لقاء لي معه سألني: "أنا عايز أعرف سر انقطاعك عن أم كلثوم؟" فرويت له الحكاية.. فرد منفعلاً: "ضحكوا عليك.. إزاى ما قدرتش تفهم إن ده ملعوب علشان يبعدوك عنها.. الموضوع كان في منزلي، ولم يحدث من الأصل"، وسألني: "لماذا فعل ذلـك مجـدي العمروسـي معك، وهو يعلم أنك عصبي ومنـدفع.. مـا هـى مصـلحة مجدي...." ثم أجاب: "ده مقلب دبره عبد الحليم ومجدي، لأن ظنهما ذهب إلى أنك لو نجحت مع أم كلثـوم، وكـان هـذا متوقعا ستنشغل عن عبد الحليم".

كسب عبد الحليم كمال الطويل.. وخسرته أم كلثـوم بوشاية مقصودة، غير أن الملمح الرئيسي في الرصد يعطـي ويؤكد جوانب الحرص من أم كلثوم على أنها بقدر ما مـدت ذراعها إلى حرسها القديم المتمثل في السنباطي مدت ذراعها الثانية إلى الجديد من الملحنين، والذى أضفي عليها كما يقول عمار الشريعي سمة الاقتراب من الناس.. هذا الملمح الـذى جاء انعكاسا حقيقياً لمسـار عبـد الناصـر فـي مشـروعه السياسي... مسار "الاقتراب من الناس".

كان وهج الأغنية يبعث بإشاراته.. ويجتهد رموزهـا لإرساء دعامة لهم في هذا.. عبد الحليم حافظ مارس سطوته في هذا الاتجاه، وفرد ذراعيه لكل جديد.. وكان كمـا يقـول كمال الطويل: "صوتنا إلى الشارع"...غنى عبد الحليم للثورة، وشق طريقه بطموح مبكر نحو التفرد، أدى به كما قال نزار قباني إلى " قيادة شعب بصوته "... كان واحداً مـن الجيـل الجديد الذى رأته أم كلثوم مع الثورة..وإذا كانـت هـى قـد التقطت مبكراً ضرورة نسج علاقة بقدر ما مع نماذج متفردة من هذا الجيل، إلا أنها ربما تكون قد نظرت إلى عبد الحلـيم بعين الغيرة الفنية أحياناً..وربما يكون هو أيضاً قد نظر إليها

بنفس العين... كما تشير الحكاية / الوشاية التي رواها كمال الطويل.. ويزيد من احتمالها حكاية أخرى كانت على مـرأى ومسمع من الجماهير.. وكان الحاضر الغائب فيها جمال عبد الناصر.

كانت حفلات عيد الثورة كل عـام يحضـرها عبـد الناصر وقادة الثورة.. تغنى فيها أم كلثوم وعبد الحلـيم فـي حفلة مشتركة، وجرت العادة أن يبدأ عبد الحليم الغناء ثـم أم كلثوم، لكنها اشترطت في حفل نادي الضباط عام ١٩٦٣ أن تبدأ هي بالغناء، ولم يكن عبد الناصر حاضراً هـذه المـرة، واستمرت أم كلثوم في الغناء حتى الساعات الأولى للصباح.. وحين جاء الدور على عبد الحليم، صـعد المسـرح بغـيظ، وقال: " أنا مش عارف إن كان غنائى بعد السـيدة أم كلثـوم شرفا لى أم مقلبا منها ".. كانت الكلمات فتيلا أشـعله عبـد الحليم.. وتحولت الحكاية إلى حديث الرأي العام من يومهـا التالي.

كان عبد الحليم ـ على الهاتف مع عبد الناصر فـي اليوم التالي.. ويروي الشاعر الغنائي وصديق عبـد الحلـيم، محمد حمزة جانبا من هذه المحادثة:

يقول: كان لعبد الحليم طريقة معينة في الاتصال بعبد الناصر يفهم من خلالها إذا كان الرئيس مشـغولاً، أم لديـه متسع من الوقت للحديث معه، فإذا استمر دق جرس التليفون لفترة يكون الرئيس في هذه الحالة مشغولاً بشئ ما، أمـا إذا رفعت سماعة التليفون على الفور، يكون لدى عبد الناصـر متسع من الوقت للحديث.. وحين اتصل عبد الحليم بـه بعـد عاصفة حفل أم كلثوم، كان غرضه من الاتصال معرفـة رد فعل ما حدث... كان عبد الحليم يخاطب عبد الناصـر فـي التليفون بـ "بابا" وبعد الإطمئنـان المتبـادل مـن الاثنـين، وحديث عبد الحليم عن لحنه الجديد الذى قدمـه فـي حفلـه الأخير، حاول عبد الحليم أن يجد مدخلاً لرواية ما حدث منه مع أم كلثوم، غير أن الرئيس نقله إلى أحاديث أخرى تتعلـق بالسؤال عن لحنه الجديد.

يرصد كمال الطويل جانباً آخر من نتائج هذه الحكاية قائلاً: "ما فعله عبد الحليم كان متسقا مع تكوينـه الشخصـي المدعوم بإحساس مفرط بالكرامة والغيرة الشديدة على فنه.. رغم ذلك كان قلقا مما حدث واحتفالات عيد الثورة فيما بعد، تلك المناسبة التي كنا نتسابق فيها على تقديم الألحان الوطنية

الجديدة.. استخدم عبد الحليم حاسة شمه القوية.. أقصد بـ ذلك اتصاله، أو تواجده في الوقت المناسب، والمكـان المناسـب اللذين يتواجد فيهما عبد الناصر، على هذا النحو كان تصرفه بعد الحفل، واسفر هذا عن قرار لعبد الناصر بحفلتين لعيـد الثورة.. واحدة لأم كلثوم يوم ٢٣ يوليو من كل عام ، وثانية لعبد الحليم يوم ٢٦ من نفس الشهر، كان القرار رائعاً وحمل دليلاً على عظمة عبد الناصر الذى احتفظ لأم كلثـوم بحفـل ليلة الثورة تقديراً لتاريخها وقيمتها، وأكد علـى قيمـة عبـد الحليم بتخصيص حفل مستقل له.

يضيف الطويل: قدمت أم كلثـوم أغنيـات وطنيـة عظيمة ورائعة، لكن في رأيي أن عبد الحليم كان ملك هـذه المنطقة في الغناء، ويصدقه الناس أكثر، وقرار عبد الناصـر باستقلاليته بحفل عن أم كلثوم جاء تقديراً منه لهذا، كما كـان المقصود به أيضاً أن نستمر جميعاً كجيل.

استخلاص الطويل يراه عمار الشريعي مـن وجهـة نظر مختلفة، قائلاً: إن كلا من عبد الحليم وأم كلثـوم وعبـد الوهاب كان له مذاق خاص في الأغنية الوطنية، ليس بمعنى التفضيل وإنما بمعنى فهم كل منهم لدوره.

يضيف الشريعي: يمكن فهم ذلك بصـورة أوضـح وأعمق لو تناولنا ما قدمه الثلاثة من غناء في معركة واحـدة هى معركة السد العالي.. غنى عبد الحليم " حكاية شعب " من كلمات أحمد شفيق كامل وألحان كمال الطويل.. "قلنا حانبني، وآدى احنا بنينا السد العالي"، وغنت أم كلثـوم "كـان حلمـاً فخاطراً فاحتمالا" من ألحان رياض السنباطي، وغنـى عبـد الوهاب "ساعة الجد".

رغم أن الأغنيات الثلاثة كانت لمعركة واحدة هـى معركة السد العإلى إلا أن السمات الخاصة بهـم، والمـذاق الغنائي لهم يختلف، وحملت كل منها صفات صاحبها.

قامت أغنية عبد الحلـيم علـى التـدفق والشـعبية والسيطرة الجماهيرية:

"تسمعوا الحكاية

كورس: بس قولها من البداية

عبد الحليم: هى حكاية حـرب ونـار بينـا وبـين الاستعمار فاكرين

لما الشعب اتغرب جوه في بلده

كورس: آه فاكرين

افترضت الإغنية هنا وجود جمهور يتم الحديث معه، ثم نامت على كتف الفولكلور المصري بعبارة "ضربة كانـت من المعلم".. جملة صغيرة وقصيرة يمكن ترديدها بسـهولة من الحارة المصرية.

أما أغنية أم كلثوم "كان حلمـاً فخـاطرا فاحتمـالا" فتناولها يتم في سياق أن أم كلثوم هى التي تصـدت للشـعر والقصيدة في الأغنية الوطنية.. ربما يقول البعض أنها قدمت العامية مثل "حولنا مجرى النيل يا سلام علـى ده تحويـل"، والرد على ذلك يكمن في أنها كانت بطبيعتها تستطيع أكثـر من غيرها التصدير الغنائى العامى والفصـيح إلـى الأمـة العربية كلها.. كانت هى الأكثـر سـيطرة علـى الوجـدان العربى، ويقبل منها الجمهور العربى ما يتـردد فـي قبولـه الآخرين، وبهذا الاعتبار قبل منها أغنيتها الوطنيـة العاميـة بقدر ما قبل منها قصيدتها الوطنية الفصحى.. وقصيدة "كـان حلماً فخاطراً فاحتمالاً" مثلت الأغنية الرصينة التـي تصـلح للتصدير لكل الأمة العربية، بما شملته من لحن يقـوم علـى كبرياء وعنفوان السنباطي الذى جمـع عبقريـة الموسـيقى العربية كلها، وقدم ألحانه كما في القصيدة المشار إليها بفكـر

موسيقي له مقدمات تؤدى إلى نتائج.. أي فكر مخطط يصلح للتصدير إلى الأمة العربية.. يضيف عمار: على هذا النحـو يمكن القول حسب اعتقادى أن أحلى أغنية وطنيـة عربيـة شرقية بمفهوم الموسيقى كانت "ثوار.. ثوار.. لآخـر مـدى" لعبدالفتاح مصطفى والسنباطي وأم كلثوم.. أغنيـة اتسـمت بمسحة إنسانية تقدمية تصلح لأى إنسان عربى من المحـيط إلى الخليج:

"تعالو يا أجيال يا رمز الأمل

من بعد جيلنا احملوا ما حمل

وافتكروا فينا، واذكرونا بخير

الشاعر الذي كتب هذه الكلمات مرعـب.. والملحـن عبقري.. وأم كلثوم فوق الوصف.. هي غنـوة "محصـلتش" وتمضى السنوات وتمر المعارك أو تنتهى لكن يبقـى هـذا الكلام العبقري صالحاً في كل وقت، وهذا جانب من خلـود الغناء الوطني لأم كلثوم.

من عبد الحليم حافظ وأم كلثوم إلـى محمـد عبـد الوهاب يقول الشريعي:

"قدم عبد الوهاب في معركة السد العالي.. أغنية "ساعة الجد"، واتسمت بسمات عبد الوهاب الباحثة دائماً عن الفكر الجديد والموضوع الجديد.. وهذه الأغنية تعاون فيها للمرة الأولى والأخيرة مع المايسترو المصري العبقرى عبد الحليم نويرة، ونتج عن هذا التعاون ولادة أغنية مزجت بين غناء عبد الوهاب الهادر الرصين، والدقات العمالية، وكأن عملية البناء تحدث لحظة الغناء.. وبحث عبد الوهاب في الإغنية عن الفكر الجديد بصرف النظر عن اهتماماته الرئيسية بموسيقاه وعن نية قوله في المسألة.

يستخاص عمار من هذه المقارنة أن كل واحد من هؤلاء قدم الأغنية الوطنية حسب سماته الشخصية، ولاقت النجاح في المساحة الموجهة إليها... عبد الحليم في تدفقه إلى الشعب.. وأم كلثوم برصانتها إلى الأمة العربية.. وعبد الوهاب بفكره نحو البحث عن الجديد.

والخلاصة كانت، حالة من خليط البحث عن الجديد بروح فعالة مع الحدث السياسي والاجتماعى الذى أمسك بأطرافه جمال عبد الناصر، وحيث رأت أم كلثوم أن جيلاً جديداً جاء مع الثورة يساهم في تدفق هذه الحيوية.. التفتت

إليه لتأخذ منه هذا التدفق، وتعطيه جواز المرور نحو عـالم أرحب في الموسيقى..

على الرغم من هذا وبأسلوب الاصطياد فـي المـاء العكر.. هناك من رأى أن أغنية أم كلثوم العاطفية سـاهمت في تخدير الشعب، وكان عبـد الناصـر يسـتخدمها لهـذا الغرض..وكأن أغنية أم كلثوم العاطفية لم تبدأ إلا مـع عبـد الناصر. وكأن حفلاتها الشهرية لم تبـدأ أيضـاً إلا معـه.. وبصرف النظر عن سطحية هذا القـول... إلا أن أغنيـة أم كلثوم العاطفية تستحق التأمل على أكثر من وجه، ويدخل في هذا أيضاً حفلاتها الشهرية.

# عيون الملك حسين

عرفت الأغنية العربية منذ سـنوات طويلـة طـابع الفردية، ويرى الناقد والمؤرخ كمال النجمـي، أن الأغنيـة الفردية اتجهت إلى الطابع القومي المشترك في طريقة الغناء والتلحين، وهذا من أسباب ما تتمتع به حتى الآن من كثـرة الجمهور الخاص بها في البلاد العربية، وبخاصة إذا أديـت بأصوات محبوبة، وقد طافت أم كلثـوم بـالمغرب وتـونس ولبنان والكويت وأبو ظبي والسودان وليبيا، فكانت أغانيهـا تقابل في كل مكان بتذوق وفهم، لأن أغنيتها هـى الأغنيـة النموذجية عن المجتمع العربي، ولهذا اتخذ الالتفاف حول فن أم كلثوم شكلاً قومياً... تتمثل فيه إذا أمعنا النظر وحدة الذوق الغنائي لدى شعوب الأمة العربية.

لم يقتصر فهم وتقدير عبد الناصر لقيمة أم كلثوم على أدائها للغناء الوطني فقط، بل إن فهمه الأكيد لها تطابق مـع قول النجمي، بأن الالتفاف حول فنها أخـذ شـكلاً قوميـاً.. وبالتالي كان عليه الحفاظ على هذا الشكل الذى أخـذ أبهـى صوره في التفاف الجماهير من المحيط إلى الخلـيج حـول المذياع في الخميس الأول من كل شهر لسـماع مـا تقدمـه

مطربتهم المحبوبة، وكان لعبد الناصر وجهة نظر وآراء في ذلك حافظت على هذا الشكل.

يقول الاعلامي أحمد سعيد: بعد أن أصـبح صـوت العرب إذاعة متكاملة يستمر إرسالها حتى الواحدة صـباحا، كنا نأتي يوم حفل أم كلثوم في الخميس الأول من كل شـهر، ونقدم سهرة خاصة بنا ليس فيها أم كلثوم، مما أثار ضـيقها وشكواها، وكانت حجتها واضحة ومعقولة وهي أن العـرب يحجزون تذاكر لحفلاتها من جميع أنحاء الـوطن العربـي، ويأتون صباح يوم الحفلة،ويغادرون القاهرة في اليوم التالي، فهي إذن مطلوبة عربيا، فلماذا لا يذاع صوت العرب حفلتها، طلبتني فذهبت إليها، وطرحت على سؤالها فشرحت لهـا، إن البرنامج العام يذيع حفلاتها بإرساله القوي الذي يصل للمنطقة العربية كلها (أوائل الستينيات من القرن الماضي) ونحن لنـا مستمعونا، ولا نريد أن نخسر واحد مـنهم بسـبب تركيـز الاستماع على إذاعة واحدة، فقد لا يحبذ ١٠% الاستماع إلى حفلات أم كلثوم، فيخسر الاعلام المصري هذه النسبة، لـذلك فنحن نقدم لهؤلاء مرة أخرى حتى يمكننا تغطيـة المنطقـة العربية وإستيعاب كل المستمعين.

يضيف سعيد: استمعت أم كلثوم إلى وهـي غاضـبة وإتهمتني بأنني من أنصار عبد الحليم حـافظ، فضـلا عـن إتهامات أخرى من هذا القبيل، حتى إن فريد الاطرش نفسـه قد اتهمنا وهاجمنا بنفس التهمة وهي أننا نتشيع لعبـد الحلـيم حافظ وأوصلت أم كلثوم شكواها إلى د. عبدالقادر حاتم وزير الاعلام الذي كلمني فقلت له: هذه مسألة برامجية. قـال: ألا تعرف حلا، قلت له: لا أعرف.

وأبلغت أم كلثوم الأمر في النهاية إلى الرئيس عبـد الناصر، وفي حفل العشاء الذي أقامه الرئيس تكريما لضـيفه "أيوب خان" حضرت بصفتي عضوا بمجلس الأمة، ووكـيلا للجنة الشئون العربية، ووجدت الرئيس عبد الناصر يمسكني من يدي ويقول لي :

حلوا مشكلة أم كلثوم، ليس عندنا غيرها، ولا يوجـد عندنا أحسن منها، قلت للرئيس : يا فندم إذا كانت أوامر انفذ فورا، فقال عبد الناصر : لا شأن لي أبحـث عـن طريقـة ترضي أم كلثوم.

ويروي الكاتب والسياسي الراحل فتحي رضوان أول من تولى مسئولية الثقافة في عهد ثـورة يوليـو (منتصـف الخمسينات) قصة كان طرفها.

اصطحب عبد الناصر فتحي رضوان وعبد الحكـيم عامر في سيارته إلى دار الأوبرا لمشاهدة مسرحية "دمـوع إبليس" وهى من تأليف فتحـي رضـوان، وبعـد مشـاهدة المسرحية، وهم في طريقهم إلى العودة، دار حوار طويل في السيارة بين الثلاثة حول الفن والثقافة، ورؤية عبد الناصـر الخاصة للمسرحية.. يرويه فتحي رضوان:

قال جمال لعبد الحكيم: "تعرف يا حكيم إن هذا هـو العمل الفني الثاني الذى أراه لفتحي رضوان، فقد رأيت له من قبل فيلم "مصطفى كامل". فقال عبد الحكـيم: "أنـا شـاهدته معك".. فذكرتهما بأنهما رأياه فـي حفلـة خاصـة بسـينما "ريفولي" احتفالا بالعقيد الشيشكلى، فقال عبد الناصر: "ليلتها.. أنا كنت طوال الفيلم خائفاً على مصطفى، ومشفقاً من وفاته، مع أنى أعرف أنه مات منذ أكثر من خمسين سنة، هذا هـو سحر الفن الجيد".. ومضى عبد الناصر في كلامـه موصـياً فتحي رضوان بضرورة عمل فيلم عن محمد فريد، وأشـار

إلى أنه يسهر مع الإذاعة حتى نهاية برنامجها مع "أم كلثوم" و"أضواء المدينة ".. وقال: أنا عارف أن فتحي رضوان غير راضي عن طول حفلات أم كلثوم واستمرارها إلى الرابعـة صباحاً، وكثرة ترديد المقطع الواحد، عشرين مرة، أو أكثر، والصياح والصراخ والوقوف على المقاعد..

يضيف رضوان: عجبت حقيقة كيـف عـرف عبـد الناصر هذا الرأي، وحاولت أن أذكر متى سمع منـي هـذا الكلام، ولم أستطع، ولكنه ضحك على طريقته التي أسـميها (طريقة الرشف)، وقال: "في ليلة أقمنا حفلة غنائية لأم كلثوم في نادي الضباط احتفالا بالملك حسين ملـك الأردن (تـوفي عام ١٩٩٩)، ولما خرجنا نوصله، وكنت أنت (موجها كلامه إلى فتحي رضوان) رئيس الوفد المرافق لـه، كـان منظـر الضباط ساعة الانصراف، وعدد غير قليل منهم نائماً تمامـاً على مقعده.. لا يرضى أحد، وكانت عيـون الملـك حسـين حمراء، وكان يتمايل من شدة التعب، وفي اليوم التـالي بـدأ الحديث تعليقاً على الليلة، فسمعتك تكلم أحداً على مقربة مني، ووصل إلى سمعي كل هذا.. وواصل عبد الناصر كلامه "أنا معك، ولكن محاولة تغيير هذا بمثابة الوقـوف فـي وجـه

التيار".. فقلت له: "ولكننا واقفون في وجه التيار فعلا، ألست تقيم السد العالي؟".. فرد عبد الناصر: "السد العالي معاش، ولكن يأتي على الناس وقت لا يطيقون فيه أنفسهم".. فقلت: "ولكن العمل الفني، في كل مكان، وسيلة لرفع معنويات الناس، وتزويدهم بجرعة منعشة ومنشطة ومبهجة، يخرجون بعدها، أكثر إقبالاً على الحياة.. ولكن حفلات الطرب عندنا "عمليات تعذيب"...ينام الناس في اليوم التالي إلى الظهر، ويستيقظون يشكون من الصداع، وجوههم صفراء، وشهيتهم مسدودة ومزاجهم عكر".. فقاطعني الرئيس: "أنا معك.. معك.. ولكن الناس ينسون أنفسهم إلى الصباح، ويكونون، في اليوم التالي بالصورة التي تصفها"... فقلت له: "إن التكرار في أغانينا أثره الذاتي والخلقي مدمر، إنه وسيلة للتنويم أشبه بأغنية النوم للطفل"، فقال عبد الناصر.. لا تخف.. لن يستمر هذا كثيرا.. ثم توقف، وقال: "بس إوعى تغضب أم كلثوم"، فضحكت وقلت: "لا سبيل لإغضابها" قال: "هذا حق".

يضع الناقد الدكتور على الراعي هذه الحكاية في سياق تحليلي أشمل.. يقول: موقف عبد الناصر من الثقافة والإعلام يحتمل كثيراً من التأويلات.. كان يصرح في بعض

المناسبات، بأنه على الفن أن يمسح هموم النـاس، ويسـري عنهم، وكان يضرب المثل بنفسه، إذ يعود إلى بيتـه مـثقلا بأعباء الحكم، فيجد في فيلم سينمائي خفيف بعـض الراحـة، وكان يضيف أن العالم الذى يجهد ساعات طويلة في أرضـه ومصنعه له الحق في كل ما يرفه عنه ويسليه.. إلى جـوار هذا كانت نظرة عبد الناصر للفن والثقافة نظرة تسيسية فـي المحل الأول، يقرب الفن والثقافة إلى قلبه ما داما قدما الخطة السياسية العامة للبلد الذى تولى حكمه.. لهذا نـراه يوصـي فتحي رضوان بأن يهتم بإنشاء فرق للفنون الشعبية، بعـد أن عجز صلاح سالم عن أن يقوم بهذا العمل، لكثرة مشـاغله، وقلة قدرته على التنفيذ، ونراه أيضـاً يفطـن إلـى القيمـة الجماهيرية والدعائية التي تمثلها أم كلثوم في مصر وبـاقى أجزاء الوطن العربى، فيقول لفتحي رضوان: "اوعى تغضب أم كلثوم" فيجيب رضوان: "لا سبيل إلى إغضابها".

يضيف د. على الراعي: هناك نقطة مهمة في موقف عبد الناصر من أم كلثوم تثبت بعد نظـره. فسـيدة الغنـاء العربى كانت عاملاً فنياً موحداً للعرب جميعاً من المحيط إلى الخليج، وأي محاولة للتقليص من نشاطها، كما كـان يـدعو

رضوان، كان كفيلا بأن تفقد مصر بعضاً من نفوذها الفنـي الذى هو عدتها دائماً في حالة يسر وعسر، والدليل في كل بلد عربي استضافتها، وجمعت لبلادها عملات أجنبية كانت فـي أشد الحاجة إليها، كما أسهمت في رفـع الروحـة المعنويـة لمصر ولباقي العرب بعد الهزيمة الموجعة.

سمة التطويل والإعادة والتكرار التي انتقدها فتحـي رضوان، وعلق عليها عبد الناصر، وأوضحها على الراعـى هي وجه ثاني لعملة يحمل وجهها الأول اتهامات لمضـامين الأغنية الكلثومية، بأنها كانـت التخـدير الـذي يسـتخدمه عبدالناصر للشعب، وكان فريق من اليسار يردد ذلك حتـى صارت أم كلثوم قسمة بين اليمين واليسـار فـي المرحلـة الناصرية، ويقدم الشاعر حجاب شهادة كاملة ومعبرة عن هذا المنحى يقول فيها: في مستهل الستينات من القرن الماضي، كنت وبعض الزملاء اليساريين ندرس هندسة المناجم بجامعة القاهرة وكان يحلو لنا أن نعابث زميلنا "توحيد رامي".. إبـن شاعرنا الرائع "أحمد رامي"، وكانت مغايظتنا له وغلاسـتنا عليه تدور دائما حول بعض أشعار أبيه التي تغنـت بهـا أم كلثوم من مثل "حتى الجفا محروم منه" أو "عزة جمالك فـين

من غير ذليل يهواك". كنا نعير "توحيد" أن رؤية أبيه "رامي" للحياة والحب تجاوزها الزمن، وأن هذه المشاعر المرضية التي يعبر عنها تحمل قدرا عاليا من "الماسوشية" وأن هذا النوع من الشعر والغناء لا يلبي الحاجات الروحية لشباب جيلنا، وأن الفن الأقرب لمشاعرنا والأصدق تعبيرا عن زماننا هو غناء عبدالحليم لأشعار محمد علي أحمد ومرسي جميل عزيز وألحان الموجي والطويل.

وكان توحيد رامي يرد على استفزازاتنا: "وانتوا إيش فهمكوا – يا شيوعيين انتو – في الفن ولا الحب ولا الحياة!".

في تلك الأيام كانت تشيع بين بعض اليساريين الشباب بعض المقولات الخائبة حول الفن والحياة، فالفنون مرآة للواقع، ونجيب محفوظ كاتب البورجوازية الصغيرة، وإبداعاته الروائية توقفت عند حدود الواقعية النقدية! بينما محمد صدقي هو أديب البروليتاريا، وروايات في قالب "الأوتشرك" الذي تذوب فيه البطولة الفردية في البطولة الجماعية، وهي النموذج الأمثل للواقعية الإشتراكية!!، والبشارة الأولى بتلك الواقعية الإشتراكية هي "أرض" الشرقاوي!! وكيف؟! ألم يتحول عبدالهادي فلاح الأرض

الشاب الى عامل صناعي بالمدينة مشيرا الى طريق الخلاص القادمة!!

يضيف حجاب: في إطار تلك المقـولات اليسـارية الطفولية كان هناك من يقول إن عبـدالوهاب هـو مطـرب الملوك والأمراء، وأنه كان رسالة فنان الشعب سيد درويش، وأن غناء أم كلثوم يعكس فكرا إقطاعيا، وأن عبدالحليم هـو صوت الطبقة المتوسطة الصغيرة! بينما محمد رشدي – بعد ذلك – هو صوت جماهير الفلاحين والعمال!! وفي تلك الأيام كان بعض اليساريين الأوروبيين يقولون إن "فرانكو" يحكـم إسبانيا بثلاثة أشياء تبدأ كلها بحرف الفاء "F" وهي الفـالانج "حزبه الفاشستي" والفلامنكو "الرقصـة الإسـبانية الشـهيرة" والفوتبول "كرة القدم"، واستعار بعض اليساريين المصـريين هذه المقولة بعد أن حوروها بكثير من التعسـف والتحـذلق فقالوا إن عبدالناصر يحكم مصر بثلاثة أشـياء تبـدأ كلهـا بحرف الآء "الألف" الكورة والحشـيش وأم كلثـوم، ورغـم شيوع مثل تلك المقولات الخائبة بين بعض شباب اليسـاريين – آنذاك- إلا أنهم "متى يختلي الواحد مـنهم بنفسـه" كـانوا يقرون بأنهم يعشقون روايات نجيب محفوظ ويذوبون نشـوة

مع صوت عبدالوهاب وشدو أم كلثوم، وربما بررروا لأنفسهم إدمانهم السري للغناء الكلثومي، بأنها، برغم غنائها لـبعض المشاعر التي يرفضونها، قد تغنت – أيضا – بـالكثير مـن روائع شوقي وحافظ والخيام وغيرهم، وأنها غمرت القلـوب بفيض من المشاعر النبيلة والقيم السامية التي تزخر بها هـذه الروائع، وربما زايدوا وتزيدوا فقالوا إنها هتفت مع الجماهير في وجه الاحتلال: وما نيل المطالب بالتمني.. ولكن تؤخـذ الدنيا غلابا، أو أنها دعت الى الإشتراكية في عهـد الملكيـة وهي تقول للرسول "ص": "الإشتراكيون أنت إمامهم" ثم أنهـا هي التي تغنت بمصر "التي في خاطري" وهللت ليوم الجلاء: "والله ما دون الجلاء ويومه.. يوم تسميه الكنانة عيـدا" و"يـا مصر إن الحق جاء.. فاستقبلي فجر الرجاء.. اليوم قـد تـم الجلاء"، وفي يوم "زفة القنال" احتضـن غناؤهـا الإنسـان المصري "ما أحلاك يا مصري وأنت ع الدفـة"، كمـا أنهـا واجهت العدوان الثلاثي بصوتها العارم المتفجر فـي رائعـة جاهين والطويل: "والله زمان يا سلاحي" وأعلنت أن "الشعب بيزحف زي النور" وبعد هزيمة العدوان الثلاثي دخلت فـي وصلة روح مصرية أصيلة لـ"ثلاث دول".. الخ.. ويضـيف

حجاب: المؤكد أن تلك المقولات النظرية الخائبة التي شاعت بين بعض اليساريين الشبان قد سقطت وذابت وحدها مع الأيام، وتراجع ذلك التحليل الطبقي المتعسف المغلوط لغناء أم كلثوم مع تنافس وعيهم بالفن والحياة، وحين اعتقلنا في خريف ١٩٦٥، كنا ندور متشابكي الأيدي في الطرقات بين العنابر في مزرعة طرة ونحن نغني لحن سيد درويش: "بس الأكادة حبسة ظلومة.. يكفينا شرك يادي الحكومة"، أو نصرخ في إنفلات هيستيري بمقطع من الأطلال "التي كانت جديدة آنذاك": إعطني حريتي أطلق يديا.. إنني أعطيت ما استبقيت شيئا". وتدور الأيام، ويتواصل نهر العطاء الكلثومي فياضا عارما، وتحل النكسة فيتنحى عبدالناصر وينطلق صوت ثومة: إرجع أنت حبيب الشعب.. فعد للشعب"، ويحتضن غناؤها شعبنا الموجوع: "يا صابر الصبر الجميل الله معك.. ما أعظمك يا شعبنا ما اروعك.. جرحك فلسطين يوجعك تزداد وجود.. وتزود الأحزان بارود في مدفعك.. الله معك.. الله معك". وحين تنطلق المقاومة المسلحة الفلسطينية.. يتفجر صوتها حماسا ويشتعل فرحا: "أصبح عندي الآن

بندقية".. ثم تخرج في رحلة المليون لإزالة آثار العـدوان.. وتتأكد مكانتها ملكة متوجة على عرش القلوب.. كل القلوب.

ويختتم حجاب شهادته بقوله: "التقيت بتوحيد "صديقي اللدود" بعد سنوات غياب طويلة، وكانت قد جرت في النهـر مياه كثيرة، كانت شمس أكتوبر قد أشرقت وغابت ورحلـت عنا أم كلثوم، ورحل بعدها رامي، وكان "توحيد" يعود إلـى مصر بعد هجرة طويلة إلى الولايات المتحدة، وكنت أنـدفع فاتحا ذراعي له، وتوحيد يستقبلني بابتسامته هامسـا: "أظـن كان عندكو حق شوية في كلامك عن شعر أبويا". وأظن إنني قلت له وأنا أعانقه: "لا.. أظن إحنا كنا مفتـريين شـويتين.. أبوك رامي ده شاعر عبقـري وأم كلثـوم دي حاجـة مـا تتكررش.. إحنا بس إللي ماكناش فاهمين" (•).

ومما له علاقة أيضا بشهادة الشاعر سـيد حجـاب، رواية يذكرها سعد الدين وهبة: "بعد أن قدمت قصـيدة أبـي فراس الحمداني "أراك عصي الدمع" أعتبر الكاتب الصـحفي سامي داود القصيدة غير اشتراكية، مشيرا في ذلك الى بيـت الشعر الذي يقول: "إذا مت ظمآن فلا نزل القطر" وقارن بينه

• - أم كلثوم بين اليمين واليسار – مقال – سيد حجاب – القاهرة – الثلاثاء ١٥ فبراير ٢٠٠٥.

وبين بيت شعر لابن الرومي: "فلانزلت علي، ولا بأرضـي سحائب ليس تنتظم البلاد"، وقال داود أن هذا البيـت يحمـل معنى الإشتراكية عكس ما قاله أبي فراس الحمداني وغنت أم كلثوم، وكان ذلك في صحيفة الجمهورية وقبـل أن يتحـول الموضوع الى قضية يتبارى فيها الجميع اتصل عبدالناصـر برئيس مجلس الإدارة وقال له: "خـلاص أغـاني أم كلثـوم هتقيسوها إن كانت إشتراكية أم لا".

يرد عمار الشريعي على كل هذه المآخذ بالعودة الى التاريخ وخصوصية حالة أم كلثوم يقـول: كانـت الأغنيـة العربية حتى مجئ أم كلثوم مبنية على أن مطرباً واحداً يقوم بالليلة، وكان ضمن مميزات أم كلثوم الشخصية أنها تستطيع تحمل هذا الوضع والاستمرار به، وحين بدأت في العشرينات في إحياء حفلات مستقلة، كان حتماً أن تسـير علـى نفسـه النهج، بمعنى إحياء الليلة من أولها إلى آخرهـا، وسـاعدها على ذلك إمكانياتها الشخصية بمعنى ترتيـب نفسـها علـى سيطرتها على جمهورها بتقديم الجديد والمختلف أثناء الليلة، وما حدث بعد ذلك هو عملية تفريق، بمعنـى أن المطـرب

يصعد إلى المسرح ويستمر لمدة ساعة ونصف يقدم خلالهـا أكثر من أغنية، فيما يعني أنها أصبحت عادة متوارثة.

يضيف عمار: نوع أغـاني أم كلثـوم أعتمـد فـي الحفلات على الفكر الاسـتطرادي مـن الشـعراء.. بيـرم التونسي.. مرسي جميل عزيز.. أحمد شفيق كامـل.. عبـد الفتاح مصطفى.. أحمد رامي.. أو غيـرهم، بمعنـى قـول الموضوع في المذهب الواحد على ثلاث مراحـل، سـاعدهم على هذا أن أم كلثوم التي تقدم أشعارهم لا تدفع الناس إلـى الملل من هذا الاستطراد.. أضف إلى هذا وجود السـنباطي بجانبها باعتباره أطول الملحنين نفسها في تاريخ الموسـيقى العربية.. لاتنتهي عنده الجملة، والمقام لديه يجر آخر..أذكـر من تراثنا العربي أن شخصاً سأل أبا العلاء المعري يقصـد شتمه: "كيف حال الكلب؟ "، فرد عليه أبو العلاء: "الكلب من لا يعرف للكلب ٩٩ اسما".. رياض السنباطي هو الذى عرف لكل شئ في الموسيقى ٩٩ اسما، وكل من لعبـت معهـم أم كلثوم من الملحنين تمتعوا أيضاً بالنفس الطويل.. ليس شرطاً أن يكون بقوة السنباطي، فالموجي قدم لها مثلا لحن "حانـت الأقدار " في سبع دقائق، لكنه يشمل كل الغناء العربى.. وإلى

جانب النفس الطويل.. تمتع كل واحد بسمة خاصة، بدءاً من انسيابية جملة زكريا أحمد، وتركيبه الليالـي، انتهـاء بـ دقاق المشاعر بليغ حمدي وصاحب الجملة الحلوة.

يستخلص عمار من ذلك.. أن عبد الناصر كان أحـد الأسرى في حب أغاني أم كلثوم بهذا النمط.. وأنه لم يحمـل رغبة حقيقة في كسر أو ضرب هذا الأسر بكـل حلاوتـه.. وتعامل مع هذا الحالة على أنها تحقق مكسباً له كفكر ثوري.. لأنها كانت بالنسبة له صانعة الوجدان.. ومادامت أنها تصنعه بهذا الشكل فليست هناك مشكلة.

هذا الاستخلاص من عمار يسلمه إلى نقطة أخـرى، وهى أن الأغنية اتسمت مع الثورة بالجدية على الرغم مـن طولها.. وكانت أم كلثوم نموذجاً في ذلك.. تسـبقها رغبتهـا الدائمة في تقديم الأحسن، وأعطاها هذا النهج الجاد والملتـزم الفرصة في الفكـر الجديـد فـي اللحـن والكلمـة والأداء، واستفادت من طريقة الارتجال والإعادة التي اتبعتهـا منـذ بدايتها في التعامل مع معارك الثورة، حيـث أشـعلت بهـذه الطريقة مشاعر الناس كلما كانت تقدم أغنية وطنية، والـدليل على ذلك الحفل الذى قدمته للضباط بعد الثورة مباشرة وغنت

فيه " صوت الوطن "..كانت تعيد جملة "نحبها مـن روحنـا" وتترك الضباط يرددونها، أى أنها قامت بدور القائـد.. كمـا أنها كانت نموذجاً في الاهتمام باللفظ المنطـوق فـي كيفيـة إخراجه.. ففي أغنية.. "والله زمان يا سلاحي" وأغنية "يا مجد يامجدنا ياللى اتبنيت عندنا".. دروس عميقـة فـي تعـريض الصوت وخفوته أو دروس في الحرف المفخم، وأخذ النفس.. أغان بسيطة لكنه تشمل دروساً فطرية ليس لكل فنان عربي، وإنما لكل إنسان عربي.

ظل عبد الناصر أسيرا في حب غناء أم كلثوم بنمطه السائد.. وعلى هذه الأرضية تعامل معها مضيفاً إليها، وحامياً لها، ومشدداً على قيمتها.. وفي سياق هذا النمط حثهـا هـى وعبد الوهاب على التعاون الفني، فكانت أغنية "أنت عمري" من كلمات الشاعر أحمد شفيق كامل.

وفي مذكرات سامي شرف سكرتير عبـد الناصـر قصة اللقاء الفني بين الموسيقار محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وتدخل عبد الناصر لتحقيقه.

يروى شرف قصة مسئول سابق كان قد أخذ من عبد الوهاب تسجيلات نادرة له لسماعها، وظل هذا المسئول ثلاث شهور كاملة دون أن يعيد هذه التسـجيلات، وحكـى عبـد الوهاب هذا الأمر لسامي شرف الذى نقله بدوره إلـى عبـد الناصر الذى استدعى هذا المسئول، ولما وجد الأمر حقيقـة طلب منه تسليمها فوراً إلى سامي شرف لإعادتها إلى عبـد الوهاب...

يقول سامي شرف:

"كان جمال عبد الناصر قد كلفني أيضاً عند تسـليمه شرائطه الثمينة بأن أبلغ الفنان العظيم الراحل عن أمله - أى أمل جمال عبد الناصر - في أن يلتقي قمتا الفن في مصـر والعالم العربي في عمل مشترك، وينبهني الرئيس ألا أضغط عند إبداء هذه الرغبة، إلا أنني عندما عرضت الفكرة علـى الأستاذ محمد عبد الوهاب قال لي: قد تنجح، وقد تفشل، وأكد أنه يحلم ويأمل بهذا اليوم فعلاً "

يضيف شرف: طبعاً أنا أبلغت الرئيس جمـال عبـد الناصر بوجهة نظر محمد عبد الوهاب، وجـاء عيـد العلـم ١٩٦٤، حيث كان قد تقرر تكريم الأستاذ محمد عبد الوهاب

وسيدة الغناء العربي أم كلثوم وعندما تقـدم عبـد الوهـاب للمنصة قال له الرئيس:

"امتى حا نسمع لحن لك تغنيه السيدة أم كلثوم؟"

فقال عبد الوهاب: حاضر يا سيادة الرئيس.

ووجه عبد الناصر نفس السؤال لسيدة الغناء العربـي فقالت: "يا ريس أنا مستعدة وجاهزة أغني أى لحن لمحمد".

وكانت "أنت عمري".

يتذكر أحمد شفيق كامل: بعد مطلب عبد الناصر لأم كلثوم وعبد الوهاب جرت اتصالات بين الاثنـين، وكانـت كلمات "أنت عمري" لدى عبد الوهاب، كنـت أعطيتهـا لـه ليقدمها هو بصوته.. وأذكر أن تلحينها لنفسه كان انتهى منـه ولما قرر عرضها على أم كلثوم أجرى تعديلات على اللحـن بالشكل الذى يناسبها.

يضيف شفيق: أنا لا أقف عادة عند هذه الحكاية التي عاصرتها بنفسي من زاوية أن عبد الناصر طلب فلبى عبـد الوهاب كما لبت أم كلثوم.. وإنما أنظر إليها بمعيـار فطنـة الرجل في نظرته إلى الإثنين.. ونظرته أيضاً إلى عبد الحليم حافظ على أنهم ثروة قومية.

يؤكد شفيق: "كانت نظرة عبد الناصر إلى الفن تنطلق من أنه وعاء هام يجمع فيه كل الجوانب التي تنبه الناس إلى قضايا الوطن..وكانت أم كلثوم بين الجميع لها مكانة خاصـة عنده.. وطلبه لتعاونها مع عبد الوهاب كان صافياً وهادفاً إلى إثراء الفن، والدليل أنه لم يطلب منهما، أوهما فهما منه رغبة له مثلاً في تعاونهما في عمل فني يمجـد شخصـه.. الـتقط الاثنان إشاراته وأنجزا عملاً فنياً عاطفياً.. حملني شخصـياً إلى مزيد من الحب لعبد الناصر، حب لم يغادرني أبداً منـذ إطلاق الرصاص عليه في ميدان المنشية بالإسـكندرية عـام ١٩٥٤.

يعود شفيق إلى ما يسميه بـ "حكاية" طول الأغـانى أو قصرها، ليقول: لم يكن في ذهن أحد منـا آنـذاك تلـك القضية.. الأساس كان فيما تقوله الأغنية، وما يحمله اللحـن من موسيقى شرقية أصيلة.. كانت حفلات أم كلثـوم مزيجـاً يجمع غسيل النفس. الفرح.. تجديد الوجدان.. يقظة الضمير.. كان الجمهور يذهب إلي حفلها في أبهى صوره..أناقـة فـي الملبس..اهتمام بالشكل.. طقوس خاصة.. كان هذا يبدو كنوع من التقاليد الصارمة المحببة إلى النفس..يتساءل شفيق ماذا لو

كانت كل هذه التقاليد في الجوانب الأخرى للمجتمع؟.. ويقول: في هذا الإطار لم يكن يملك أحد القدرة على تغيير نهج أم كلثوم.. هذا ما فهمه عبد الناصر.. وعلى كل فإنه يكفي للغناء العربي أن عبد الناصر رغم مشاغله السياسية الضخمة والصعبة استطاع أن يجمع بين أم كلثوم وعبد الوهاب.. آه لو فعلها قبل ذلك قدم شفيق تلميذ رامي لأم كلثوم بعد ذلك أغنيات ناجحة هي، أمل حياتي، الحب كله، ليلة حب، ورغم نجاحه الباهر في أغنياته الوطنية مع عبدالحليم حافظ إلا أنه لم يكن كذلك مع أم كلثوم ويعلق على هذا:

كان لأم كلثوم شعراء في هذا المجال.. كما كان لعبد الحليم.. المهم أن الحالة كانت في اتساع.. ولا نتوقف عند من يكتب لعبدالحليم، ومن يكتب لأم كلثوم؟" مع ذلك أنا قدمت لها أغنية واحدة فقط، وأذيعت مرة أو مرتين على الأكثر وكان أثناء انفصال مصر وسوريا عام ١٩٦١:

يقول مطلعها:

"باسم مين يا خارجين ع الشعب قمتم

باسم مين

باسم إسرائيل والاستعمار ولا باسم الشعب

الشعب البطل منكم برئ

يا مفرقين ما بين قلوب المولى جمعها في طريق.."

أذكر أن رئيس الإذاعة آنـذاك حسـنى الحديـدي.. أبلغنى يومها أن أم كلثوم تطلب أغنية عن الانفصال. والمؤكد أن مطلبها هذا جاء نتيجة الصدى الجماهيرى الرائع لأغـانى عبد الحليم الوطنية التي أكتبها له أنا وصلاح جاهين... كانت لقضية الوحدة بالنسبة لنا مذاق خاص، فهي من أهم أحلامنـا القومية.. وفور إعلان خبر الانفصال كانت الآلة الإعلاميـة على أشدها.. وكنا نتـابع مقاومـة مدينـة حلـب العنيفـة للانفصاليين.. سمعت الخبر فكتبت أكثر من أغنيـة، واحـدة منها قدمتها المجموعة من ألحان على إسماعيل.

يضيف شفيق: فور أن أبلغنـي الحديـدي بطلـب أم كلثوم.. كانت كلمات الأغنية جاهزة، وأبلغها الحديدي بـذلك، وطلبت منى التوجه على الفور إلى منزلها، وكـان عنـدها رياض السنباطي.. وخلال ثلاث أو أربـع سـاعات أنجـز السنباطي اللحن، وتم تسجيله على الفور في الإذاعة، وبعـد إذاعته صدر قرار من جمال عبد الناصـر بوقـف الحـرب

الإعلامية بين مصر وسوريا، وشمل القرار كل الأغاني التي تدخل في هذا السياق.. ومنها أغنية "باسم مين".

ويتذكر أحمد سعيد

مثل أي إنسان مخاص يعتز ضميره وتهتز مشـاعره كانت الدموع تفر من عيني أم كلثوم وهي تسجل في الإذاعة أغنية " باسم مين " ردا على مؤامرة الانفصال. ممـا جعـل صوتها يهتز وتعطل التسجيل لفترة طويلة، ونحـن نتعجـل لإذاعة الأغنية لما لأم كلثوم من تأثير في مثل هذه المواقـف الصعبة.. وكان رياض السـنباطي ملحـن الأغنيـة علـى أعصابه، وهو رجل مهذب جدا ويبدو هادئا جدا، لكـن فـي أعماقه ثورة مكتومة، ولكنه يسيطر على أعصـابه عاطفيـا، ولكن أم كلثوم كانت مهتزة نفسيا وعصبيا لوقوع الانفصـال ويظهر في دموعها التي لا تستطيع منعها، فتضـطر طلبـا لجودة التسجيل أن تعيد مرة أخرى، وهكذا إلى أن أنتهت منه بعد وقت طويل.

لماذا تأخر التعاون الفنـي بـين عبـد الوهـاب وأم كلثوم؟.. وهل كان الأمر يحتاج إلى تـدخل عبـد الناصـر شخصيا؟

يقول عبد القادر حاتم وزير الإعلام مع عبدالناصـر في الستينيات وحتى السادات في السبعينات:

ـ نعم كان التعاون بينهما يحتاج إلى تدخل شخصى بحجم وقيمة عبد الناصر.

ويتذكر: جمعتنى الصداقة بالاثنين... عبد الوهاب وأم كلثوم.. وفي نفس الوقت عملت مع عبد الناصر.. وكان لعبد الوهاب وأم كلثوم المبررات الخاصة في عدم التعاون بينهما. وأبرزها أن أم كلثوم كانت تتوجس من أهداف عبد الوهـاب من هذا التعاون، لأنه يريد استثمار صوتها لصالح موسـيقاه، وأذكر أنه بعد انتهاء الحفل الذي قدمت فيه "أنـت عمـري"، اتصلت بى تليفونياً، وقالت: "شوف عبد الوهاب عمل الأغنية كلها موسيقى"، وفي اتصال تليفوني بعبد الوهاب، فوجئت به يسألني: إيه رأيك في موسيقى الأغنية؟، دون أن يسأل عـن أداء أم كلثوم".

كانت الأغنية الكلثومية العاطفية على طولها هي، كما هي، كما هي لدى عبدالناصر وفي حالتها الإجمالية مبدعـة تستحق الكثير والكثير.. لا يسحب من رصيدها أى وجهـات نظر سلبية في تقييم اغنيتها، أو طريقة تقديمها في حفلاتهـا

التي اعتبرها فتحي رضوان بطرف خفي "عمليـة تعـذيب"، وإنما جمعت من وجهة نظره كما يقـول د. علـي الراعـي "تسرية الفن وتسييسه". وتأسيساً على ذلك كان موقـف عبـد الناصر الحاسم في ضرورة حصول أم كلثوم علـى جـائزة الدولة التقديرية باعتبارها مبدعة، وليست مؤدية عام ١٩٦٧، وذلك بعد ثماني سنوات كاملة من ترشيحها.. في عام ١٩٥٩ رشحتها اللجنة الموسيقية العليا، وقالت في مبررات الترشيح:

إنها تقوم بأعمال فنية ممتازة من حيث التوجيه الفني والأداء الذى انفردت به، بما يضـفي عليـه قـوة التعبيـر والابتكار، ويجعل من تصرفها فيه "لوناً من التأليف بالغ الأثر في استكمال التأليف الأصلي، وقد رفعت أم كلثوم المسـتوى الفني وساهمت بأكبر نصيب في نهضة الموسـيقى العربيـة وتطويرها مع المحافظة على طابعها، مؤدية بـذلك الخدمـة الكبرى للقومية العربية عامة وبلادها خاصة، وهى إذ تقـوم بأداء هذه الرسالة الكريمة منذ حقبة طويلة من الزمن، جاهدة في نشرها وعرضها وتنفيذها، فإنها قد نجحت النجاح الأوفي الذى يجعلها جديرة بأن تتوج جهودها بهذا التقدير السامي.

هذا هو نص التقرير الذى تقدمت به اللجنة الموسيقية العليا في عام ١٩٥٩، ولكن اللجنة الخاصـة التـي تراجـع الترشيحات داخل المجلس الأعلى لرعايـة الفنـون والآداب والعلوم الاجتماعية وكانت برئاسة الدكتور حسـين فـوزي، رفضت منح أم كلثوم جائزة الدولة التقديرية لأنهـا مؤديـة وليست مؤلفة، ويبدو أن الرأي كان متداولاً ومعروفاً مقـدماً، ولذلك كانت اللجنة العليا حريصة في تقريرها على أن تثبـت أن أداء أم كلثوم يجعل من تصرفها فيه لوناً من التأليف بالغ الأثر في استكمال التأليف الأصلي، على الرغم من ذلك لـم تمنح أم كلثوم جائزة إلا في عام ١٩٦٧، بعد تدخل جمال عبد الناصر شخصياً ودهشته الشـديدة ممـا سـمعه عـن رأي المسئولين عن الموسيقى في المجلس الأعلى لرعاية الفنـون والآداب من أن أم كلثوم لا تستحقها لأنه مؤدية وليس مؤلفة، وفي عام ١٩٦٧ اجتمعت اللجنة برئاسـة توفيـق الحكـيم، وقالت:

"قدمت أم كلثوم إلى الدولة فـي جميـع المناسـبات القومية صورة من تفاعل الفن وتجاوبه مع الأحداث الكبيرة.. وأشاعت التذوق الجمالي عن طريق اللحن والـنغم بصـوتها

الفريد.. الأمر الذى فرض نفسه فنياً على جميع المسـتويات المحلية والعربية، فاستطاعت أن تضيف إلى التاريخ الفنـي مدرسة تعتمد على صفات لها قيمة استمرار التراث الفنـي، وفي الوقت نفسه بعيدة عن التجمد، مما أعطاها التطوير الحى المستمر".

ومن تقرير لجنة توفيق الحكيم كما يقول سعد الـدين وهبة: أنها أعتمدت في قرارها لاستحقاق أم كلثوم للجـائزة، على أسباب سياسية و ثقافية وليست فنية، فهى تتجاوب مـع الأحداث القومية، وهى (تشيع التذوق الجمالي) وهي (تضيف إلى التاريخ الفني مدرسة تعتمد على صفات لها قيمة استمرار التراث بعيدة عن التجمد).. ويؤكد سعد الدين وهبة أن تدخل عبد الناصر لم يكن نتيجة شكوى من أم كلثوم إليه، فهى لـم تستثمر علاقتها في شئ لصالحها، يؤكد ذلك الكاتب الصحفي محمود عوض قائلاً: كانت علاقتي الخاصة بأم كلثوم كسـراً لقواعد علاقتها التقليدية مع أهل الفكر والثقافة.. كنت صغيراً في السن، ولم يكن من بين أصدقائها أقل من رئيس تحريـر، أو كاتب كبير.. وطوال فترة لقاءاتى بها، لم تتحدث أبدا على

خصوصيته علاقتها بعبد الناصر، وأذكر أنها تعاملـت مـع مشكلتين كبيرتين آنذاك لحلهما بمفردها دون اللجوء إليه.

# ٦

# صدمة أكبر

تظل نكسة ١٩٦٧ الطعم المر في مسيرة ثورة يوليو وعبد الناصر، والعلامة الفارقة بين الانكسار والحلـم، لـدى الجيل الذى عاش معارك الثورة وتغنى بها..وتظـل أيضـاً صفحة هذه النكسة وما تلاها من سنوات الاستنزاف ناصـعة البياض في قيمتها في حياة أم كلثوم التي ما لبثت أن نفضـت الحزن والانكسار لتجوب البلاد شرقاً وغرباً من أجل مصر.

غنت أم كلثوم حتى النكسة لمعارك الثورة في الداخل والخارج..غنت للجلاء والسد العالي، وتأميم القناة، والتعبئـة الجماهيرية أثناء العدوان الثلاثي عام ٥٦.. غنـت للوحـدة المصرية السورية عام ١٩٥٨ ثم الانفصـال عـام ١٩٦١.. واتساقا مع البعد القومي للثورة.. غنت للعراق في ثورته ضد عبد الكريم قاسم "شعب العراق الحر ثـار... وبأيـده حقـق الانتصار"، وغنت للثورة الفلسطينية مع انطـلاق معاركهـا المسلحة..

ويقول سعد الدين وهبة: سألتها ذات مرة.. لماذا لـم تغني للقضية الفلسطينية، فأجابت: لما يدافعوا عن وطـنهم..

ومع بدء المعارك المسلحة للثورة الفلسطينية قدمت قصـيدة نزار قباني: "أصبح عندي الآن بندقيـة".. غنـت للجزائـر واليمن.

كانت الحصيلة حتى النكسة مساهمة كبيرة قال عنهـا المؤرخ والناقد الموسيقي فرج العنتري: "خرجت الأغنية من دائرة الـ "أنا" إلى دائرة الـ "نحن".. تلك الدائرة التي دخلت بالوطن وبالمواطنين في دائرة الحب العصري، الـذى كـان محصوراً من قبل في الغزليات والمعاينات.. تلك الدائرة التي صدحت فيها التعابير عن بذل الدم في سـبيل حيـاة الأهـل والعمل والاستقلال، وفي حراسة المقومـات الوطنيـة مـن الأرض والعرض، وفي التصدي بكل أسـلحة القتـال لمـن يعتدي على هيبة المقدسات القومية وفي الزهـو باحتضـان الوجود البهيج لمعطيات الحياة اليوميـة لثـورة ٢٣ يوليـو، بأصدق مدلولات الكلام..ومن أحلى ترنيمات الأنغام.

هجر الحلم أم كلثـوم مـع النكسـة... كمـا هجـر الملايين.. غير أن طعم المرارة في حلقها كان مختلفاً..فهـى التي غنت لتشحذ الهمم.. وتبشر بالغد، وحاصرتها كغيرهـا

علامات استفهام عما تغنت به في الماضي.. هل كان صدحا خارج السرب؟.. أم أن السرب كله كان يكذب؟

كان تواصلها مع الثورة وقائدها قد بلغ ذروتـه فـي التقدير إلى درجة أنها ـ كما يقول سعد الدين وهبة ـ كانت من الشخصيات القليلة التي تحدثت برفقة الصـحفي اللبنـاني سعيد فريحة مع عبد الناصر في أمر اعتقال مصطفى أمـين. واستمع إليها عبد الناصر رغم قسوة هذا الموضوع عليـه.. أضف إلى هذا عمق العلاقة التي جمعتها بالسيدة تحية كـاظم قرينة جمال عبد الناصر- كما أشرنا مـن قبـل - والتـي وصلت إلى درجة يقول عنها محمد الدسوقي: "كانت السـيدة تحية تزور أم كلثوم في فيللتها بالزمالك.. وأم كلثوم تزورها في بيتها بمنشية البكري"، بل إنها أحياناً كانت تبيـت هنـاك بدعوة من السيدة تحية..كما أنها كانت مـع قرينـة الـرئيس ضمن أى وفد نسائي يقابل زوجة رئيس ما في بيـت عبـد الناصر"، ويروي عمار الشريعي حكاية استمع إليها من أحـد المقربين منها.. "كانت أم كلثوم تجلس مع السيدة تحيـة فـي منزلها، بمنشية البكري.. ودخل عليهما عبد الناصر.. فداعبته أم كلثوم قائلة: "مش تخبط يا ريس... اتنين ستات قاعدين مع

بعض" فضحك وقال لها: " حاضر يا ست"... وخرج ثـم دق على الباب ليستأذن في الدخول.

أي درجة يمكن تصورها بعد ذلك من واقع مـرارة النكسة عليها.. وهي ترى القائد الذى وضعت معه وفيه كـل أحلامها يعيش أكبر انكساراته، وانكسـارات أحلامـه التـي دغدغت مشاعر ملايين العرب من المحيط إلى الخليج.

كانت لها كما يقول سعد الدين وهبة طقوس خاصـة حين تقع لها كارثة ما.. تنزل إلى "بدروم" المنزل.. لا تتحدث مع أحد، ولا تقابل أحداً، تعيش مع نفسها وتفكيرهـا فقـط.. وحين تأكدت من خبر النكسة مارسـت عادتهـا، وبرفقتهـا مذياع، ومنه استمعت إلـى خبـر تنحـي عبـد الناصـر.. فانتفضت... تقول أم كلثوم:

"كنت منذ الساعة التي تأكدت فيها أنباء النكسة، قـد خاصمت النوم، ولم يعد لي هم بالليـل ولا بالنهـار، إلا أن أتفرغ لدموعي، وأتوجه إلى الله في صلاتي وضـراعتي أن يمدنا ببصيص من الأمل في إنقاذ مصر.. فلما أعلن " جمال عبد الناصر، نبأ تنحيه عن الحكم، فقدت الأمل في إطلاله هذا البصيص من الأمل، وكنـت لا أفتـأ اتصـل بأصـدقائي،

وأصدقائي يتصلون بي، ليل نهار لعل أحدنا يجد عند الآخـر نبأ يكشف الغمة ولا حديث لنا جميعا إلا عن المأسـاة التـي إزدوجت وأطبق عليها اليأس بتنحي " جمال " عن مكانـه.. وفي تلك الليلة، قلت لصديقي صالح جودت، ونحن نتحـدث بالتليفون: إن الأمل الباقي، هو أن يبقى جمال عبد الناصر في مكانه. وبعد منتصف الليل، عاود صالح جودت الاتصال بي، وتلا على هذا المعنى منظوما في أنشودة تحمل صورة نـداء إلى جمال، مطلعها:

قم واسمعها من أعماقي / فأنا الشعب / أبـق فأنـت السد الواقي / لمني الشعب / ابق فأنت الأمل البـاقي / لغـد الشعب / ابق فأنت حبيب الشعب

وأملى علي كلمات الأنشـودة بـالتليفون، وأيقظـت "رياض السنباطي"، وأمليتها عليه بالتليفون أيضا.. ولم يـنم السنباطي ليلته.. وفي الصباح، كان قد انتهى من تلحينهـا.. وبعد يوم واحد سجلتها وقدمتها الإذاعة للجماهير.. جماهير ٩ و١٠ يونية.. التي خرجت عن بكرة أبيها، في حلكة الإظلام، وتحت وابل من قنابل العدو، تطالـب ببقـاء جمـال عبـد الناصر".

ويقول محمد الدسوقي: "كانت صدمتها أكبر.. غرقت في الحزن، حبست نفسها في حجرة بدروم الفـيلا.. أطفـأت النور، وربطت رأسها بمنديل لعله يخفف الآلآم.. لا تحـدث أحدا.. ولا تأكل.. لكنها بعد فترة خرجـت مـن البـدروم.. وسمعتها تقول: لازم نلم البلاد العربية حوالين مصر".

يشدد أحمد شفيق كامل على أنهـا كانـت شخصـية مخيفة في امتيازها.. شئ عملاق بلا حدود، خاصة في هـذه المرحلة، يقول: "عظيمة في كـل شـئ متعلـق بفنهـا،... الإعداد.. البروفات.. الحفلة.. وإذا انتهت من كل هذا نجدها الإنسانة الريفية البسيطة الساذجة بنت طماي الزهايرة.. أيـام النكسة كان كل مصري عنده إحساس بالعجز.. وكأن خنجراً مغروساً في قلبه.. بالطبع كان طعم المرارة أكبر في حلـوق الفنانين الذين تغنوا للثورة وبها.. أما هي فكانت "حاجة مـش معقولة".. تسأل... تتصل بكل الناس كي تعرف إيـه اللـى ممكن يتعمل.. يا فلان..ياعلان.. نعمل إيه؟...أنا مش عايزة الاقتراحات اللى أنا أعرفها.. عايزة اقتراحات ثانيـة هكـذا قالت لي".

قدمت على الفور لحنها: "أبقى فأنت الامل الباقي لغد الشعب.. وقدمت:

"قوم بإيمان وبروح وضمير / دوس على كل الصعب وسير".. وذلك في محاولة لاستنهاض الهمم، وكسـر شـوكة اليأس.

جاء هذا في محاولة منها للإبقاء على كمية الـرنين الصادح في الغناء، يقول الناقد والمـؤرخ الموسـيقى فـرج العنترى:

كان الرنين صادحاً في أغانى البلاد قبل النكسة.. حيث الصياغة من حيث البناء والموضوع تقوم على الـ ـ "نحـن" وأمل الجميع في تحرير الأرض والعرض.... والحض على ممارسة الصمود والاستنزاف....غير أن الملاحظة تكمن بعد النكسة في دخول ثلاثة روافد في النشـاط الغنـائي.. الأول: رافد التماسكيين في عمليات تحركهم الناجح بالنغمة العربية.. من حنجرة أم كلثوم في سفرياتها الدورية إلى مختلف عواصم العرب لإثبات استمرارية الوجود الكلي للعرب بفاعلية، وعلى كل ساحة الوطن الكبير من المحيط إلـى الخلـيج، وروافـد الهروبيين الـذين صـدمتهم النكسـة بقـوة فـوق طـاقتهم

الغضروفية، فلجأ بعضهم إلى الهروب النفسـي مـن بيئـة الحادثة وسيرتها بالاغتراب بالتعامل مع أغاني الديسكو الآتية من لغات أجنبية.. أم الرافد الثالث فتمثل في لجـوء الـبعض إلى ممارسة نوع آخر من الاغتراب باستهلاك "العدويات" في تنغيم وترقيص اللامعقول من الألفاظ والأسماء والحروف.

تربعت أم كلثوم على رافد التماسكيين..

يقول أحمد شفيق كامل: رفعت أم كلثوم بعد النكسـة شعار "الفن من أجل المجهود الحربي"، وقالت: "لن يقفل لـى جفن وشعب مصر يشعر الهزيمة"، وجاء هذا اتساقاً مع جهود عبد الناصر لإصلاح ماتم، ورفعه شعار "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة"، وشعار "ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة".

طافت أم كلثوم عواصـم المحافظـات المصـرية، وعواصم الأقطار العربية لهذا الغرض..وذهبت كل الحصيلة المالية إلى المجهود الحربى. في المنصورة حققت إيرادا قدره ١٢٥ ألف جنيه، وفي دمنهـور ١٣٥ ألـف جنيـه، وفـي الإسكندرية ١٠٠ ألف، وفي طنطا ٢٨٣ ألف جنيه.

خارج مصر.. جابت البلاد العربية، وذهبـت إلـى باريس، ثم موسكو في حفلة لم تتم.. كان استقبالها في حفاوته

لا يقل عن استقبال الرؤساء.. بدءاً من حـرص الحكومـات العربية على أن يكون في استقبالها مسئول رسمى... انتهـاء بخروج الجماهير الغفيرة لاستقبالها.

غنت في تونس بحضور رئيسـها آنـذاك الحبيـب بورقيبة.. وفي المغرب بحضور العاهل المغربـي الراحـل الملك حسين الثانى، وفي الخرطوم بحضور كـل القيـادات السياسية السودانية.. نفس الأمر في لبنان وليبيا، وأبو ظبـى والكويت.. في باريس قال الرئيس الفرنسى الراحـل شـارل ديجول: "لمست معهـا أحاسيسـي وأحاسـيس الفرنسـيين جميعاً"...وحققت من هذه الحفلات ٢١٢ألف جنيه اسـترلينى ذهبت جميعها إلى المجهود الحربى.. إلى جانب ذلك كانـت تجمع التبرعات التـي وصـلت إلـى مئـات الالآف مـن الدولارات.. وفي الكويت مثلاً كانت كل التبرعات للمجهـود الحربي من سبائك الذهب.. جمعت ٣٥ كيلـو مـن الـذهب الخالص..كان هذا يتم في الوقت الذى يستمع في الجنود على الجبهة إلى رسالة يومية بصوتها عبر الإذاعة.

ذهبت أم كلثوم إلى هذه الـبلاد تسـبقها تلقائيتهـا، ووطنيتها، وعشقها لمصر وعروبتهـا.. سـألتها الإذاعيـة

الراحلة سلوى حجازي أثناء رحلتها إلى فرنسـا: مـا هـو المكان المفضل لك في باريس؟

أجابت بلغة عامية بسيطة: المسلة لأنها من عندنا.

أثناء زيارتها للخرطوم.. سألتها الإذاعيـة الراحلـة أماني ناشد عن انطباعاتها عن السودان وأهله؟

أجابت: السودانيون دول أهلنا.. احنا وهم إخوان لإننا إحنا الإثنين أولاد النيل..

وأبدت أماني ناشد ملاحظـة حـول طريقـة أكـل السودانيين للأرز في إحدى الحفلات الرسمية التـي أقيمـت على شرف سيدة الغناء العربي الزائرة، حيث كان السودانيون يقومون بتكوير الأرز بين أصابعهم بطريقتهم التقليديـة ثـم يقذفون به إلى الفم.

قالت أم كلثوم: وإيه الغريب في كده.. ما أنـا كنـت بأكله بنفس الطريقة في طماي الزهايرة.

ويروى الكاتب يوسف الشريف أحد أبرز المختصين المصريين في الشأن السوداني والذي رافـق أم كلثـوم فـي رحلتها للسودان، أن غناءها في الخرطوم كان حـدثا ثقافيـا

مقدرا يفوق كل إنجازات أجهزة الاعلام والثقافة والدبلوماسية المصرية منذ إستقلال البلدين في الخمسينات.

ويتذكر الشريف: عايشت السيدة أم كلثوم عن قرب على مدى أسبوع كامل عندما دعتني إلى رفقتها خلال رحلتها الغنائية في السودان في إطار مشروعها القومي لجمع الأموال العربية الخاصة بإعادة بناء الجيش المصـري إثـر نكسـة ١٩٦٧، قلت لها ونحن في طريقنا جوا إلى الخرطـوم : أن أهل السودان لا يحبون أغاني الهجر والصـد والفـراق ولا يطيقون الاستسلام طويلا للأحزان والنكد والخصـام، لأنهـم يعشقون المرح والغناء والرقص وأفراح الحب، ونشوة اللقاء، وقلت للسيدة أم كلثوم كذلك أن أهلنا في السـودان ينتشـون طربا للغناء، وغالبا ما يمارسون أسلوب "الشيل" أي ترديـد الغناء والتصفيق وراء المطرب وأن وجـدانهم مـزيج بـين العربية والأفريقية.

يضيف الشريف: "وهكذا حين وقفت أم كلثوم علـى المسرح القومي في أم درمان اعتمدت أسلوبا جديـدا وغيـر مسبوق في غنائها، إذ برغم أن أغنياتها طويلة زمنيا وبطيئة الإيقاع إلا أنها نجحت بذكائها، وحضورها الطاغي، وحسـها

المرهف في السيطرة على مشاعر المستمعين وجـذبهم إلـى تذوق أنغام سلم الموسيقى العربية الخماسي البطئ، وأعفـت السودانيين من ممارسة عادة "الشيل" عبر ترديـد كوبليهـات أغنيها وراءها، وقنعوا بإستعادة إيقاعاتها السريعة الراقصـة، بل إنها كانت غاية في السعادة والترحيب بجمهور المستمعين في الترسو عنما اهتزت أجسامهم طربـا ونشـوة ورقصـا، ويتذكر الشريف: لذلك كتبت عن لياليها الخالدة في الخرطوم تحقيقا بعنوان: "أم كلثوم تسودن أغانيها"، وذلك أن أغنياتهـا كانت ولأول مرة مزيجا بين السلم الخماسي فـي الموسـيقى السودانية، والسلم السداسي في الموسيقى العربيـة، وأحسـن الظن أنه كان تزاوجا لا فراق بعـده أثمـر هـذه المشـاعر التاريخية التي وحدت بين الوجدان المصري والسوداني عبر صوتها الساحر، وأن زيارة أم كلثوم وغناؤها في السـودان كان حدثا ثقافيا مقدرا يفوق كل إنجـازات أجهـزة الاعـلام والثقافة والدبلوماسية المصرية منذ إسـتقلال البلـدين فـي الخمسينات".

تبقى حفلتاها في باريس على مسرح "الأوليمبيا" أكبر مسارح فرنسا، نموذجا في الوطنية مهما كان الـثمن.. كـان

مدير المسرح "بيرونوكوكاتـديس" يهوديـاً، وحـين انتهـت الوصلة الأولى، اندفع إليها أثناء الاستراحة.. يطلب منهـا أن تمنع مقدم الحفل الإذاعى الراحل جلال معوض مـن حديثـه أثناء تقديمه لها، والذي أشار فيه إلى تحرير القدس، وحتميـة الانتصار على إسرائيل، وتحرير كـل الأراضـى العربيـة المحتلة، واعتبر كوكاتديس أن هذا الكلام لا يصح لأن الحفلة فنية، وليست مناسبة وطنية.. لم تهتز أم كلثوم من هذا الكلام، بل رفعت رأسها في شموخ وهي تجلس على الكرسي، وقالت له: إنها مناسبة وطنية، وإن ما تفعله مرتبط بقضية بلادهـا، وإن ما جاء بها إلى باريس ليس الغناء، وإنما واجب وطنـي يقوم به الفن في أوقات المحن، وزادت في قولها: أنا طلبـت من مقدم الحفل جلال معوض أن يقول ما قاله، وإمعانا فـي التأكيد على موقفها، أضافت أم كلثوم لمدير المسرح: إذا كان حديث مقدم الحفل لا يروق لك فأنت غير مجبر على قبوله.. وبإمكاننا إلغاء الحفل، واشارت إليه بأنـه تحلـه مـن كـل الالتزامات المبرمة في العقد الموقع بينهما، ثم التفتـت إلـى أعضاء فرقتها الموسيقية قائلة: "لموا الآلات يا أولاد".

تراجع كوكاتديس على الفور حين شاهد إصـرار أم كلثوم، وتصميمها على موقفها مهما كان الثمن، وقالوا لهـا: "سيدتى ليكن لك ما تريدين" وعلى الفور عاد صوت جـلال معوض يقدم الوصلة الثانية، مؤكداً حتميـة تحريـر الأرض المحتلة، والانتصار على إسرائيل.

كان الكاتب الصحفي محمد سلماوي طرفا في هـذه القضية في مرحلة توقيع العقد معها.

يقول سلماوي: جاء كوكاتـديس صـاحب مسـرح "الأوليمبياد" أشهر مسارح باريس ليعرض على أم كلثوم تقديم حفلتين غنائيتين عليه، وكان هذه أثناء قيامها بتقديم الحفـلات في بلاد العالم وتحويل دخلها لصـالح المجهـود الحربـي.. طلبت أم كلثوم من كوكاتديس أعلى أجر دفع في هذا المسرح الذى غنت عليه أسطورة الغناء الفرنسى إديث بياف، وكذلك إيف مونتان، وشارل أزنافور، وجوليت جريكـو وغيـرهم، والذى كان يعتبر أعلى محطة فنية في الرحلـة الفنيـة لأى مطرب فرنسى.

يضيف سلماوي: قابلت أم كلثوم لأول مرة في نفـس تلك الفترة، حيث كنت أحضر مع شـقيقتي إحـدى حفلاتهـا

بسينما قصر النيل، وعلم شاعر الشباب أحمد رامـي أثنـاء حديث معه أننا أحفاد جدي لوالدتي محمد شتا الذى توفي عام ١٩٤٦، فأصر على أن يقدمنا لأم كلثوم، وما بين الوصـلتين سحبنا أحمد رامي من أيدينا، ودخل بنا عليها، فقد كان - كما عرفت بعد ذلك - يهوى دائما البحث عن أى عـذر ليـدخل إليها أثناء الاستراحة، وقال رامي لأم كلثوم: إنهمـا أحفـاد فلان.. هل تتذكرينه؟ فحيتنا تحية حـارة.. وقالـت: الباشـا الكبير؟.. لا أنسى أبداً أى إنسان كان له الفضل عليّ.

كان محمد شتا كما يقول حفيده محمد سلماوي: رجل أعمال عصامياً ترك عائلته في دسوق بكفر الشيخ، وجاء إلى القاهرة فصنع الملايين بساعديه وحده، وكان صديقاً حميمـاً لطلعت حرب باشا، ومن هواة أم كلثوم، وسمع مـن طلعـت حرب أنه بعد نجاح فيلم "وداد" عام ١٩٣٦، يفكـر اسـتديو مصر في إنتاج فيلم جديد لأم كلثوم في العام التالي، وهو فيلم "نشيد الأمل".. فقال محمد شتا: بل يجب الشروع فـي هـذا الفيلم فوراً، وقرر محمد شتا أن يتبرع بميزانية إنتاج الفـيلم بالكامل لحساب الاستديو الذى أسسه صديقه طلعت حـرب،

وتم بالفعل إنتاج فيلم "نشيد الأمل" عـام ١٩٣٧، وظلـت أم كلثوم تذكر هذا الجميل، حتى أنها أهدته إحيـاء حفـل زواج كبرى بناته إلى والدي.

يضيف سلماوي: حين قابلت برونوكوكاتـديس فـي القاهرة، وعلم مني أنني قابلت أم كلثوم أخيـراً، رجـاني أن أتصل بها تليفونياً لأخبرها، بأنه قد وافق على جميع طلباتهـا المتعلقة بالأجر، واتصلت بالرقم الذى أعطاه لـى.. طلبـت التحدث إلى السيدة أم كلثوم فجاءني صوتها الهادئ الوديـع، فقد كان لها صوتان... الصوت الذى نعرفه في الغناء الهادر كالشلال، والذى يكتسح كل ما في طريقه، والصـوت الـذى يعرفه من يحادثونها، فصوت الكلام عندها كان دائماً هامسـاً رقيقاً.. وإن كان واثقاً من نفسه.

قلت لأم كلثوم: كنت سـيادتك طلبـت مـن مسـيو كوكاتديس.

قاطعتنى بسرعة: بل هو الذى طلب منى.

قلت: أقصد أنه كان لك طلبات محددة، وطلب منـي إبلاغك أنه موافق عليها جميعاً.

وهكذا تحدد موعد للقاء صاحب "الأوليمبيـا" مـع أم كلثوم حيث تم توقيع العقد بأعلى أجر دفعه المسرح حتى ذلك التاريخ، وقد كان لأم كلثوم بعض الطلبات الأخـرى، ممـا يختص بأعضاء فرقتها الموسيقية وإقامتهم في باريس، وتمت الاستجابة لها جميعاً.

كانت سبب لجوء كوكاتديس إلى سلماوي هو اللغـة لتسهيل التفاهم مع أم كلثوم، حيث كان لا يتحدث إلا الفرنسية وبعض الإنجليزية، يقول سلماوي: لم تكن هناك مشكلة لغـة بالنسبة لأم كلثوم حيث كان بإمكانها التحدث إلى كوكاتـدس بالفرنسية، إذا أرادت.. فقد تمكنت ابنة قرية طماي الزهايرة من تعليم نفسها ليس فقط اللغة الفصحى والشـعر الجـاهلي، الذى كانت تعشقه، وإنما أيضاً اللغة الفرنسية بالقـدر الـذى يمكنها أن تتفاهم بها، وتعبر عما تريده، وقد لاحظ ذلك مـن صاحبوها في باريس، ومن بينهم الإذاعية الراحلـة سـاوى حجازي، والتي كانت تجيد الفرنسية كأهلها، لـم تتحـدث أم كلثوم مع كوكاتديس إلا بالعربية.. وكان عليه دائماً أن يبحث عمن يترجم له ما تقوله "مدام أم" كما كان يسميها، فقد كـان

يتصور، أنه أم هو أسمها الشخصى، أما كلثـوم فهـو أسـم والدها، ولم يكن يناديها إلا باسم "مدام أم".

يتساءل سلماوي: أليس في موقف أم كلثوم من لغتها العربية معنى ما.. وهل لو كانت المطربة غير أم كلثوم كانت ستتمسك بلغتها؟!.

لم يقف عطاء أم كلثوم في هذه المرحلة عند موقفهـا الحاسم بشأن ما قدمه جلال معوض على المسرح، أو تمسكها بلغتها العربية، رغم إجادتها الفرنسية، وإنما انتقل إلى أشـياء بسيطة لكنها تحمل دلالات عميقة.

يقول سعد الدين وهبة: اتصلت من بـاريس بـوزير الثقافة، د.ثروت عكاشة تخبـره أن بحوزتهـا ٥٠٠ جنيـه استرلينى، وكان أجرها قد تم تحويله إلى المجهود الحربـى.. قالت لثروت: إذا كانت الوزارة تحتاج إلى عملة صعبة لشراء أى شئ، فسوف أعطى لكم الـ ٥٠٠ جنيه الاسترلينى، على أن توفروا لى بدلا منها عملة محلية حتـى أقـدمها للقـوات المسلحة.. وجمعنا ثروت عكاشة وأخبرنا بذلك، وقالـت: أم كلثوم وفرت لنا العملة الصعبة وشوفوا ممكن نشترى إيه في حدود المبلغ الذى أخبرتنى به.

كانت أم كلثوم تواصل جولاتها وحفلاتهـا وجهـدها لأجل مصر في الوقت نفسه لا تكف في أى قول عن إبـداء قلقها على عبد الناصر.. قالت للكاتب محمد وجـدى قنـديل: إننى أخاف عليه من كثرة الضغوط والهموم التي يحملها فوق رأسه، وصدمة ٥ يونيو كانت عنيفة وكبيرة وهزتنـا.. فمـا بالك بالزعيم الذى تحمل المسـئولية وحـده عمـا حـدث.. وأضافت: "أنا أعرفه عن قرب، وأعرف أن يكتم كـل شـئ بداخله، ويحتفظ بأحزانه وآلامه لنفسه ولا يبوح بهـا.. إنـه كبرياء الزعيم..وعندما سألت السيدة تحية عن حاله لأطمـئن عليه أخبرتنى أنه لا يتكلم في البيت، ويخلو إلى نفسه طويلاً في غرفة مكتبه المجاورة لغرفة نومه، ويواصل العمـل ولا ينام قبل الفجر، ويصحوا مبكراً لمتابعة الموقف ويباشر كـل شئ بنفسه لإعادة بناء الجيش المصري.. هو صـعيدى ولا ينسى ثأره ورد الاعتبار لبلاده".. وأضافت: "صدقني أنا خائفه عليه وقلبي معه.. وعندما طلبت منه الموافقة على حفـلات المجهود الحربى قلت له: أرى أن أساهم بما أقدر عليه فـي المعركة وهو صوتي.. ورحب بموقفي وقلت له: يا ريس ده

واجب وطني ويا ريت أقدر أحمل سلاح.. فضـحك قـائلاً: صوتك أقوى من المدافع".

وتقول في موضع آخر :

كنت أعرف أنه متعب القلب، ومع هذا فإنه يتحمـل من روحه وجسده ما فوق طاقته لخدمة مواطنيه ورفعة شأن وطنه. وأمنت به وبما يفعل. وفي حدود طاقتي، حاولـت أن أحذو حذوه. وأتخذ منه أسوة حسنة لهذا، أبيـت أن أستسـلم لليأس: النكسة.

لم يكن أمامي إلا أحد أمرين فإما أن ألتزم الصـمت، وأقبع في ركن من الانهيار النفسي أو أن أمضي بسلاحي – وهو صوتي – أبذل مـا أسـتطيع مـن جهـد مـن أجـل المعركة.وأخترت الأمر الثاني.. أحسست بأنني أكون سـلبية لو إمتنعت عن الغناء.. وأحسست بأنني أقف وراء رسالة عبد الناصر، لو غنيت داخل الحدود، وخـارج الحـدود لأرفـع صوتي باسم وطني، وأجمع ما أستطيع أن أجمع مـن عـدة ومن عتاد من أجل المعركة، لعلي أرد بعض جميل مصـر، وبعض جميل البطل الذي يحترق من أجل مصر، والذي كرم الفن أجمل تكريم، والذي زين صدري بأرفع وسام في الدولة

وأعز قدري بجائزة الدولة التقديرية للفنون.. هذه الجائزة التي أحسست أن عبد الناصر لا يكرمني بها وحدي، وإنما يكـرم بها جميع إخواني، خدام الفن ولهذا تبرعت بمنحهـا الماديـة لصندوق الفنانين.

وبهذا غنيت في كثير من المحافظات بعد العدوان.

ثم غنيت في ليبيا وتونس والمغرب وفـي السـودان ولبنان والكويت وباريس.

وكان آخر المطاف في موسكو..ذهبت لأغني لهؤلاء الأصدقاء الذين وقفوا معنا في المعركة.

ولم أكن أدري ما يخبئ القدر وأنا في موسـكو.. إلا حينما أيقظني ابن أختي في الصباح الباكر وهو يجاهد نفسـه ويجالدها ليلمس الوسيلة التي يقول لي بها أن عبد الناصر قد ذهب إلى لقاء الله.. وأن مصر قد فجعت في أعز ما تملك.

كانت موسكو هى محطتها الأخيـرة فـي حفلاتهـا الأخيرة من أجل المجهود الحربى.. وجاءت البداية بحـوار صحفي لها لصحيفة البرافدا.. الصحيفة الناطقة بلسان الحزب الشيوعى السوفيتي.. والأولى هناك، وكان سعد الدين وهبـة طرفاً رئيسياً في هذه المحطة.

يقول سعد: ذات يوم اتصل بى مندوب جريدة اليرافدا السوفيتية في القاهرة، وقال: إنه يريد أن يجري حديثاً صحفياً مع أم كلثوم، وأن البعض دله على لأكون وسيطاً فـي هـذا الطلب لأنه عرف أنى أقابلها كثيراً، وأكتب قصـة حياتهـا، وقابلتها في نفس اليوم وأبلغتها برغبـة مراسـل البرافـدا، وسألتنى عن أهمية الصحيفة، فشرحت لها قيمتها في الاتحاد السوفيتي.. وسألتني هل أجريت حديثاً واحداً فقط مع الرئيس عبد الناصر، ووافقت أم كلثوم وطلبت منى أن أحضر اللقـاء وأذكر أنها حددت يوم الثلاثاء من نفس الأسـبوع للمقابلـة، وأبلغت الشاب الذى فرح فرحاً شديداً، وطلبت منه أن يمـر على بيتي لنذهب معا إلى بيتها، وفي الموعد المحدد قـدمت لها المراسل، وجلسنا وسألتني عن اللغة التي يتحدث بها.

فأجبتها:

- يجيد الإنجليزية.

قلت ذلك وتأهبت لمغادرة البيت بعد أن انتهت مهمتي فإذا بها تقول:

- إنجليزى.. تبقى تقعد عشان تترجم.

وكانت المرة الأولى التي أعرف فيها أنها لا تعـرف الإنجليزية رغم إجادتها للفرنسية إجادة تامة.

بدأ المراسل ينطق الأسئلة بالإنجليزية، وأترجمه إليها بالعربية ثـم أسـمع ردهـا بالعربيـة لأترجمـه للمراسـل بالإنجليزية.

وفجأة وأثناء الحديث توقفت وسألتني بالعربى.

ـ أنا باعك. (تعني أنها تقول أي كلام)

ورددت: بالعكس أنت بتقولى كلام رائع جداً.

عادت تسأل: طيب ليه الـرد اللـى أنـت ترجمتـه بالإنجليزية أطول بكثير من الرد اللى أنا باقولوا لك بالعربى.

أفهمتها أنى أطيل في الرد عن عمد حتـى لا يفلـت منى معنى أو من المراسل.

ظهر عليها الإقتناع، واستمر الحديث، وأذكر أن آخر سؤال وجهه إليها المراسل:

ـ ماذا تفعلين إذا حققتم الانتصـار علـى إسـرائيل بالسلاح السوفيتي؟

أجابت بتلقائية غريبة.

ـ أغني للشعب السوفيتي في شوارع موسكو.

ويبدو أن نشر الحديث بهذا الوضوح، لم يجعل القيادة السوفيتية تنتظر حتى يتحقق النصر فقد وجهت الدعوة إليهـا كي تغني للشعب السوفيتي في موسكو وليس في شوارعها.

# ٧

# البكاء على أكتاف د.مراد غالب

كأن رحلة أم كلثوم إلى موسكو، ترتيب قدري لطريق حزن ستعيشه حتى رحيلها في فبراير عـام ١٩٧٤.. رحـل عبد الناصر وهى هناك بعد أن أدى آخر مهامـه القوميـة.. قطع أجازته المرضية في مرسى مطروح ليعود على القاهرة لرئاسة مؤتمر القمة العربية لوضع حد لحقن الـدماء التـي سالت في العاصمة الأردنية بسبب القتال بين الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية.

قبل رحلة أم كلثوم بفترة..كان عبد الناصر في نفـس العاصمة للتفاوض مع السوفييت بشأن أسلحة جديدة.. وفـي صحيفة البرافدا قالت أم كلثوم رسالتها المغلفة بالأمنيات "لـو انتصر الجيش المصري بالسلاح السوفيتي سوف أغنى فـي شوارع موسكو".

كان الدكتور مراد غالب وزير الخارجية الأسبق هو سفير مصر في الاتحاد السوفيتي أثناء زيـارة أم كلثـوم... وكان وفاء حجازي السفير الأسبق وزيراً مفوضاً، وساهم في الإشراف على ترتيب الزياة ومرافقة أم كلثوم حتى عودتهـا

من موسكو إلى القاهرة دون غناء.. يخرج وفاء حجازي من جعبته ذكريات هذه الأيام المؤلمة قائلاً:

شهدت هذه الفترة نموا عاليا في العلاقـات الثقافيـة المصرية السوفيتية.. وكانت وزيرة الثقافة السوفيتية مهتمـة جداً بتنمية العلاقات بين البلدين في هذا المجال، كمـا لعبـت شخصية الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة المصري آنذاك، دوراً حيوياً في ذلك، وكان قادة العمـل الثقـافي السـوفيتي يعرفون قدره، ويحبونه كثيراً، ويعلمون أنـه فنـان محـب للموسيقى، قبل أن يكون وزيراً، ومن وقت إلى آخـر كـان يوجهون إليه دعوات لمشاهدة الجديد من الإنتاج الفني هناك.. ما زلت أذكر دعوته لمجرد مشاهدة بروفات بعـض أعمـال البالية على مسارح موسكو.

في هذا السياق جاءت دعوة السـوفييت لأم كلثـوم.. والمبادرة كانت من السوفيت أنفسهم.. يقول حجازي: "كـانوا يعلمون قدرها جيداً، وقيمتها الغنائية العظيمة لدى الجمـاهير العربية، بالإضافة إلى اهتمام عبد الناصر بها الذى اعتبرهـا سفيرة له ولمصر خاصة في المرحلـة التـي تلـت نكسـة ١٩٦٧.. تم الاتفاق على أن تقوم أم كلثـوم بإحيـاء أربـع

حفلات في مناطق متعددة في الاتحاد السوفيتي شملت مناطق تحب الموسيقى العربية بفضل تواجد الإسلام فيها مثل طاجكتسان، وكازاخستان، وطشقند بالإضافة إلى حفلة في موسكو".

يضيف حجازي: كنت أمارس مهام دور السفير بدلاً من الدكتور مراد غالب الذى كان خارج موسكو لبضعة أيام.. وبهذه الصفة التقيت بوزيرة الثقافة السوفيتية لكى نشرف سوياً على برنامج الزيارة، وكانت رسالة من القيادة السياسية في مصر تم إرسالها إلى القيادة السياسية السوفيتية، تطلب فيها معاملة خاصة لأم كلثوم شأنها في ذلك شأن أى مسئول سياسي مصري كبير تستقبله موسكو.. كما كانت التعليمات تأتينا أولاً بأول من القاهرة، بأن نضع أنفسنا كسفارة تحت تصرفها.. كان كل شئ يتم ترتيبه بدقة كبيرة، وأذكر أن وزيرة الثقافة السوفيتية طلب مني إبلاغ أم كلثوم قبل حضورها إلى موسكو نصحية عدم غنائها في مسرح البولوشوي، والمتفق عليه من البداية، بسبب اتساعه، كما أنه معد في الأصل ومجهز لعروض الباليه، واقترحت الوزيرة بدلاً منه قاعة تشايكوفسكي كبديل، لأنها معدة للموسيقى

والغناء، وافقت أم كلثوم على الاقتراح.. كما طلبـت وزارة الثقافة أيضاً الأغاني التي ستقدمها لترجمتها إلى الروسـية.. وأذكر أن قصـيدة " أراك عصـي الـدمع " لأبـي فـراس الحمداني، كانت ضمن الأغاني التي ستقدمها فـي طشـقند.. وفشل مترجمو الوزارة من السوفييت في ترجمة معاني عبارة "أراك عصى الدمع"، وأحضرنا مبعوثاً مصرياً كان يـدرس في موسكو لترجمتها.. ولما سألت أم كلثوم بعد ذلك عن سبب اختيار لهذه الأغنية رغم صعوبة معانيها، قالت إنها تناسـب ذوق الجمهور المسلم في طشـقند، وسـوف يقتـرب منهـا الجمهور أكثر حين يعرف أنها من التراث الشعري القديم.

لم يقتصر الاهتمام السوفيتي كما يقول حجازي على الجوانب الفنية فقط في الزيارة، وإنما امتد إلى كافة التفاصيل الأخرى..نوع الأطعمة...نوع المشروبات.. عدد المرافقين.. الأماكن السوفيتية التي ترغب أم كلثوم في زيارتها بالإضافة إلى الأماكن المحددة سلفا من السوفييت.. وفي المطار كـان في استقبالها وزيرة الثقافة وكل الشخصيات الكبيرة في طاقم وزارتها.. بالإضافة إلى طاقم السفارة المصرية، وعدد كبير من السفراء العرب، وقامت الوزارة بتنظيم حفـل اسـتقبال

رسمي لها، كما نظمت السفارة المصرية حفل استقبال، وفـي الحفلين حضر السفراء العرب ونجوم الفن والفكر والأدب من السوفييت.. كان الاحتفاء بها رائعاً على كل الأصعدة، ومـن كل الذين أتاحت لهم الظروف أن يساهموا في تنظيم الاستقبال تمهيداً لحفلاتها الفنية الأربع وكان مقدراً لها حضـور حشـد جماهيري كبير لن يقتصر على أبناء الاتحاد السوفيتي، بـل سيكون من كافة الدارسين العرب ومن بلاد العـالم الثالـث أيضاً، تقديراً لفن هذه السيدة العظيمة، وإحساساً طبيعياً مـن الجميع أنها مبعوث رسمي من شخص جمال عبد الناصر.

يسترجع وفاء حجازي ذكريات غير مباشرة قبل لقاء موسكو.. ذكريات هي مخزون طبيعي بداخله نحو أم كلثـوم شأنه في ذلك شأن أى عربي..

يقول: حين علمنا بأمر قدومها إلى موسـكو قفـزت أمامي كل ذكريات فنها..كان حفلها الخميس الأول مـن كـل شهر له مذاق ساحر لأسرتي.. أمي تجهز عشـاء خاصـاً.. بينما يشتري أبى كل ما يلزم السهرة حول الراديو.. عشـت هذه الهالة منذ الطفولة بين أسرتي.. وكان يتخللهـا أحاديـث الذكريات من كل الذين يجلسون حول الراديو لاسـتماعها..

ذكريات السياسة والفن والثقافة..نسيان كل ما يتعلق بـالهموم والمشاكل..

وظلت هذه الهالة حتى التحقـت بالكليـة الحربيـة، وتخرجت ضابطاً في الجيش، وبدأت في التردد على حفلاتها، وملاحظة معنى الإعجاب المتبادل بينها وبين ضباط الجيش.. فالمعروف عنها أنها كان تغني في الحفلات لجمهور يعرفهـا وتعرفه.. وكان هذا جانباً مهماً في انطلاقها نحو الإبداع فـي الأداء.. يزداد بريقه كلما كانت تغنـي فـي أى حفلـة بـين الضباط حيث القواعد الصارمة التي لا يمكن اختراقها وقـت الاستماع إليها.. سماع له طقوس خاصة.. ومراسم غير قابلة للكسر أو الاختراق..كان الضباط بهذه الكيفية يقودونها نحـو الإبداع في الأداء.. والتجلى منها.

ويرى حجازي أن عبد الناصر كان واحداً من ضباط الجيش، وبالتالي خضع لقاعدة الارتباط الخاصة بها شأنه في ذلك شأنه باقي الضباط.. وبعد أن قاد ثورة وتولي السـلطة، وجدت فيه أم كلثوم ما في شخصيتها وهو أنها "بتاعة الناس"، فشاركته هذا الجانب ولكن من منطلق أنه في السلطة..عثرت فيه على معنى كلمة "الراجل بتاعنـا".. أى الشـاطر حسـن

الطالع من وسط الناس الغلابة الذى يحمل كل دقائقهم.. هـذا نوع من الإحساس أو المعنى لا يمكن تصنعه أو التلوين فيه.. ربنا خلق في شخصية عبد الناصر حاجات عجيبة.. عينه مع شكله مع جسمه..اتساق متكامل يوحي بالهيبة النافـذة، وفـي اعتقادي أن أم كلثوم أحبته كمواطن مصري أصيل كما أحبه كل المصريين البسطاء، لأنها مواطنة مصرية أصيلة طلعت من وسط الناس.. وإختيار الارتباط به كقائد أعطى لفنها لوناً اجتماعياً مختلفاً، ولشخصيتها طعماً مختلفا.. هي شعرت في مرحلة من المراحل بالزهو الوطني، والحمـاس، وبالتـالي سخرت لسانها ليكون أداة من أدوات تعبير جمال عبد الناصر عن أحلامه، وأعطاها ذلك شحنة هائلة.

على خلفية هذه الذكريات جاء تعامل السـفير وفـاء حجازي مع أم كلثوم في موسكو عن قرب.. يقول: "وجـدت فيها شخصية آسرة.. لا يخرج منها لفظ أو تصرف خـارج الأصول.. وتتكلم بتلقائية عن ذكرياتها وتاريخها، ولا تخجل من ذكر أى شئ فيه.. وبهذه الطبيعة الشخصية يشعر الإنسان معها، أنها ليست نجمة فريدة في مجالها، بل إنسانة أنت جزء منها، وهى جزء منك..وأن ما وصلت إليه لم يأتى إلا بعـد

جهد وعرق ومعاناة.. كانت في جلستها لا تتجاهـل أحـداً، وتشبك الناس في الأحاديث المشتركة، وتشـارك بالاسـتماع والكلام، وبسرعة بديهة عجيبة، كنا على مائدة الغـداء فـي منزل الدكتور مراد غالب، وفرضت على الحاضرين المرح بخفة دمها وشروقها، ولاحظت أنها أكلت قليلا، فقلـت لهـا: "الأكل مش عاجبك" فضحكت قائلة: "أنا عمري ما قمت على سفرة شبعانة" وذكرتني بالحديث النبوي: "ثلث لطعامك، وثلث لشرابك"، وأضافت: "أنا باطلع على مسـرح.. ولازم أتـرك مكان فاضى في معدتى".. وفي جلسات السمر لم تكن تسـمح بأى كلام خارج على شخص عبد الناصر.. كنا فـي جلسـة بنقول نكت، وكان معنا الصحفي الراحـل كمـال المـلاخ.. ونبهها على نكتة كان المقصود بها جمـال عبـد الناصـر، ففزعت وتضايقت كثيراً.

يواصل حجازي سرد ذكرياته: جمعنا الفرح والحـب في كل اللقاءات بها.. كنا نشعر أن مصر جاءت إلينـا فـي موسكو.. جاءت في أهم شخصية فيهـا بعـد جمـال عبـد الناصر.وعودتني على التبسط معها، أصابني البرد ذات مرة فداعبتني: أنت جالك البرد واللا انت اللي رحت له ".

كان الجميع في هذه الحالة الاحتفالية والانشراحية لا يعكرها شئ، ورغم أن درجة حرارة موسكو كانت ١٦ درجة تحت الصفر، إلا أن قلوبنا الفرحة بوجود أم كلثـوم كانـت أقوى من أجهزة التدفئة في مقاومة لسعات البرد...

تناول الجميع العشاء في منزل وفاء حجـازي، ثـم تركتهم أم كلثوم لتذهب إلى الفندق للراحـة، وبينمـا يجمـع النقاش الحار كل الحاضرين.. دق جرس التليفون.. رفع وفاء حجازي السماعة.. لاحظ الجميع ارتباكه الشديد، وضياع لون وجهه.. وهروب صوته.. ثم خروجه خفيضا: "جمـال عبـد الناصر مات".. انفجر الجميع في البكاء الهسـتيرى، ولطـم الخدود، وانكفأت علـى الأرض الإذاعيـة اللامعـة سـامية صادق، والإذاعية أمانى ناشد، والبكاء المر منهما لا يوقفـه شئ.. أما وفاء حجازي فقد فشل هو الآخـر فـي مقاومـة دموعه.. حاول أن يحبس أحزانه أملاً فـي سـيطرته علـى البكاء ورغم ذلك فشل، يقول: "كنت أجري إلى الحمام.. كلما غلبني الدمع.... وأفشل في السيطرة عليه... كمية من الألـم هائلة.. ألم موجع فيه لسعة نفسية لا يمكـن وصـفها ولـم

تفارقني أبداً.. أشعر بها الآن وأنا أحدثك كل شئ كان مقبضا على النفس والدموع قليلة عليه".

سادت الحيرة بين الجميع حول كيفية إبلاغ أم كلثـوم بالخبر، ومن يستطيع القيام بهذه المهمة.

كانت الكاتب الصحفي محمد الحيوان ضـمن الوفـد الإعلامي عن صحفية الجمهورية المرافق لأم كلثوم.. يقول:

"كنا نعرف جميعاً العلاقة بين عبد الناصر وأم كلثوم، ونعرف أن عبد الناصر كرمها، وأنها قدمت خيـر أيامهـا.. ومن يستطيع أن ينقل النبأ إليها.. عجز الجميع وتهربوا.. لكن كان لابد أن يصل النبأ".

في الصباح دخل المهندس محمد الدسـوقي علـى أم كلثوم.. كان وجهه غريباً عليها.. إنه ابن شقيقتها ويلازمهـا باستمرار، وشكله اليوم يبدو مختلفاً عن الأمس... عـن كـل يوم.. وجه قاتم".

سألته أم كلثوم: ماذا بك؟ تمسك بنفسه، وقال: بعض آلام المعدة جعلتنى أسهر الليل، ثم خرج من غرفتهـا إلـى غرفته المجاورة ليكمل بكاءه.

دخل عليها رفعت الدسـوقى.. قـال لهـا: الـريس مريض... سكت، ثم أضاف: مرضه خطير..سكت، ظل على حال قول الكلمة ثم الصمت لمدة نصف ساعة.. وفي كل مرة تزيد لهفة أم كلثوم لمعرفة الباقي.. تحس إحساساً لا تريد أن تصدقه.. تبعد عن خيالها كل محاولة يتسرب من خلالها إليها شئ لا تتصوره، وأخيراً قال رفعت ما يعرفه.

ذهبت أم كلثوم في بكاء يدعوا إلى البكـاء.. لزمـت مقعـدها فـي الصـالون الملحـق بغرفتهـا ٤٨ سـاعة متواصلة..دموع صامتة تتساقط تحت نظارتهـا السـوداء.. وشهيق يهزها.. أصابعها تتشابك في نشـيج متواصـل.. لا تأكل شيئا.. لا تقول شيئاً.. ولا تفعل غير الصمت والدموع.. والمحاولات معها للكلام لا تنقطع.. لكنها لا ترد.

يقول محمد الحيوان: "ذهبت أنـا وسـامية صـادق لتعزيتها، وعجزت عن الكلام أمامها.. وعجزت سامية عـن التصرف، وتركناها لأحزانها وانصرفنا".

فتحت السفارة المصرية وكذلك السـفارات العربيـة أبوابها لتلقي العزاء، وفي يوم تشييع عبد الناصر إلى مثـواه الأخير في القاهرة في الجنازة الشعبية التي شـارك فيهـا ٦

ملايين مصري.. وملايين خرجوا الى الشوارع في كل البلاد العربية نظمت السفارة المصرية عزاء وصلاة غائب.. يقول السفير حجازي: ظلت أم كلثوم حبيسة حجرتها حتـى يـوم الجنازة، وكنت أتردد عليها بين الحـين والآخـر.. كانـت نصفين..نصف مات فور تلقيه الخبر، ونصف يعيش للبكـاء فقط.. وفي كل مرة أصعد إلى حجرتهـا، لا يجمعنـا كـلام سوى.. صباح الخير. السلام عليكم، فهى لـم تكـن تعطـي فرصة الكلام لأحد.. ويهيأ لى إنه إذا لم يكن الإنسان في هذا الوقت سيبكي فراق عبد الناصر.. كان سيبكي حال أم كلثوم.

في يوم العزاء بالسفارة المصرية... انتظر الجميـع مغادرة أم كلثوم لحجرتها.. يصـف وفـاء حجـازي هـذه اللحظات القاسية:

من لم ير أم كلثوم لحظة خروجهـا إلينـا، ونحـن ننتظرها في صالة الفندق، لم ير الحزن في صورته الحقيقة، أو كما تتحدث عنه الكتب.. اكتشفت وأنـا أنظـر إليهـا، أن عمراً جديداً أضيف إلى عمرها الحقيقي.. ذهب شروق الوجه وأصبح الفرق بينه وبين وشاحها الأسود التـي تغطـت بـه هشا.. وفي خطى متثاقلة كانت تنزل على درجات السلم وهى

تستند على ابن أختها محمد الدسوقى، ولمـا وصـلت إلـى السفارة، وفور أن شاهدت الدكتور مراد غالب ارتمـت فـي أحضانه، وراحت في بكاء مر، استمع إليهـا الجميـع.. لـم يستطع غالب أن يملك نفسه فبادلها البكاء.. اقترب الكثيرون منها لمساعدتها في الوصول إلى مقعدها.. وبعـد أن أدينـا صلاة الغائب، اقتربت منها أواسيها رغم أن المصاب مصابنا جميعاً.. قالت لى: "بقينا يتامى يا وفاء.. نفسى أقرأ قرآن في العزا.. لكن خلاص صوتى بقى مش معايا".

شعرت مع حالة أم كلثوم أن أشياء جميلة ولى زمانها وراحت مع رحيل عبد الناصر، فكل تصرفاتها كانت تـوحى بأن رحلتها مع الغناء انتهت، وأن عمرا من الجمال عشـناه معها ذهب ولن يعود!!

يضيف وفاء: انتظرت في موسكو ثلاثة أيـام حتـى موعد الطائرة التي ستقلها إلى القاهرة بعـد إلغـاء برنـامج حفلاتها.. ولم نكن خلال هذه الأيام نتبادل من الكلام سوى ما يخص ترتيبات العودة التي كانت تنتظرها علـى أحـر مـن الجمر، وكنا جميعاً في المطار لوداعها.

عادت إلى القاهرة وطلبت نادية إبنة شـقيق السـيدة تحية كاظم زوجة عبدالناصر في التليفون لتصحبها لتعزيـة تحية.. فهي على حد قولها "لا تستطيع وحـدها ان تحتمـل مواجهتها وهي في هذه الظـروف".. وكـان المشـهد بـين الصديقتين لا ينسى.. كانت أم كلثوم تعانقها وهي تبكي جمال عبد الناصر، وكأنها تبكي فقد إبنها.. بقيت تحية هـي التـي تزورها بانتظام، وعندما سافرت أم كلثوم للعلاج من متاعب الكلى بقيت تحية تتابعها دون توقف، وعندما دعاها الله ولبت النداء كانت تحية هي التي تتلقى فيها العزاء دون أن تمسـك دموعها، وكان أهل أم كلثوم وأقاربها هم الذين يواسونها.. لقد راح الموت يأخذ منها أكثر الناس قربا لها (•).

كانت الأحزان موزعة على الجميع.. فبينما ذهبت أم كلثوم إلى عزلة في بدروم أحزانها... كان منزل جمال عبـد الناصر في منشية البكرى يشهد عملية جرد لخزينـة القائـد الذى رحل.. وكانت أم كلثوم الحاضر الغائـب فـي عمليـة الجرد، يحكى سامي شرف مدير مكتب جمال عبد الناصر في كتابه: "عبد الناصر كيف حكم مصر؟ " أنه وبعد رحيل عبـد

---

• - حلقات الحب والحرب.. عادل حمودة – صحيفة البيان الإماراتية – نوفمبر – ٢٠٠٤.

الناصر، وبحضوره، جاء أنـور السـادات ومحمـد أحمـد السكرتير الخاص لعبد الناصر، والسيدة الجليلة تحية كـاظم، وأبناء عبد الناصر خالد، وهدى، وزوجها حاتم صادق، ومنى وزوجها أشرف مروان، وتم فتح الخزينة الخاصة بجمال عبد الناصر، وبعد إحصاء "الفلوس" الموجـودة وتسـجيلها فـي محضر رسمي، واعتبارها من أموال الدولة، شاهد الجميـع على الرف العلوي في الجهة اليسرى للخزينة، كتابـا كبيـر الحجم يشبه القاموس، وعلى الرف السفلي حقيبتان جلد فـي حجم ٤٠ سم أو ٥٠ سم لونها بنـى فـاتح، وكـان بـداخل الحقيبتين أول تسجيل من كل أغنية جديدة لأم كلثـوم كـان يرسلها عبد القادر حاتم وزير الإعلام إلى جمال عبد الناصر.

يقول سعد الدين وهبة: ظلت لأيام طويلة في عزلـة تامة، لا ترد على التليفونات أو تجلس مـع أى إنسـان، أو تصرح بأى شئ، وكان البكاء فقط هو التعبير الوحيـد عـن أحزانها، وكل من راقب حالتها في مثل هذه الأيام تصور أنها لن تغنى مرة ثانية.. وأن صفحة الفن ربما انطوت تماماً من حياتها، وتم تأجيل حفلتها الشهرية أكثر من مرة حتى يتاح لها فرصة لاختيار قصيدة تبدأ بها الموسـم عـن جمـال عبـد

الناصر، وذلك من بين الخطابات والبرقيات العديـدة التـى وصلتها من كل الدول العربية، وبالفعل وقع اختيارها علـى قصيدة لنزار قباني، "رسالة إلى جمال عبد الناصر".

كان ظهورها الأول في الحفلات بعـد رحيـل عبـد الناصر في الخميس الأول من فبراير عـام ١٩٧١ أى بعـد رحيل عبد الناصر بثلاثة شهور، وقدمت في حفلهـا، أغنيـة "ودرات الأيام"... وأثناء الأغنيـة، انسـابت دموعهـا مـع الكلمات.. يقول سعد الدين وهبة.. حدث شرخ في صـوتها، ولم تستطع مقاومة البكاء وابتعدت عن الميكروفـون، لكـن الجمهور استمع إلى بكائها، ونزلت الستارة لتغطي على هـذا المشهد المأساوي، يضيف سعد: تذكرت عبد الناصر وهـى تردد "ودارت الأيام.. وقابلته... ونسيت إني خاصمته" وكان هذا المقطع كما أخبرتني قد سمعه عبد الناصر منها حين كان يطمئن منها قبل رحيله على ألحانها الجديدة، وما سوف تقدمه في حفلاتها المقبلة.

كانت الحفلة وما حدث فيها تأكيداً لاعتقاد من قالوا أن أم كلثوم ماتت فنياً بموت جمال عبد الناصر.. هذا ما يقولـه الكاتب والسيناريست محفوظ عبد الرحمن الذى ظل شـهوراً

طويلة يبحث ويقلب في سيرتها لكتابة مسلسل (أم كلثـوم).. يقول: لو كان الأمر بيدى كاملاً في المسلسل، لتوقفـت فـي سيرة حياتها عند اليوم الذى حملت فيه الملايين نعش جمـال عبد الناصر.

يتذكر عمار الشريعي: احترفت الموسيقى قبل شهور من حفلة أغنية "ودارت الأيام" في فبراير ١٩٧١... وكنـت بصحبة أصدقاء لى نستمع إلى هذا الحفل، ولما حولت الغناء في الكوبليه الأخير إلـى مـوال، بكـت، وابتعـدت عـن الميكروفون.. لكن البكاء طلع، فصفق الجمـاهير بجنـون.. وقلنا جميعاً في صوت واحد.. هى افتكرت عبد الناصر وقال الناس نفس الكلام في اليوم التالي: هذه الواقعة أكـدت لـى موتها فنياً، ورغم ذلك كان لابد لها من مواصلة الغناء فـي السنوات الأربع التى عاشتها من بعده، فلو اتخـذت قـراراً بالاعتزال فور رحيل عبد الناصر، كان الأمر سيعني مـوت قيمة أكبر وأجمل القيم التى زرعها عبد الناصـر، وسـيكون هذا لدى الشعب المصري وزراً لن يغفره لها.. يقطع عمـار بالقول "كان لازم أحد غير عبد الناصر يدفعها إلى الاعتزال، أو تبقى حتى رحيلها".

كان الموت بمعناه الآخر يلاحق أم كلثوم التى عاشت ملكاً متوجا في ظل الثورة.. اختلف الأمر بمجئ أنور السادات يقول محمد حسنين هيكل: بعد وفاة عبد الناصر أحست بصدمة كبيرة جداً، أثرت فيها كثيراً أحداث ١٩٦٧، ولكنها لم تتراجع بل اندفعت تغنى أكثر للمعركة، لكن بعد وفاة عبد الناصر أحست بنوع من اليتم ككثير من المصريين والعرب، وفي يوم من الأيام كنا "معزومين" عند سيد مرعي، وكان نائب رئيس الوزراء ورئيس مجلس الشعب في مصر، وكان شخصية مرموقة ومهمة، والذى رأى هذه الحادثة عدد محدود لا يزيد على العشرة أشخاص، المهندس سيد مرعى وحرمه، أخوه مرعى مرعي وحرمه، أنا ومراتي، الرئيس السادات وحرمه، يضيف هيكل: اللى حصل أن السادات جاء يومها "لابس" بليزر أسود وقميص أبيض، أم كلثوم نظرت إليه، قالت له: "إيه ده يا ريس أنت عامل أبيض وأسود زى الشجر في الضلمة".. ضحك السادات، لكن حرمه تضايقت، فخرجت واستدعت حرم سيد مرعي، ويبدو أنها كانت متضايقة، وبعد ذلك استدعوا زوجتي، وأنا أيضاً طلعت للخارج، وقالت لي حرم السادات يرضيك هذا؟.. قلت إنها

تقول نكتة، بعد شوية مشوا، وانتهت المشكلة، وهـذا الـذى حصل بهذه الحدود،..

ويضيف هيكل: كان هذا بداية المشكلة لكن تطـورت الأمور، وأم كلثوم لم يكن لها مزاج للغناء بعد مـوت عبـد الناصر، وبدأت صحتها تتدهور، ثم فكرت فـي مؤسسـة أم كلثوم الخيرية، والمشروع لم ينجح أو اعترض عليه بشكل أو بآخر، وماتت بعده بحسرة".

ولا ينسى هيكل التأكيد على أن أم كلثوم هي من أهم الشخصيات النسائية التي عرفها.. يقول: "أنت أمـام سـيدة عندها إرادة قادرة أن تثبت نفسها، لكن عندها إرادات أخرى، أصيلة، صديقة، لما اختلفت مع الرئيس السادات، وكان اللقاء معه مشكلة.. تركته وذهبت، هو عينني مستشارا له، وقلـت أنني لن أذهب، ثم أحالني للتقاعد، لكن كـان واضـحاً لأي إنسان أنه بداية خلاف، قلت تصـريحاً جـاء فيـه: "أننـى استعملت حقي في إبداء الرأي، والرئيس السـادات اسـتعمل حقه في إقصائي عن الأهرام، واعتبر هـذا شـرخ.. "ازاي لأحد أن يقف هذا الموقف أمام رئيس الجمهورية".. رغم ذلك جاءتني.. ولم أجد رجالاً كثيـرين مثلهـا.. ورأيـتهم أمـام

السياسيين والساطة بنوع من الانكسار، أم كلثوم لم يكن لديها انكسار بوجه السلطة".

وصف هيكل لأم كلثوم بأنها "لم يكن لـديها انكسـار بوجه السلطة".. توصيف يبعث على التأمل في مسيرة هـذه السيدة.. أو بالأدق هو تلخيص في وصفه لها.. بدأت الغنـاء مع الملك فؤاد، وتعاطفت شأنها شأن باقي المصريين مع سعد زغلول.. وركبت سلم المجد في عصر فاروق، لكنها تعاملت معه بنوع من الذكاء السياسي، وكلما توافرت الفرصـة لهـا للتأكيد على استقلاليتها فعلت.. وتوحدت مع عبد الناصر قولاً وفعلاً، ورأت فيه نموذج القيادة التى تحلم بها.. وبقـدر مـا كانت تخطو خطوة نحو نظامه السياسى.. كان النظام يخطـو إليها خطوتين، وعلى الرغم من التقدير المتبادل تم ترشـيحها لجائزة الدولة التقديرية عام ٥٩، ولم تحصل عليهـا إلا فـي عام ١٩٦٧، والمؤكد أنها باتصالاتها كانت تعلـم مبـررات الرفض طوال السنوات الثماني، لكنها لم تشك لعبد الناصـر وكانت قادرة على ذلك، حتى علم هو بالأمر بنفسه.. ليس هذا فحسب بل إنها حدثته في أمر اعتقال مصـطفى أمـين دون حساب أي مخاطر قد تحدث.. ومع السادات وحسب إجمـاع

كل من عرفها أنها ماتت فنياً بموت عبد الناصر، لم تتعامـل مع السلطة الجديدة بسعي تحدي البقاء علـى أنهـا السـيدة الأولى، كما تعاملت في عصر عبـد الناصـر، أو صـاحبة العصمة كما تعاملت في عصر فاروق.

وعلى كل الأحوال، ورغم تأكيد هيكل على القصـة المشار إليها سابقاً، إلا أن السيدة جيهان السادات، حرم أنـور السادات تنفي حدوثها نهائياً وتقول: "أم كلثـوم سـت ذكيـة وفاضلة ولم تخطئ أبداً، حتى القصة هذه تخليك تحس أن أم كلثوم غلطت في أنور السادات، وأنا بأصلح لها، ده الكـلام اللي بيتقال، أم كلثوم عمرها ما غلطـت.. وكانـت شـديدة الذكاء، وكانت تحب أنور السادات جداً، وتحبنـي جـداً".. أم كلثوم وأنا باحبها وباحب صوتها وكنت أحضر حفلاتها، وفي آخر أيامها كنت أقرب الناس إليها".

حاولت أم كلثوم أن تضع كل جهدها فـي مشـروع خيرى ضخم بعد رحيل عبد الناصر يقوم برعايـة اليتـامى، وتلحق به دار سينما ومسرح، وتقدمت إلى الجهات الرسـمية بالمشروع، لكنه نام في الأدراج، ودخل في سراديب.. فـي المقابل أعلنت جيهان السادات عن مشروعها المماثل "الوفـاء

و الأمل" وسخرت كل وسائل الاعلام في الدعاية له، بينما تحول الأمر عند أم كلثوم لنوع من الاستجداء في الحصول على الموافقات على مشروعها كما يقول سعد الدين وهبة، وتنفي جيهان السادات ذلك، وتعتبره مجرد كلام: "ليه؟ أحاربها؟ أنا أقول حقائق وليس مجرد كلام، بالنسبة لمشروعها اسأل - تقول للصحفي - في وزارة الشئون الاجتماعية ستجد أن جمعية الوفاء والأمل تم تسجيلها في سنة ١٩٧٢ وهذا مثبت في الدفاتر، جمعية أم كلثوم تم تسجيلها في سنة ١٩٧٣، يعني بعدي مش قبلي، ثم أهاجمها ليه، ده أنا باحب الجمعيات الخيرية اللي تخدم بلدي، وأشجع الناس عليها، وأتمنى مش بس أم كلثوم، ألف واحدة غير أم كلثوم تعمل جمعية وتساعد بلدها.. هذه افتراءات لا أساس لها"..

يرد سعد الدين وهبة على ذلك.. "كان حمدي عاشور محافظاً للقاهرة، وكان صديقها، وكنت أنا وقتها عام ١٩٧١ رئيس الشعبة المحلية للاتحاد الاشتراكى في المحافظة، وعرض على المجلس تخصيص الأرض الخاصة بمشروعها وراء فندق ميرديان، ولكننى اعترضت، وقلت أنا هذا ليس من حق المجلس بل يجب أن يذهب الموضوع برمته إلى

مجلس الشعب، وكان هذا محل خلاف بينـي وبـين حمـدى عاشور الذى أبلغها رفضي.. ومن جانبها لم تسـتكبر علـى الاتصال بي، وحدثتني في الأمر وشرحت لها وجهة نظـري كاملة".. وكما يشير سعد الدين وهبة في روايته فإن مشروع أم كلثوم بدأ التصدي للحديث عنه في عام ١٩٧١، فيما يعني أن خطوات تسجيله رسمياً حسب روايـة جيهـان السـادات استغرقت نحو عامين، كما لم يتم تسـجيله إلا بعـد تسـجيل المشروع المماثل "الوفاء والأمل" لجيهان.

وفيما يبدو أن الأمر لم يقتصر على قضية المشروع الخيري، وإنما امتد إلى جوانب أخرى لو وضعت جميعا في شريط واحد سوف تعطي ملمحاً مفيداً.

يقول سعد الدين وهبة: عندما توفيت أم كلثوم، عـام (١٩٧٤)، اقترحنا، واقترحت الصحف على محافظة القاهرة في ذلك الوقت، أن يطلق اسمها على الشارع الـذى تسـكنه وهو شارع (أبو الفدا).. وبعد ايام علمت من محافظ القـاهرة أنه رجع لبعض أساتذة التاريخ، فرفضوا قائلين له أن (أبـو الفدا)، وأبا الفدا، هو على ابن أبى طالب كرم الله وجـه!!!، و... يضيف سعد: قلت للمحافظ أنه قول مغلوط، وأن أبا الفدا

مؤرخ للأيوبين، بل وأكبر دليل على ذلك أن الـذى يتأمـل مسميات شوارع منطقة الزمالك سيجد أن أغلبيـة الشـوارع فيها أطلقت عليها أسماء الأيوبين صلاح الدين.. شجرة الدر.. أيبك.. الصالح أيوب. الخ.

واقترح المحافظ أن يطلق اسم أم كلثوم على شـارع "الجبلاية" وهو امتداد شارع أبو الفدا من كـوبري الزمالـك حتى كوبري الجلاء..يقول سعد: وافقنا جميعـاً مـرحبين.. وضعت المحافظة لافتة واحدة (على اسـتحياء) ـ ـ طـول الشارع الذى يمتد طوله لأكثر من ٢,٥ كيلومتر، وضـعتها فوق حائط نادى الجزيرة، وعندما أنشأت نفقاً بين شارع أبـو الفدا.. وشارع أم كلثوم وافتتحه فؤاد محـى الـدين رئـيس الوزراء (مطلع الثمانينات) أسمته نفق أبو الفـدا.. وعنـدما وضعت في منطقة الزمالك لافتات تشير إلى الطريق عـادت تستخدم اسم الجبلاية منكرة أسم أم كلثـوم، ومازالـت هـذه اللافتات موجودة حتى اليوم تحمل اسـم شـارع الجبلايـة المعروف مع أنه ما زال وأصبح شارع أم كلثوم، والذي غير اسم الشارع وأعاد تغييره مرة أخرى، هى محافظة القاهرة!!

هكذا تم التعامل معها في سنواتها الأربـع الأخيـرة، وألقى هذا بظلاله بعض الشئ على ما بعد رحيلها.. غير أنها وفي سنواتها الأربع الأخيرة، استمرت على الضفة الأخـرى في علاقتها مع بيت جمال عبد الناصر.. يقول د.خالد عبـد الناصر: "لم تنقطع أم كلثوم عن زيارتها لنا في أى مناسبة".. ظلت هي كما هي.. منذ أن دخلت منزلنا لأول مرة، وحتـى رحيلها.. تحمل لنا المعزة والود والتقدير، ونحن نبادلها نفس الشئ. وكما قلت كانت صديقة مقربة للوالدة.. أضف إلى هذا أنها كانت صديقة للأستاذ هيكل وزوجته، التقيت بها كثيـراً بعد رحيل الوالد.. آخر مرة كانت في منزل هيكل وجمعتنـا جلسة طويلة ضمت والدتي وشقيقتي هدى، وأنـا والأسـتاذ هيكل وحرمه. كانت في هذه المرة متألقة كعادتهـا، وكأنهـا استدعت كل جوانب الجاذبية في شخصيتها.. بساطتها.. خفة دمها.. سرعة بديهتها.

- د. خالد.. هل غنت أم كلثوم في بيت عبد الناصر؟

- لم تغن في بيت عبد الناصر.. فلم يكن عبد الناصر يقيم حفلات غناء في منزله.. الأدق هو.. أن نقول.. كانت أم كلثوم صديقة لبيت عبد الناصر.

# أم كلثوم تكتب:

# كيف تعرفت على عبدالناصر

لا أزال أذكر أجمل الذكرى، المرة الأولى التي رأيت فيها جمال عبد الناصر.. كان ذلك في عام المأساة الكبرى في تاريخ الأمة العربية، مأساة فلسطين، سنة ١٩٤٨، حين هبت مصر للذود عن الارض السليبة، وذهب الجيش إلى هنـاك، وكان على أبواب النصر، لولا أن دبرت له الـدول الكبـرى المؤامرة التي انتهت بخدعه الهدنة الأولى، ثم الثانية، فانقلب النصر إلى هزيمة، وحوصر أبناؤنا في الفالوجـا حصـارا قاسيا مريرا أبدو خلاله ألوانا أسطورية من البطـولات فـي الصمود في وجه العدو، كانت مثار إعجاب العالم.

كنت أتتبع أنباء أخوتي وأبنائي أبطال الفالوجا يومـا بيوم، وساعة بساعة وقلبي معهم يخفق لهم في كـل لحظـة ويضرع إلى الله أن يؤيدهم في صـمودهم العظـيم إلـى أن يردهم إلينا سالمين.

وإستجاب الله الدعاء. وعاد أبطـال الفالوجـا إلـى القاهرة، وعلى رأسهم قائدهم البطل، المرحوم السـيد طـه، الذي اشتهر يومئذ باسم "الضبع الأسود".. ودعوتهم جميعا –

جنودا وضباطا – إلى حفلة شاي في بيتي.. ووجهت الـدعوة كذلك إلى وزير الحربية في ذلك الحين، الـذي اتصـل بـي معتذرا عن عدم استطاعته تلبية الدعوة،وأضاف أنه لا يـرى ضرورة لدعوة الجنود والضباط أيضا، واسـتغربت منطقـة وقلت له: لقد وجهت إليهم الدعوة وإنتهيت. وسأكون سـعيدة بهذا اللقاء بهم فإذا شرفتنا بالحضور فأهلا وسـهلا وإذا لـم تستطع، فهذا شأنك..

وجاء الأبطال إلى بيتي، وإستقبلتهم بدموع المصرية الفخور بأبناء مصر، وجلست بينهم وأنا أشعر أنهم أسـرتي صميم أسرتي، أخوتي وأبنائي.

وأذكر يومئذ أنني أقمت لهم في حديقة البيت محطـة إذاعة مصغرة، تذيع عليهم مال يطلبون من أغنياتي وقدم لي "الضبع الأسود" ضباطه وجنوده واحدا واحدا، وحدثني عـن اصحاب البطولات الكبيرة منهم، وكان في مقدمة أصـحاب هذه البطولات، الضابط الشاب جمال عبد الناصر.. وشـددت على يده وأنا أصافحه وأتأمل ما يتألق في عينيه مـن بريـق الوطنية، وحدة العزم، وعمق الإيمان وكان هذا هو أول لقاء

لي بالبطل قبل أن يلعب دوره التاريخي في حياة مصر بأربع سنوات.

أما اللقاء الثاني، فكان يوم قيام الثورة بالذات.. كـان المؤذن قد إنتهى لتوه من أذان الفجر، حين اتصل بـي ابـن أختي – وكان يومئذ ضابطا بسلاح الإشارة.. وقـال لـي.. أبشري.. لقد حقق الله سبحانه وتعالي الأمل الكبير الذي طالما كنت تحلمين به.. لقد قامت الثورة.. أسمعي الإذاعة.. كنـت يومئذ أصطاف بالأسكندرية وهرعت إلى الراديو، وسـمعت "أنور السادات" بصوته القوي المؤمن يبشر الناس بقيام الثورة ويتلو البيان الأول الذي خرجت مصر على صـيحته تتنسـم انفاس الحرية.. كان شيئا كالأحلام، بل أجمل من الأحـلام، ونهضت على الفور، وأعددت عدتي للسفر إلى القاهرة.

اتجهت إلى مطار الإسكندرية وهناك وجدت بعـض أعضاء الوزارة القائمة يومئذ – وزارة "نجيـب الهلالـي" – يتأهبون لركوب الطائرة لتذهب بهم إلى القـاهرة.. وسـألني أحد الوزراء. لماذا أنت ذاهبة إلى القاهرة؟.. قلت له بمنتهى الصرامة: قل لي أنت.. لماذا أنتم ذاهبون إلى القاهرة؟ قلـت

له هذا، لأنني كنت واثقه أنهم ذاهبون لعلهم يحاولون الوقوف في وجه القدر.

ولكن يد الله كانت فـوق أيـديهم، وبقيـت الثـورة، واستقرت في أعماق التاريخ، أما هم فقد ذهبوا مع الريح.

ونزلت من الطائرة فذهبت إلى إدارة الجيش بكوبري القبة رأسا، لأهنئ الأبطال الثـائرين علـى الظلـم والبغـي والطاغوت، الذين وثبوا ليضعوا نهاية تاريخية لعهود الظلام وكنت أتصور، وأنا أتسرب إلى مبنى إدارة الجيش، أنني لن أعرف منهم واحد.. ولكني عندما قلبت عينـي فـي وجـوه هؤلاء الأبطال، لم ألبث أن تبينت أنني أعرف من بينهم تلـك الوجوه الحبيبة المؤمنة.. وجوه أبطال الفالوجا الذين أحتفيـت بهم في بيتي منذ أربع سنوات، وفي طليعتهم وجه "جمال عبد الناصر" وتصافحنا للمرة الثانية، وقد إزداد في عينيـه هـذه المرة بريق الإصرار على النصر.

وعدت إلى بيتي في القاهرة، وإتصل بـي الاسـتاذ الشاعر أحمد رامي وسألته أن يعجل بـنظم تحيـة أقـدمها للثورة، فنظم لي الأغنية التي مطلعها:

مصر التي في خاطري وفي فمي / أحبها مـن كـل روحي مي / بني الحمي والوطن/ من منكمو يحبها مثلي أنا؟

وتابعت الثورة مسيرتها المنتصرة بقيادة "جمال عبـد الناصر".. وتوالت الأحداث.. وخرج الإنجليز مـن مصـر، وانكسر احتكار السلاح وأممت القناة، وقام العدوان الثلاثـي وانتصرت مصر مرة أخرى، وأقيم السد العالي.. الخ.. وأنـا أنفعل بهذه الأحداث حدثا وراء حدث وأترجم كل انفعال إلـى أنشودة من أناشيد الثورة وهي خير ذخر أعتز به في حياتي.. ومنها "منصورة يا ثورة أحرار" و"طوف وشوف" و"يا حبنـا الكبير" و"على باب مصر".. الخ.

غير أن هناك أنشودتين من بين كل هـذه الأناشـيد، أحسست بانفعال أعمق وأنا أغنيهما، وقد ظللت أستشعر عمق هذا الانفعال كلما ذكرتهما.

الأولى: هي الأغنية التي غنيتها لجمال عبد الناصـر يوم كتب الله له النجاة من الحادث الأثيم الذي أطلق فيه عليه الرصاص بالاسكندرية، يوم غنيت له "أجمل أعيادنا الوطنيـة بنجاتك يوم المنشية"..

والثانية: عقب النكسة.. يوم أعلن جمال ذلـك النبـأ الأسود الذي انخلع له قلب مصر، بل قلب الأمة العربية كلها، نبأ تنحيه عن الحكم.

وكنت منذ الساعة التي تأكدت فيها أنباء النكسة، قـد خاصمت النوم، ولم يعد لي هم بالليـل ولا بالنهـار، إلا أن أتفرغ لدموعي، وأتوجه إلى الله في صلاتي وضـراعتي أن يمدنا ببصيص من الأمل في إنقاذ مصر.. فلما أعلن "جمـال عبد الناصر" نبأ تنحيه عن الحكم، فقدت الأمل في إطلاله هذا البصيص من الأمل، وكنـت لا أفتـأ اتصـل بأصـدقائي، وأصدقائي يتصلون بي، ليل نهار لعل أحدنا يجد عند الآخـر نبأ يكشف الغمة ولا حديث لنا جميعا إلا عن المأسـاة التـي إزدوجت وأطبق عليها اليأس بتنحي "جمال" عن مكانه.

وفي تلك الليلة، قلت لصديقي صالح جودت، ونحـن نتحدث بالتليفون إن الأمل الباقي، هو أن يبقى جمـال عبـد الناصر في مكانة. وبعد منتصف الليل، عاود صالح جـودت الاتصال بي، وتلا على هذا المعنى منظوما في أنشودة تحمل صورة نداء إلى جمال، مطلعها: "قم واسمعها من أعمـاقي / فأنا الشعب / أبق فأنت السد الواقي / لمني الشـعب / ابـق

فأنت الأمل الباقي / لغد الشعب / ابق فأنت حبيب الشعب"..

وأملي على كلمات الأنشودة بالتليفون.. وأيقظت "رياض السنباطي"، وأمليتها عليه بالتليفون أيضا.. ولم ينم السنباطي ليلته.. وفي الصباح، كان قد انتهى من تلحينها، وبعد يوم واحد سجلتها وقدمتها الإذاعة للجماهير.. جماهير ٩ و١٠ يونية.. التي خرجت عن بكرة أبيها، في حلكة الإظلام، وتحت وابل من قنابل العدو، تطالب ببقاء جمال عبد الناصر.

وبقى جمال عبد الناصر. وعاد الأمل يطل علينا من جديد. لقيت جمال عبد الناصر قبل ذلك وبعده عشرات المرات، في مختلف المناسبات..وكان لا يفوته – رحمه الله – في كل حفله أغني بها ويشهدها في "نادي الضباط" أو "جامعة القاهرة" أو غيرهما، أن يدعوني أثناء الاستراحة وتدور بيننا أحاديث طويلة عن الفن كان شديد الاعتزاز بالفن المصري قوي الإيمان بأن أهل الفن كتيبة عزيزة من كتائب المعركة، ترسى دعائم الوحدة الشاملة، وتؤصلها في نفوس العرب، وتحرك العزائم العربية ليوم عظيم تتغلب فيه هذه الأمة على أعدائها، وتحتل المكانة اللائقة بها في المجتمع الدولي، وتثبت أنها بحق خير أمة أخرجت للناس.

وكان جمال إنسانا بكل ما في كلمة الإنسـانية مـن معان سامية.. كان يرى في ولده "خالد" رمزا لجيل الثـورة، ويحس نحو كل ابن من أبناء هذا الجيل بنفس إحساسه نحـو خالد، كلهم أولاده.. ويجب أن تتاح لكل منهم نفس الفـرص المتاحة لخالد، حتى ينشأوا في جو من تكـافؤ الفـرص.. لا فرق بين ابن رئيس الجمهورية وابـن أي مـواطن آخـر.. وهكذا يتجهون جميعا نحو بناء مسـتقبل مصـر بـإخلاص وإيمان.. والواقع أن إيمان جمال عبد الناصر كان الأسـاس الأول لإنسانيته.. كان لا يفتأ يذكر الله في كل موقف وكـان لأغني " رابعة العدوية " وقع خاص في نفسه لما فيـه مـن تصوف وروحانية، وكثيرا ما كان يقول لأهل الفـن، كلمـا التقى بهم في مناسبة من المناسبات أن أغاني رابعة العدويـة يجب أن تكون نصب أعينهم دائما كأنموذج لمثالية الغنـاء.. وكان حبه للغناء والموسيقى دليلا حيا على حسه المرهف إلى حد أنه كثيرا ما كان ينكب على العمل في مكتبه، وهو يستمع إلى الغناء المنبعث هادئا من ركـن الغرفـة وكنـت أشـعر بالفخر، كل الفخر، حين أسمع أنه يطلب أغنياتي فور تسجيلها في الإذاعة وقبل أن تذاع على الناس.

كنت أعرف أنه متعب القلب، ومع هذا فإنه يدخل من روحه وجسده ما فوق طاقته لخدمة مواطنيه ورفعـة شـأن وطنه. وآمنت به وبما يفعل. وفي حدود طاقتي، حاولـت أن أحذو حذوه. وأتخذ منه أسوة حسنة لهذا، أبيـت أن أستسـلم لليأس : وعندما وقعت النكسة.. لم يكن أمامي إلا أحد أمرين فإما أن ألتزم الصمت، وأقبع في ركن من الانهيار النفسي أو أن أمضي بسلاحي – وهو صوتي – أبذل ما أسـتطيع مـن جهد من أجل المعركة. وأخترت الأمر الثـاني.. أحسسـت بأنني أكون سلبية لو إمتنعت عن الغناء.. وأحسسـت بـأنني أقف وراء رسالة عبد الناصر، لو غنيـت داخـل الحـدود، وخارج الحدود لأرفع صوتي باسم وطني، وأجمع ما أستطيع أن أجمع من عدة ومن عتاد من أجل المعركـة، لعلـي أرد بعض جميل مصر، وبعض جميل البطل الذي يحتـرق مـن أجل مصر، والذي كرم الفن أجمـل تكـريم، والـذي زيـن صدري بأرفع وسام في الدولة وأعز قدري بجـائزة الدولـة التقديرية للفنون.. هذه الجائزة التي أحسست أن عبد الناصـر لا يكرمني بها وحدي، وإنما يكرم بها جميع إخواني، خـدام الفن ولهذا تبرعت بمنحها المادية لصندوق الفنانين.

وبهذا غنيت في كثير من المحافظات بعد العدوان، ثم غنيت في ليبيا وتونس والمغـرب وفـي السـودان ولبنـان والكويت وباريس.. وكان اخر المطاف في موسكو..ذهبـت لأغني لهؤلاء الاصدقاء الذين وقفوا معنا في المعركة.

ولم أكن أدري ما يخبئ القدر وأنا في موسـكو.. إلا حينما أيقظني ابن أختى في الصباح الباكر وهو يجاهد نفسـه ويجالدها ليلمس الوسيلة التي يقول لي بها أن عبد الناصر قد ذهب إلى لقاء الله.. وأن مصر قد فجعت في أعز ما تملـك.. ورحـت أصـرخ.. مصـر.. وطنـي.. بلـدي.. مصـير بلادي..المعركة.. ما المصير.. يا رب.. لطفك يا رب..

وعدت من موسكو دون أن أغنـي.. عـدت أسـائل نفسي: هل أستسلم ليأس ثان كيأس النكسة..أو بنفس الإيمـان الراسخ في أعماقي.. الإيمان الذي تعلمته من عبد الناصـر.. أطرح اليأس وراء ظهري.. وأمضى في طريقـي.. أغنـي للنصر حتى يوم النصر..

عن مجلة الهلال أكتوبر ١٩٧١

# بيان أغنيات أم كلثوم

| الأغنية | المؤلف | الملحن | السنة | الشركة |
|---|---|---|---|---|
| إبتسام الزهر | عمر عارف القاضي | زكريا أحمد | ١٩٣٦ | أوديون |
| أتعجل العمر | أحمد شوقي | رياض السنباطي | - | - |
| إجمعي يا مصر | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٣٨ | أوديون |
| أحبك وأنت مش داري | أحمد رامي | محمد القصبجي | - | غرامافون، ولم توزع |
| إحنا وحدنا | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٤٢ | فيلم عايدة، محاورة مع إبراهيم حمودة |
| أخذت صوتك من روحي | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٦ | غرامافون |
| أذكريني | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٣٩ | الإذاعة |
| أراك عصي الدمع | أبو فراس الحمداني | عبده الحامولى | ١٩٢٦ | - |
| اراك عصي الدمع | أبو فراس الحمداني | رياض السنباطي | ١٩٦٥ | الإذاعة |
| أرض الجدود | أحمد العدواني | رياض السنباطي | ١٩٦٦ | الإذاعة |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| أروح لمين | عبد المنعم السباعي | رياض السنباطي | ١٩٥٨ | الإذاعة وصوت القاهرة |
| إسال روحك | عبد الوهاب محمد | محمد الموجي | ١٩٧٠ | الإذاعة وصوت القاهرة |
| أصون كرامتي | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٤٨ | فيلم فاطمة |
| الأطلال | إبراهيم ناجى | رياض السنباطي | ١٩٦٦ | الإذاعة |
| أغار من نسمة الجنوب | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٥٤ | الإذاعة |
| أغداً ألقاك | الهادي آدم | محمد عبد الوهاب | ١٩٧١ | صوت القاهرة |
| أفديه إن حفظ الهوى | إبن النبيه المصري | أبو العلا محمد | ١٩٢٨ | غرامافون |
| إفرح يا قلبي | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٣٧ | فيلم نشيد الأمل |
| أقبل الليل | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٦٩ | صوت القاهرة |
| أقصر فؤادي | أحمد رامي | أبو العلا محمد | ١٩٢٦ | غرامافون |
| أقول لك إيه عن الشوق | عبد الفتاح مصطفي | رياض السنباطي | ١٩٦٥ | صوت القاهرة |
| إكتب لي | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٤٣ | الإذاعة، مفقودة |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| أكذب نفسي | بكر بن النطاح الحنفي | أبو العلا محمد | ١٩٣١ | أوديون |
| أكون سعيد | حسن صبحي | زكريا أحمد | ١٩٣٢ | أوديون |
| إلى عرفات الله | أحمد شوقي | رياض السنباطي | ١٩٦٥ | أوديون |
| اللى حبك يا هنا | أحمد رامي | زكريا أحمد | ١٩٣١ | أوديون |
| ألف ليلة وليلة | مرسى جميل عزيز | بليغ حمدي | ١٩٦٩ | الإذاعة |
| أماناً أيها القمر | إبن النبيه المصري | أبو العلا محمد | ١٩٢٨ | غرامافون |
| إمتى الهوى | يحيى محمد | زكريا أحمد | ١٩٣٦ | أوديون |
| الأمل | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٤٦ | الإذاعة |
| أمل حياتي | أحمد شفيق كامل | محمد عبد الوهاب | ١٩٦٥ | الإذاعة |
| أنا على كيفك | | أحمد صبري التجريدي | ١٩٢٦ | أوديون |
| أنا في انتظارك | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٤٣ | الإذاعة |
| أنا كنت أحب | أحمد رامي | زكريا أحمد | ١٩٤١ | |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| الشكوى إليك | | | | |
| أنا وأنت | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٤١ | مفقودة |
| أنا وأنت ظلمنا الحب | عبد الوهاب محمد | بليغ حمدي | ١٩٦١ | الإذاعة |
| أنت الحب | أحمد رامي | محمد عبد الوهاب | ١٩٦٥ | صوت القاهرة |
| أنت عمري | أحمد شفيق كامل | محمد عبد الوهاب | ١٩٦٤ | صوت القاهرة |
| إنت فاكرني | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣١ | أوديون |
| إن حالي في هواها عجب | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٦ | غرامافون |
| أنساك يا سلام | مأمون الشناوي | بليغ حمدي | ١٩٦١ | الإذاعة |
| أنشودة الجلاء (يا مصر) | أحمد رامي | محمد الموجي | ١٩٥٤ | الإذاعة |
| أنظري | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٤ | أوديون |
| إنت كنت اسامح | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٨ | غرامافون |
| إن يغب عن مصر سعد | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٧ | غرامافون |
| الآهات (آه من | بيرم | زكريا أحمد | ١٩٤٣ | الإذاعة |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| لقاك) | التونسي | | | |
| أهل الهوى | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٤٤ | الإذاعة |
| أه يا سلام | حسن صبحى | زكريا أحمد | ١٩٣٧ | أوديون |
| أوبريت عايدة (الفصل الأول) | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٤٢ | فيلم عايدة |
| أوبريت عايدة (الفصل الثانى) | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٤٢ | فيلم عايدة |
| أوقدوا الشموس | طاهر أبو فاشا | محمد الموجي | ١٩٥٥ | رابعة العدوية |
| الأولة في الغرام | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٤٤ | الإذاعة |
| أيقظت في عواطفي | أحمد رامي | محمد القصبج | ١٩٢٦ | غرامافون |
| إيه اسمى الحب | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٤٣ | الإذاعة |
| أيها الرائح المجد | الشريف الرضى | زكريا أحمد | ١٩٣٥ | فيلم وداد |
| أيها الفلك | أحمد رامي | محمد القصبجي | - | أوديون |
| بأبى ورحمي الناعمات | أحمد شوقي | رياض السنباطي | ١٩٥٤ | الإذاعة |
| بالسلام احنا بدينا | بيرم التونسي | رياض السنباطي | ١٩٦٣ | الإذاعة |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| برضاك يا خالقي | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٤٤ | فيلم سلامة |
| بطل السلام | بيرم التونسي | رياض السنباطي | ١٩٥٨ | الإذاعة |
| بعد الصبر ما طال | بيرم التونسي | رياض السنباطي | ١٩٥٨ | الإذاعة |
| بعدت عنك بخاطري | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٨ | غرامافون |
| البعد طال | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٦ | غرامافون |
| البعد علمني السهر | أحمد رامي | داود حسني | ١٩٣١ | غرامافون |
| بعيد عنك | مأمون الشنّاوي | بليغ حمدي | ١٩٦٥ | الإذاعة |
| بغداد (الشمس مالت) | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٣٩ | فيلم دنانير |
| بغداد يا قلعة الأسود | محمود حسن إسماعيل | رياض السنباطي | ١٩٥٨ | الإذاعة وصوت القاهرة |
| بكرة السفر | أحمد رامي | زكريا أحمد | ١٩٣٩ | فيلم دنانير |
| بين ذلك الهوى | أحمد رامي | زكريا أحمد | - | - |
| بين عهدين | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٤٩ | الأذاعة |
| تائب تجرى دموعي ندما | عبد الفتاح مصطفي | رياض السنباطي | ١٩٦٢ | الإذاعة |
| تبعيني ليه | حسين | محمد | - | - |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| | حملى المنسترلى | القصبجي | | |
| تراعي غيري وتتبسم | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٦ | غرامافون |
| تشوف أموري وتتحقق | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٦ | غرامافون |
| التقل ليه يا مالك قلبي | - | أحمد صبري التجريدي | - | لم تسجل على إسطوانة |
| الثلاثية المقدسة | صالح جودت | رياض السنباطي | ١٩٧٢ | الأذاعة وصوت القاهرة |
| ثوار ولآخر مدى ثوار | عبد الفتاح مصطفي | رياض السنباطي | ١٩٦١ | صوت القاهرة |
| ثورة الشك | عبد الله الفيصل | رياض السنباط | ١٩٦٢ | الإذاعة |
| جددت حبك ليه | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٥٢ | كايروفون |
| جنة نعيمي في هواك | - | داود حسنى | ١٩٣١ | أوديون |
| جمالك ربنا يزيده | حسن صبحى | زكريا أحمد | ١٩٣١ | أوديون |
| جمال الدنيا يحلالي | أحمد رامي | زكريا أحمد | ١٩٤٨ | فيلم فاطمة |
| حانة الأقدار | طاهر أبو فاشا | محمد الموجي | ١٩٥٥ | رابعة العدوية |
| حب إيه اللى انت | عبد | بليغ حمدي | ١٩٦٠ | الإذاعة |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| جاي | الوهاب محمد | | | |
| الحب كان من سنين | أحمد رامي | أحمد صبري التجريدي | ١٩٢٧ | الإذاعة وأدويون |
| الحب كده | بيرم التونسي | رياض السنباطي | ١٩٦١ | الأذاعة وصوت القاهرة |
| الحب كله | أحمد شفيق كامل | بليغ حمدي | ١٩٧١ | الإذاعة |
| حبيت ولا بانش علي | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٧ | غرامافون |
| حبيبي يسعد أوقاته | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٤٣ | الأذاعة |
| حديث الروح | محمد إقبال | رياض السنباطي | ١٩٦٧ | صوت القاهرة |
| حرمت اقول بتحبيني | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٤٠ | أوديون |
| حسن طبع اللي فتني | كامل الخُلعي | داود حسني | ١٩٣١ | غرامافون |
| حسيبك للزمن | عبد الوهاب محمد | رياض السنباطي | ١٩٦٢ | صوت القاهرة |
| حقابله بكره | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٤٦ | فيلم فاطمة |
| حكم علينا الهوى | عبد | بليغ حمدي | ١٩٧٣ | صوت القاهرة |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| | الوهاب محمد | | | |
| حلم (حبيب قلبي وافاني) | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٤٦ | الإذاعة |
| حولنا مجرى النيل | عبد الوهاب محمد | رياض السنباطي | ١٩٦٥ | الإذاعة |
| حيرانة ليه يا دموعي | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٦ | أوديون |
| حيرت قلبي معاك | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٦١ | صوت القاهرة |
| حيوا الربيع | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٣٥ | فيلم وداد |
| خاصمتني | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣١ | أوديون |
| خايف يكون حبك لى | أحمد رامي | أحمد صبري التجريدي | ١٩٢٤ | أوديون |
| الخلاعة والدلاعة | - | أحمد صبري التجريدي | ١٩٢٦ | أوديون |
| خلي الدموع دي لعيني | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٥٨ | غرامافون |
| خيالك في المنام حلمي | أحمد رامي | محمد القصبجي | - | - |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| دليلي احتار | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٥٨ | صوت القاهرة |
| ذكريات | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٥٦ | صوت القاهرة |
| راجعين بقوة السلاح | صلاح جاهين | رياض السنباطي | ١٩٦٧ | الإذاعة وصوت القاهرة |
| رباعيات الخيام | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٤٩ | الإذاعة |
| رحلت عنك ساجعات الطيور | أحمد رامي | زكريا أحمد | ١٩٣٩ | فيلم دنانير |
| رق الحبيب | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٤٤ | كايروفون |
| روحي وروحك | حسين والى | دواد حسني | ١٩٣١ | أوديون |
| زارني طيف في منامي | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٦ | غرامافون |
| الزعيم والثورة | عبد الفتاح مصطفي | رياض السنباطي | ١٩٦٣ | الإذاعة |
| زهر الربيع | محمد الأسمر | زكريا أحمد | ١٩٤٥ | - |
| الزهر في الروض | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٩ | فيلم دنانير |
| سقط النقاب | عبد الفتاح مصطفي | بليغ حمدي | ١٩٦٧ | الإذاعة |
| سكت والد مع تلكم | أحمد رامي | محمد | ١٩٢٦ | غرامافون |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| | | القصبجي | | |
| سلام الله على الحاضرين | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٤٤ | فيلم سلامة |
| سلوا قلبي غداة سلا | أحمد شوقي | رياض السنباطي | ١٩٤٦ | كايروفون |
| سلو كؤوس الطلا | أحمد شوقي | رياض السنباطي | ١٩٤٦ | الإذاعة |
| سهران لوحدي | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٥٠ | الإذاعة |
| السودان (وقى الأرض) | أحمد شوقي | رياض السنباطي | ١٩٤٦ | كايروفون |
| سيرة الحب | مرسي جميل عزيز | بليغ حمدي | ١٩٦٤ | الإذاعة |
| شجانى نوحي بكيت | أحمد رامي | زكريا أحمد | ١٩٣٦ | أوديون |
| شرف حبيب القلب | أحمد رامي | داود حسنى | ١٩٣٠ | غرامافون |
| شفت بعيني ما حدش قال لي | أحمد رامي | أحمد صبري التجريدي | ١٩٢٦ | أوديون |
| الشك يحيي الغرام | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٨ | غرامافون |
| شمس الأصيل | بيرم التونسي | رياض السنباطي | ١٩٥٨ | الإذاعة |
| الصباح الجديد (رأيت خطاها) | محمود حسن | رياض السنباطي | ١٩٦٥ | الإذاعة |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| | إسماعيل | | | |
| الصب تفضحه عيونه | أحمد رامي | أبو العلا محمد | ١٩٢٤ | غرامافون |
| صحيح خصامه ولاّ هزار | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٦ | غرامافون |
| صدق وحبك مين يقل | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٦ | غرامافون |
| صوت السلام | بيرم التونسي | رياض السنباطي | ١٩٥٦ | الإذاعة |
| صوت الوطن (مصر التي) | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٥٢ | الإذاعة |
| طاب النسيم العليل | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٩ | فيلم دنانير |
| طريقٌ واحد (أصبح عندي) | نزار قباني | محمد عبد الوهاب | ١٩٦٩ | صوت القاهرة |
| طلع الفجر ولاح | - | أحمد صبري التجريدي | ١٩٢٦ | أوديون |
| طوف وشوف | عبد الفتاح مصطفي | رياض السنباطي | ١٩٦٢ | صوت القاهرة |
| ظلموني الناس | بيرم التونسي | رياض السنباطي | ١٩٤٨ | فيلم فاطمة |
| عادت ليالي الهنا | أحمد رامي | زكريا احمد | ١٩٣٨ | أوديون |
| عرفت الهوى مذ عرفت هواك | طاهر أبو فاشا | رياض السنباطي | ١٩٥٥ | رابعة العدوية |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| العزول فايق ورايق | حسن صبحي | زكريا أحمد | ١٩٣٢ | أوديون |
| عطف حبيبي وهناني | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٤٢ | فيلم عايدة |
| على باب مصر | كامل الشناوي | محمد عبد الوهاب | ١٩٦٤ | صوت القاهرة |
| على بلد المحبوب | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٣٥ | فيلم وداد |
| على عيني الهجر | أحمد رامي | أم كلثوم | ١٩٢٨ | غرامافون |
| على عيني بكت عيني | طاهر أبو فاشا | رياض السنباطي | ١٩٥٥ | رابعة العدوية |
| عودت عيني | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٥٨ | الإذاعة وصوت القاهرة |
| عيني فيها الدموع | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣١ | أوديون |
| عيني يا عيني | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٤٤ | سلامة |
| غُلُبت اصالح | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٤٦ | كايروفون |
| غنى الربيع | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٤٦ | كايروفون |
| غني لي شوي شوي | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٤٤ | فيلم سلامة |
| فات الميعاد | مرسي جميل | بليغ حمدي | ١٩٦٧ | صوت القاهرة |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| | عزيز | | | |
| فاكر لما كنت جنبي | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٣٩ | الإذاعة |
| فضل لي إيه يا زمان | أحمد رامي | زكريا أحمد | ١٩٤٢ | فيلم عايدة |
| فكروني | عبد الوهاب محمد | محمد عبد الوهاب | ١٩٢٤ | الإذاعة |
| الفل والياسمين | ـ | أحمد صبري التجريدي | ١٩٦٦ | أوديون |
| فين العيون | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٦ | أوديون |
| فين يا ليالي الهنا | ـ | زكريا أحمد | ١٩٣٤ | أوديون، لم توزع |
| في نور محياك | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٤٤ | فيلم سلامة |
| قال إيه حلف | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٤ | أوديون |
| قالوا أحب القس سلاّمة | على أحمد باكتير | رياض السنباطي | ١٩٤٤ | فيلم سلامة |
| قالوا لى إمتى قلبك يطيب | أحمد رامي | زكريا أحمد | ١٩٣١ | أوديون |
| قصة الأمس (أنا لن أعود) | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٥٨ | صوت القاهرة |
| قصة السد (كان | عزيز | رياض | ١٩٦٠ | الإذاعة |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| حلماً) | أباظة | السنباطي | | |
| قضيت حياتي | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٣٧ | فيلم نشيد الأمل |
| الطقن فتح | أحمد رامي | زكريا أحمد | ١٩٤٢ | فيلم عايدة |
| قلبك غدر بي | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٦ | غرامافون |
| قلبي عرف | كامل الخلُعي | داود حسني | ١٩٣١ | غرامافون |
| القلب يعشق كل جميل | بيرم التونسي | رياض السنباطي | ١٩٧٢ | صوت القاهرة |
| قل للبخيلة بالسلام | - | أبو العلا محمد | ١٩٢٨ | غرامافون |
| قلي لي ولا تخبيش | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٤٤ | فيلم سلامة |
| قم واسمعها من أعماقي | صالح جودت | رياض السنباطي | ١٩٦٧ | - |
| قولي لطيف ينثني | الشريف الرضي | زكريا أحمد | ١٩٣٩ | فيلم دنانير |
| قوم بإيمان وبروح وضمير | عبد الوهاب محمد | رياض السنباطي | ١٩٦٧ | الإذاعة |
| كل الأحبة اتنين | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٤٢ | مفقودة |
| كل ليلة وكل يوم | مأمون الشنّاوي | بليغ حمدي | ١٩٦٤ | - |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| كل ما يزداد | - | داود حسني | ١٩٣١ | غرامافون |
| كم بعثنا مع النسيم | إبراهيم حسني ميرزا | أحمد صبري التجريدي | ١٩٢٦ | كايروفون |
| كم بعثنا من النسيم | إبراهيم حسنيميرزا | أبو العلا محمد | - | مفقودة |
| كنت خالى لا حبيب | كامل الخلُعي | داود حسني | ١٩٣١ | غرامافون |
| كيف مرت على هواك القلوب | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٤٤ | كايروفون |
| لاح نور الفجر | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٤١ | عيد جلوس الملك، ولم تُذع بعدئذ |
| لسه فاكر قلبي | عبد الفتاح مصطفي | رياض السنباطي | ١٩٦٠ | صوت القاهرة |
| لغيرك ما مددت يدا | طاهر أبو فاشا | كمال الطويل | ١٩٥٥ | رابعة العدوية |
| للصبر حدود | عبد الوهاب محمد | محمد الموجي | ١٩٦٣ | صوت القاهرة |
| الليل آهه طال | مصطفي نجيب | محمد القصبجي | ١٩٣١ | - |
| ليلة حب | أحمد شفيق كامل | محمد عبد الوهاب | ١٩٧٣ | الإذاعة |
| الليل يطّول ويكيدنى | حسين حلمي | زكريا أحمد | ١٩٣١ | أوديون |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| | المنسترلي | | | |
| (غصبن عني) | | | | |
| لما أنت ناوية تهاجريني | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٣٦ | أوديون |
| لى لذة لى ذلتي | نصر الله الدجاجى | أحمد صبري التجريدي | ١٩٢٦ | أوديون |
| ليه تلاوعني | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٢ | أوديون |
| ليه عزيز دمعي تذله | حسن صبحي | زكريا أحمد | ١٩٣١ | أوديون |
| ليه يا زمان كان هواي | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٥ | فيلم وداد |
| ليلى ونهارى (لا يا حبيبي) | عبد الفتاح مصطفي | رياض السنباطي | ١٩٦٥ | صوت القاهرة |
| ما تروق دمك | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٦ | غرامافون |
| ما دام تحب بتنكر ليه | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٤٠ | كايروفون |
| ما كانش ظني في الغرام | يحيى محمد | زكريا أحمد | ١٩٣٩ | أوديون |
| مالك يا قلبي حزين اليوم | أحمد رامي | زكريا أحمد | ١٩٣٢ | أوديون |
| مالي فُتنت بلحظك | على الجارم | أحمد صبري | ١٩٢٦ | غرامافون |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| | | التجريدي | | |
| مثل الغزال نظرة | صفي الدين الحلّي | أبو العلا محمد | ١٩٢٦ | غرامافون |
| محتار يا ناس | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣١ | أوديون |
| محلاك يا مصري | صلاح جاهين | محمد الموجي | ١٩٥٧ | الإذاعة |
| مشى المجد في يومه | طاهر أبو فاشا | رياض السنباطي | ١٩٥٩ | الإذاعة |
| مصر (أنشودة) | إبراهيم ناجي | رياض السنباطي | ١٩٦٩ | الإذاعة |
| مصر تتحدث عن نفسها | حافظ إبراهيم | رياض السنباطي | ١٩٥١ | الإذاعة |
| (وقف الخلق) | - | - | - | - |
| الملك بين يديك | أحمد شوقي | رياض السنباطي | ١٩٣٦ | في تولّى فاروق سلطة الملك |
| من أجل عينيك | عبد الله الفيصل | رياض السنباطي | ١٩٧١ | صوت القاهرة |
| من أطلع الفجر الجديد | محمد الماجى | رياض السنباطي | ١٩٦٦ | - |
| منصورة يا ثورة أحرار | عبد الفتاح مصطفي | رياض السنباطي | ١٩٥٨ | الإذاعة |
| منيت شبابي | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٧ | فيلم نشيد الأمل |
| مين اللي قال | عبد | زكريا أحمد | ١٩٣٦ | أوديون |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| | الرحمن فياض | | | |
| ناسيه ودادي وجافياني | أحمد رامي | زكريا أحمد | - | - |
| نامي نامي يا ملاكي | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٧ | فيلم نشيد الأمل |
| نشيد الجامعة | عبد الفتاح مصطفي | رياض السنباطي | ١٩٣٧ | فيلم نشيد الأمل |
| نصرة قوية | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٤٨ | فيلم فاطمة وكايروفون |
| نورك يا ست الكل | بيرم التونسي | محمد القصبجي | ١٩٤٨ | فيلم فاطمة وكايروفون |
| النوم يداعب | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٣٦ | أوديون |
| **نهج البردة (ريمه على القاع)** | أحمد شوقي | رياض السنباطي | ١٩٤٦ | كايروفون |
| النيل (من أى عهد) | أحمد شوقي | رياض السنباطي | ١٩٤٩ | كايروفون |
| هايم في بحر الحياة | أحمد رامي | محمد القصبجي | - | - |
| هجرتك يمكن انسى | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٥٩ | الإذاعة وصوت القاهرة |
| هذه ليلتي وحلم حياتي | جورج جرداق | محمد عبد الوهاب | ١٩٦٨ | الإذاعة وصوت القاهرة |
| هلّت ليالي القمر | أحمد رامي | رياض | ١٩٤٦ | الإذاعة |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| | | السنباطي | | |
| هو ده يخلّص منم الله | بديع خيري | زكريا أحمد | ١٩٣١ | أوديون |
| هو صحيح الهوى غلاّب | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٦٠ | الإذاعة |
| والدنا جمال عبد الناصر | نزار قباني | رياض السنباطي | ١٩٧٠ | الإذاعة في وفاة عبد الناصر |
| والله زمان يا سلاحي | صلاح جاهين | كمال الطويل | ١٩٥٦ | صوت القاهرة، نشيداً وطنيا |
| والله ماحدش جنى | - | أحمد صبري التجريدي | ١٩٢٧ | أوديون |
| وحقّك أنت المنى | عبد الله الشبراوى | أبو العلا محمد | ١٩٢٦ | غرامافون |
| ودارت الأيام | مأمون الشناوي | محمد عبد الوهاب | ١٩٧٠ | صوت القاهرة |
| الورد جميل | بيرم التونسي | زكريا أحمد | ١٩٤٨ | فيلم فاطمة |
| الورد فتح | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٣٨ | - |
| وفق الله على النور | محمود حسن إسماعيل | رياض السنباطي | ١٩٥٨ | الإذاعة |
| وقفت أودع حبيبي | أحمد رامي | فريد غصن | ١٩٤٣ | الإذاعة،مفقودة |
| ولحد إمتى ح تداري | أحمد رامي | محمد | ١٩٢٦ | غرامافون |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| | | القصبجي | | |
| ولد الهدى | أحمد شوقي | رياض السنباطي | ١٩٤٦ | كايروفون |
| يا آسى الحي | إسماعيل صبري | أبو العلا محمد | ١٩٣٥ | فيلم وداد |
| يا بعيد الدار | عباس بن الأحنف | زكريا أحمد | ١٩٤٤ | فيلم سلامة |
| يا بهجة العيد السعيد | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٧ | فيلم نشيد الأمل |
| يا جمال يا مثال الوطنية | بيرم التونسي | رياض السنباطي | ١٩٥٤ | في نجاة عبد الناصر في محاولة اغتياله بالاسكندرية |
| يا جمال يا مثال الوطنية | بيرم التونسي | رياض السنباطي | ١٩٦٣ | في انتخابه رئيسا ولاية أخرى |
| يا حبنا الكبير | عبد الفتاح مصطفي | رياض السنباطي | ١٩٦٥ | في عيد الثورة |
| يا دارنا يا دار | أحمد العدوانى | رياض السنباطي | - | لإذاعة الكويت |
| يا روحي بلا كتر أسية | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٨ | غرامافون |
| يا ريتني كنت النسيم | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٦ | غرامافون |
| يا ستي ليه المكايدة | أحمد رامي | أحمد صبري التجريدي | ١٩٢٦ | أوديون |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| يا شباب النيل | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٣٧ | فيلم نشيد الامل |
| يا صباح الخير ياللي معانا | بيرم التونسي | محمد القصبجي | ١٩٤٨ | فليم فاطمة وكايروفوة |
| يا صحبة الراح | طاهر أبو فاشا | رياض السنباطي | ١٩٥٥ | رابعة العدوية |
| يا صوت بلادنا | عبد الفتاح مصطفي | محمد الموجي | ١٩٦٤ | تحية للإذاعة |
| يا طول عذابي | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٤٦ | الإذاعة |
| يا طير يا عيش أسير | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٥ | فيلم وداد |
| يا ظالمني | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٥١ | صوت القاهرة |
| يا عشرة الماضي | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣١ | أوديون |
| يا عين دموعك | أحمد رامي | داود حسني | ١٩٣١ | أوديون، لم توزع |
| يا غائباً عن عيوني | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣١ | أوديون |
| يا فايتنى وأنا روحي معاك | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٩ | أوديون |
| يا فؤادي إيه ينويك | أحمد رامي | داود حسني | ١٩٤٢ | أوديون |
| يا فؤادى إيه ينوبك | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٤٢ | فيلم دنانير |
| يا فرحة الأحباب | أحمد رامي | زكريا احمد | ١٩٣١ | فيلم عايدة |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| يا قلبي بكرة السفر | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٢٦ | فيلم عايدة |
| يا قلبي كان مالك | يحيى محمد | زكريا أحمد | ١٩٣١ | أوديون |
| يا كروان والنبي سلم | - | أحمد صبري التجريدي | ١٩٤٨ | أوديون |
| ياللي انت جنبي | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٣ | أوديون |
| ياللي انحرمت الحنان | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣١ | فيلم فاطمة |
| ياللي تشكي م الهوى | أحمد رامي | زكريا أحمد | ١٩٣١ | - |
| ياللي جفاك المنام | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣١ | أوديون |
| ياللي جافيت ارحم حالي | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٩ | كايروفون |
| ياللي رعيت العهود | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٦ | أوديون |
| ياللي شغلت البال | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣١ | أوديون |
| ياللي صنعت الجميل | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٧ | فيلم نشيد الأمل |
| ياللي كنت يشجيك أنيني | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٤٩ | كايروفون |
| ياللي ودادك صفالى | أحمد رامي | محمد | ١٩٣٥ | فيلم وداد |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| | | القصبجي | | |
| ياللي وفي لك قلبي | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٠ | - |
| ياليلة العيد آنستينا | أحمد رامي | رياض السنباطي | ١٩٣٩ | فيلم دنانير |
| يا ليل نجومك شهود | أحمد رامي | زكريا أحمد | ١٩٣٥ | فيلم وداد |
| يا ما أمر الفراق | أحمد رامي | زكريا أحمد | ١٩٣١ | أوديون |
| يا ما ناديت من أسايا | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٦ | أوديون |
| يا مجد يا ما اشتهيتك | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٧ | فيلم نشيد الأمل |
| يا مسهرني | أحمد رامي | سيد مكاوى | ١٩٧٢ | صوت القاهرة |
| يا نجم مالك حيران | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٨ | أوديون |
| يا نسيم الفجر | أحمد رامي | أم كلثوم | ١٩٣٦ | أوديون |
| يا ورد ياللي الندى | أحمد رامي | زكريا أحمد | - | - |
| يصعب على (أحب أقول) | أحمد رامي | محمد القصبجي | ١٩٣٠ | - |
| ينوبك إيه من تعذيبي | علي شكري | محمد القصبجي | ١٩٣٨ | مفقودة |
| يوم الهنا حبي صفالي | أحمد رامي | داود حسنى | ١٩٣١ | غرامافون |

# مراجع

## * كتب


- ١- ملفات السويس محمد حسنين هيكل ـ الأهـرام ١٩٨٦
- ٢- عبد الناصر فتحى رضوان ـ كتاب الهـلال ـ يوينو٩١
- ٣-سامى شرف لعبد الله إمام عبد الله إمام ـ مدبولى الصغير ـ ١٩٩٦عبد الناصر كيف حكم مصر
- ٤- تراث الغناء العربى كمال النجمي ـ دار الشروق ـ ١٩٩٣
- ٥- كتاب: السبعة الكبار في الموسيقى تأليف فيكتور سحاب ـ دار العلم للملايين ـ بيروت مايو ٨٧
- ٦- مجلة "الكتب.. وجهات نظـر" مقـال (محمـد القصبجي) د.رتيبة الحفنى عدد ١٣ فبراير ٢٠٠٠
- ٧- الفن في حياتنا فتحى غانم ـ روز اليوسـف ـ يونيو ١٩٦٦

- ٨- محمد عبد الوهاب.. سيرة ذاتية لطفي رضـوان ـ كتاب الهلال ـ يوينة ١٩٩١
- ٩- هموم المسرح وهمومي د.على الراعي ـ كتاب الهلال ـ يونية ١٩٩٤
- ١٠- مشواري مع عبـد الناصـر (مـذكرات) د. منصور فايز – دار الهلال – عام ١٩٩١
- ١١- الديمقراطية ونظام ثورة يوليو طارق البشري ـ دار الهلال ـ ديسمبر ٩١
- ١٢- أم كلثوم سـعد الـدين وهبـة ـ الجمعيـة المصرية لكتاب ونقاد السينما ـ سبتمبر ٩١
- ١٣- المعممون فـي سـاحة الغنـاء والطـرب – عبدالنور خليل – كتاب الهلال – مصر – أغسطس ٢٠٠١ – العدد ٦٠٨
- ١٤- الموسيقى الشرقية والغناء العربي، مع السيرة الذاتية للفنان عبده الحمـولي – قسـطندي رزق – مكتبة مدبولي – مصر – سلسلة صفحات من تاريخ مصر – عام ٢٠٠٠ – طبعة ثانية.

- ١٥- أم كلثوم معجزة الغناء العربي – مكتبة الأسرة – دار الشروق – مصر – ١٩٩٧.
- ١٦- صوت مصر أم كلثوم – والأغنيـة العربيـة والمجتمع المصري في القرن العشرين – فرجينيـا دانيلسون – ترجمة، عادل هلالي عناني – المجلـس الأعلى للثقافة – مصر عام ٢٠٠٤ – طبعة أولى
- ١٧- فؤاد الأول – المعلوم والمجهول – د. يونـان لبيب رزق – دار الشروق - مصر – عام ٢٠٠٥ طبعة أولى
- ١٨- ملك النهاية.. فاروق كما عرفته – مـذكرات كريم ثابت – دار الشروق – مصر – طبعة أولـى ٢٠٠٠

*** دوريات**

- ١٩ ـ جريدة الجمهوريـة.. أعـداد ٤,٣,٢ ينـاير ١٩٧٠
- ٢٠ مجلة الهلال (شهرية) أكتوبر ١٩٧١
- ٢١ ـ الأهرام أعداد ٧,٦,٥ فبراير ١٩٧٥
- ٢٢ ـ الأخبار أعداد ٧,٦,٥ فبراير ١٩٧٥

- ٢٣ ـ الجمهورية أعداد ٧,٦,٥ فبراير ١٩٧٥
- ٢٤ ـ مجلة الثقافة العربيـة (شـهرية) المؤسسـة العربية للصحافة ـ ليبيا ـ إبريل ١٩٧٥.
- ٢٥ ـ مذكرات محمود الشريف ـ إعـداد محسـن الخياط.
- ٢٦ ـ مجلة الشاهد (شهرية) ـ قبـرص ـ أعـداد يناير ٨٩ حتى يناير ١٩٩٠.
- ٢٧ ـ مجلة آخر ساعة ـ العـدد ٢٤٠٤ ـ ينـاير ٢٠٠٠
- ٢٨ ـ جريدة العربي ـ محمد حسنين هيكـل فـي حوار مع تلفزيون المستقبل اللبنانى ـ ١٢ ديسـمبر ٩٤.
- ٢٩ ـ الأهرام ـ ٧ مارس ١٩٩٧.
- ٣٠ ـ الأهرام ـ ١٦ يناير ٢٠٠٠.
- ٣١ ـ مجلة فن ـ عدد ٣٧٩ ـ بيروت ـ ٥ مايو ١٩٩٧.
- ٣٢ ـ مجلة نصف الدنيا ـ ملحق خاص ( ثومة ٦ فبراير ٢٠٠٠).

- ٣٣- جريدة القاهرة – العدد ٢٥٣ ١٥ فبراير عـام ٢٠٠٥ – مقالات
- صلاح عيسى.. تعظيم سلام للوطن الذي أنجبك.. يا ست الكل.
- د. نبيل حنفي محمود – أسطورة حفلات الست
- أحمد سعيد يتذكر أسرار كوكب الشرق مـع إذاعـة الثورة – حوار صحفي أجراه إبراهيم عبدالعزيز
- سيد حجاب يكتب.. أم كلثوم بين اليمين واليسار
- مجلة المصور – عدد ٤ مايو ٢٠٠٥.
- حلقات الحب والحرب – الخطابات المتبادلـة بـين جمال عبدالناصر وقرينته تحية كـاظم – صـحيفة البيان – الإمارات – سبتمبر – نوفمبر ٢٠٠٤.

* **لقاءات خاصة:**

- تسجيل صوتي مع الموسيقار كمال الطويل ـ الثامنة مساء ١٥ يونيو ٩٦ ـ بمنزله بالزمالك.
- تسجيل صوتي مع سعد الدين وهبة ـ الثانية ظهـرا ـ ٥ يناينر ١٩٩٧ ـ اتحاد الفنانين العرب.

- تسجيل صوتي مع الشاعر أحمد شفيق كامل الثامنـة مساء ٧ مايو ١٩٩٧ ـ في منزله بالقصر العيني.
- تسجيل صوتي مع الموسيقار عمار الشريعي السابعة مساء ٢٠ مايو ١٩٩٧ ـ منزله بالمهندسين.
- تسجيل صوتي ـ السفير وفاء حجـازى ـ الثانيـة ظهراً ـ النادى الدبلوماسي ١٥ مايو ١٩٩٧.
- اتصال تليفوني.. عبد القادر حاتم وزيـر الأعـلام الأسبق ٦ مايو ٩٧ السادسة مساء.
- تسجيل صوتي ـ الناقد والمؤرخ الموسـيقى فـرج العنتري الخامسة مساء ٦ يناير بمنزله بالمهندسين.
- تسجيل صوتي ـ الدكتور خالد جمال عبد الناصـر الحادية عشرة صباحاً ٢٠ فبرايـر ١٩٩٩ بمصـر الجديدة.
- سجيلات خاصة لمذكرات الإعلامي أحمد سعيد، أول رئيس لإذاعة صوت العرب – عام ٢٠٠٠ بمنزلـه بالزمالك
- لقاء مع الكاتب والسيناريست محفوظ عبد الـرحمن الثانية ظهراً ـ ٩ فبراير ١٩٩٧ ـ المهندسين.

- لقاء مع اللواء صابر عثمـان - ضـابط الحراسـة الخاصة بعبد الناصر والمسئول عن أمن منزل عبـد الناصر بعد رحيله ١٣ يناير ٩٧ - مدينة نصر.